أميريكو كاسترو

حضارة الإسلام في أسبانيا

(دراسة تاريخية مقارنة في اللغة والأدب والسير الذاتية)

ترجمة وعرض وتعليق

الدكتور سليمان العطار

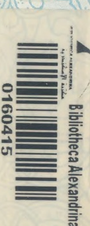
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٨٣

دار الثقافة للنشر والتوزيع

٢ شارع سيف الدين المهراني

تليفون ٩٠٤٦٩٦



- ٢٢ -

أميريكو كاسترو

حضارة الإسلام في أسبانيا

(دراسة تاريخية مقارنة فى اللغة والأدب والسير الذاتية)

ترجمة وعرض وتعليق

الدكتور سليمان العطار
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٨٣

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهراني
تليفون ٩٠٤٦٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمـــة ....

هذا الكتاب عمل نبيل يكشف الكثير عن حضارة الاسلام وحضارة الغرب انطـــلاقا من احدى قواعد الفعـل المؤثر للحضارتين فى التقائهما المستمر : الأندلس .

أما جهدى فى تقديمه الى القارىء العربى فيتمثل فى :

١ ـ هوامش الكتاب بما فيها من تعليقات يعد بعضـــها مشاريع لبحوث علمية ، والمصادر والمراجع فى آخر الكتاب تكشف عن بعض منابع المادة العلمية وان كانت خبرتى هى المصدر الأول .

٢ ـ اختصار الكتاب الأصلى الضخم جدا دون اخــلال بسياقه ودون اخلال بدقة الترجمــة حيث كان الكاتب يكثر من الاستشهاد بنصـوص لاثبــات نظرياته التى يتــوقع رفضها مبدئيا من القارىء الاســبانى ولم يعـد الأمر كذلك الآن فى تقديم العمل للقــارىء العربى وأيضـا فى الطبعات الأخيرة من الكتاب : الكاتب نفسه استغنى عن بعض هـذه الاستشهادات بعد ثبــات نظرياته . ولهذا استغنينا عن كثير من هـذه النصوص فجـاء الكتــاب مختصرا ومفيـدا

ودقيقا · ومن ثم فكل فقرات الكتاب، بأسلوب مؤلفه وما لنا في ثنايا الكتاب قليل لا يعدو بعض أدوات الوصل أو الاستغناء عن النصوص الكثيرة بنتائجها الحاسمة ·

٣ ـ نقل الاستشهادات من نصوص عربية وأندلسية مترجمة للاسبانية الى أصولها العربية ·

٤ ـ مايهم القارىء العربى جاء مترجما كاملا ومالا يهمه كثيرا تم الاختيار بداخله فجاء مختصرا محافظة على سياق الكتاب ·

٥ ـ تم التعريف بالأشخاص والاماكن وبعض المصطلحات رجوعا الى عدد من المعاجم المتخصصة وبعد · فالله ولى التوفيق ؟

سليمان العطار

تقـــديم

لاشك أن العرب واسلامهم ـ بعالميته ـ يمثلون قطعـة حية من كتلة الحضارة العالمية ٠ وهى قطعة غاليـة علينـا لأنها جماع حاضرنا وصورة مستقبلنا ٠ والتعبير «قطعة» لايعنى القطـــع فى التحديد انمـا فى الوجود ٠ والوجود استمرار يتحرك بين الأخذ والعطـاءناميا ممتدا تشـــكله الحياة ٠ واذا قطعنا بوجود حضارتنا فعلينا أن نسعى فى تتبع حدودها لنصل الى بعض القطع فى منـــاطق من هذه الحدود ٠ وكل قطع فى هذا المجال هو خطوة بهذه الحدود نحو الأمام فى اتساع لأنه يؤدى بنا الى فهم أنفسنا وفهـم العالم من حولنا ٠ ولما كانت الحضارة منجزا انســـانيا مشتركا فاننا بقدر جهدنا فى خلـق « قطعـــة » من كتلـــة الحضارة العالميـة نؤثر فى العـــالم ونتأثر به ٠ والتأثير والتأثر شقا حركة الوجود وبهما تتحق الذات ٠ وخلال تحقق الذات ندرك سر الوجود وجوهر الحضـــارة ٠ فقد يدرك فريق من الناس أن التأثير فى الآخرين مفخرة كمـــا يدرك فريق آخر أن التأثر نقص يخجل ٠ والواقع غير هذا وذاك ، لأن من طبيعته الجمع بين الأمرين على اختلاف فى خـــط كل مرحلة من تاريخ أمة ما فى حجم ماتؤثر به الى ماتتأثـر به ٠ كذلك ـ يختلف مدى التأثر والتأثير فى الامتـــداد فى قابل الزمان فقد يبقى لأحدهما وجود حيث كان يشــــبه البصمات فى ثباتها وتميزها وقد لا يبقى من هذا الوجود مع الزمان الا بضع سطور فى كتب التاريخ واستمرار وجـود تأثير أمة فى أخرى هو دلاله قوية على بقاء جذر هذا التأثير

فى الأمة المؤثرة ، ومعرفة ذلك تعين الأمتين على فهم نفسيهما بشكل أفضل كما قد تعين على مزيد من الالتقاء بينهما · وهذه المعرفة قطع فى فهم خيط من خيوط حدود « قطعة » كل أمة منهما من الحضارة ·

ولاشك أن ملاحظة الأشياء عن بعد « دون الانغماس » فيها معين على الفهم بموضوعية أكبر تنأى عن ملاحظة نقط الفخار فيما يظن تأثيرا ، وعن تجاهل مواضع النقص فيما يظن تأثيرا · وهذا هو الأساس الأول لمنهج كتاب « أسبانيا فى تاريخها ـ مسيحيون ـ مسلمون ـ يهود » للمؤرخ الأسبانى المعاصر أميريكو كاسترو،وهو الكتاب الذىنقدمه هنا مترجما تارة فى بعض فصوله ومختصرا تارة أخرى فى بعضها الآخر طبقا لطبيعة المادة المقدمة ، فيما يفيد الغرض من هذا التقديم (١) · ويتمثل الغرض من تقديم الكتاب هكذا فى السعى نحو فهم جانب من حدود « قطعتنا فى الحضارة العالمية » فى حركة هذه الحدود فى العالم الأسبانى(٢) ، تلك الحركة التى تسربت الى هذا العالم من الأندلس خلال ثمانية قرون(٣) · وأهمية كتاب أميريكو

---

(١) Américo Castro, Espan en Historia, Cristianos, Moros Y. Judios, Editorial Losada, Buenos Aires, 1948.

(٢) يراد به شعوب شبه الجزيرة الايبيرية بجانب شعوب امريكا اللاتينية والشعوب التى تتكلم الاسبانية فى امريكا الشمالية (المكسيك) ·

(٣) استمر الوجود العربى فى اسبانيا منذ عام ٧١١ م (٩٢ هـ) حتى ١٤٩٦م (٨٩٧هـ) عند سقوط آخر الممالك الاسلامية فى الأندلس وهى مملكة غرناطة ، ومع ذلك فقد ظل لون من الوجود الاسلامى فى فئة بقيت ولم تهاجر واجبرت على التنصر وظلت تمارس ـ نسبيا ـ الاسلام سرا ، واطلق عليهم الموريسكدين Moriscos .وتم طردهم نهائيا من اسبانيا عام ١٦٠٩ م ، وان كان من المشكوك فيه انهم طردوا تماما فى هذا العام حيث يظن بقاء عدد منهم ·

كاسترو فى فهم الحضارة الاسلامية وتفسير مـــادق من خفاياها أمر مؤكد سأترك للقارىء مدى خطورته وجديته ٠

ودراسة الحضارة الاسلامية فى أسبانيا امتدت على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين على يد المستشرقين الأسبان ٠ وقد تراكمت دراسات المستشرقين الأسبان وهى جديرة بأن يفرد لها كتاب مستقل ـ تراكما أدى بالضرورة الى ظهور الكتاب الذى نقدمه (٤)٠والعمل العظيم الذى قام به المستشرقين هو ترجمة عــدد كبير من الأعمـــال الأدبية والفلسفة والعلمية فى التراث الأندلسى الى اللغة الاسبانية بجانب حشد كبير من الدراسات الجـــادة والتى كان من مآثرها اكتشاف التأثيرات الاسلامية فى كوميديا « دانتى » الالهية على يد أثين بالاثيوس ، ذلك الاكتشاف الذى هـــز العالم كله وحرك ضمير الغرب لكى يضع الحضارة العربية موضعها من تاريخه(٥) ٠

ولاننى أنوىأن أقدم فى عمل تال قصة هذا الكتاب والأثر الضخم الذى احدثه اميريكو كاسترو بكتابه الذى نقدمـه وبمسلسلة من المقالات والكتب سبقته وأعقبته فاننا سـنبدأ

---

(٤) يشير الكاتب الى ذلك فى مواضع متعددة من الكتاب ٠

(٥) راجع عمل أسين بلاثيوس العظيم ٠

Miguel Asin palacios, La Escatologia Musulmana en La Divina Comedia Leguida de la Historia de Una Polémica, tercera ediciòn, Madrid, 1961.

فورا فى عملية التقديم ★ ٠ فلقد بدأت فكرة تقديم الكتـــاب عند أستاذى الجليل عبد العزيز الأهواني ، وقد ســـــلمنى الكتاب ومعه كتب أخرى لعرض وجهة نظر أميريكو كاسترو وكل ما أثارته من نقاش مؤيد ومعارض تمخض عن عدد من الكتب والمقالات ، وذلك فى مقال واحد ٠ وعندما بدأت العمل رأيت أنه يتسع عن حجم مقال واحد مهما كبر المقال ، ومن ناحية أخرى رأيت أن القضية قد بدأت بصدور كتاب أميريكو كاسترو هذا ، وأن الكتاب المذكور يستحق أن يقدم مترجمـــا كاملا أو يقدم مختصرا بشكل لايخل بمحتواه لأهميته الكبرى المشار اليها آنفا ولضرورة معرفة مادار به من أمـــور حتى نفهم خطورة المعركة السجال التى دارت حولها ، وقبل ذلك ، لمعرفة الظروف التى أدت لصدوره والظروف التى أعقبت هذا الصدور ٠

ان فضل أستاذى الجليل عبد العزيز الأهوانى فى خدمة الحضارة العربية وكشفها مسئول عن هذا العمل كما أن عون أستاذى الكريم محمود مكى كان ضروريا لانارتى فيما غمض على ٠ أخيرا فللزملاء الأفاضل د ٠ صلاح فضل و د ٠ جابر عصفور من الأيادى على مالايستطيع هذا العمل الا تسجيله لهما ٠

★ صدرت طبعات اخرى تالية لهذا الكتاب دون تغيير جوهرى وان حملت الطبعات الأخيرة عنوانا مختلفا هو : « الواقع التاريخى لاسبانيا»
“La realidad historica de Espagna.

وقد صدرت تلك الطبعات أعوام ١٩٥٤ ، ١٩٦٢ ثم صدرت خمس طبعـات مكررة طبعة ١٩٦٢ التى تعد طبعة مجددة فى الكثير دون التخلى عن جوهر نظرية كاسترو فى التاريخ لاسبانيا ٠ وقد اخترنا الطبعة الأولى لما فيها من نفس ابداعى وحماس بجانب تقديم اعمال اجرائية تخلى عنها فيمـــا بعد وهى تعين الباحث العربى منهجيا سواء فى التاريخ لـــلأدب أو للوطن العربى ٠

يتكون الكتاب من مقدمة وأحد عشر فصلا ، وملحقات • وسأقدم الكتاب بنفس ترتيبه بادئا بما بدأ به ومنتهيا بمـا انتهى اليه • واذا كنت سأعرض المقـــدمة فانني سألخص بعض الفصول بينما أكاد أترجم فصولا أخرى ترجمة كاملة • وفي جميع الأحوال ،أراعى القرب شبه الحـــرفى من النص أولا ، والاحتفال بما يعنى موضوع تقديمنا للكتاب خاصة ، وهو الاسلام فى أسبانيا ، وهو موضوع سيمتد الى أعمـــال أخرى ستتخذ من هذا المقال مركزا •

تبدأ المقدمة(٦) بقول المؤلف : « ان وطنا ما لايكون هيئة جامدة بل هو مسرح حيث يمضى الزمان لاشيا عرضـــــا لمسرحية الحياة • الأرض وحدودها معطيات جغرافية بينما التاريخ لشعب من الشعوب ـ أى لانســــان يتميز بفرديته واجتماعيته معا ـ شىء يمضى منبثقا ومتبدلا على ضـــوء المهام التى تهبها الحياة لهذا الشعب فى كل لحظة •

والمؤلف بهذه العبارة يمهد لأمرين :

الأمر الأول : يعلن عن ثبات العامل الجغرافى وبالتالى يبعده عن العوامل الأساسية فى صياغة التاريخ(٧) •

الأمر الثانى : صعوبة الرؤية أمام المؤرخ فى ظل الحركة الدائبة للتاريخ "الذى هو من صنع الانسان فى مقابل حركة الزمان وما تقدمه لهذا الانسان من مهام •

---

(٦) تشمل المقدمة من ص ٩ حتى ص ١٥ ، وهى مؤرخة فى ابريل عام ١٩٤٦ وبتوقيع الكاتب فى جامعة برنستون •

(٧) ستصبح هذه الفرضية مجال جدل كبير ومعارضـــــة من بعض المؤرخين ، وعلى رأسهم أكبر معارض لكاتبنا وهو سانتسن ـ البورنوث : انظر

C. Sanchez-Albornoz, Espana un Engma Historica, (Dos Tamos), Editorial Sudamericana, Buenos Aires, 1956.

ان منهج المؤلف البنائى فى المعالجة يغرس هذا التمهيد الذى يعزل بنية التاريخ عن المكان ويضع « الزمـــان » فى احداثى يتقاطع مع احداثى « الموضوع فى التـــاريخ » وهو الانسان . وتتضح عملية العزل هذه فى محظور يرفض الأطر الثابتة والسابقة للدراســة . فهو لم يعتمد على فرضـــية حضارة ما ـ وبمعنى آخر ، لم يقدم لعمله بفرضـــية لأبنية متعالية وغريبة عن أولئك الذين ولدوها ، ولايزالون يعيشون تحت الأفق الذى تحدده تلك الأبنية . أى أن الكتاب لم يرد أن يقدم بشكل يدعى الوضوح أن سرفانتس وفيلاثكس وجويا وارنان كورتس (٨) قد حظـوا بمكانة ماتناسبهم فى مملكة القيم الانسانية . على العكس من ذلك فانه من الصعب أن نعرف التاريخ والحياة اللذين جعلا من الممكن وجود هؤلاء وآخرين من الرجال الخارقين للعادة .

لذا فانه يلزمنا أن نعرف كيف أن جماعة من الناس(٩) ـ منذ القرن الثامن ـ قد أخذت طريقا جديدا ـ فى فترة حرجه من تاريخها وذلك للخروج من مأزقها ـ نحو أخطـــار كان لايمكن تفاديها ، ونحو هلاكها الشامل . وكما يلزمنا ذلك فانه يلزمنا تحديد الهدف من ورائه . والهدف هو استكشاف

---

(٨) سرفانتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦ ـ مؤلف دون كيخوته ، ويعـد رائد الرواية الحديثة ، وفضلا عن ذلك فهو شاعر وكاتب مســرح ، وفيلاثكس (١٥٨٩ ـ ١٦٦٠) رسام الملك فيليب الرابع ، وهو من أعظم المصورين فى تاريخ الفن ، وجويا (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨) واحد من عمد التصوير فى اسبانيا والعالم ، وارنان كورتس (١٤٨٥ ـ ١٥٤٧) فاتح المكسيك .

(٩) يقصد العرب وفتحهم للأندلس ، أما الفترة الحرجة من التاريخ فقد كانت بوادر انهيار الدولة الأموية وضـــعف العصـــبية العربيــة فى السيطرة المطلقة على الامبراطورية الاسلامية .

كيف تشكل ونما مانطلق عليه اليوم « صورة الأسبانية » ٠ والشعوب مثل الافراد - تتعرض أحيانا لظروف مهلكة ، فتستسلم وينتهي كل شيء ٠ بينما نرى - في أحيان أخرى - أن الشعوب تشكل هدفا لوجودها تسعى اليه مهما كانت المضايق التي تجتازها ٠ وماتكسبه الشعوب في هذه الظروف الحرجة ، يمكن أن يكون حاسما ومقتدرا ، مما يؤدي به الى الثبات داخل أنماط من الفعل - بقوة تكرار هذا الفعل الذي يحفر مجرى يزداد عمقه الحيوي ٠ وهذا العمق الحيوي ينبثق عنه ذلك الفعل أكثر كثافة واستمرارا، وهكذا تتخلق طريقة للوجود يثبتها التراث المستمر في ملامح عنيدة وغير قابلة للمحو ٠

وبناء على ماسبق يعلن الكاتب أنه ينظر الى التاريخ كما ينظر الى فن السيرة ، أي كوصف لشكل من أشكال الحياة السامية ، ملىء بالمغزى ، حيث توجد هذه القيم أو تلك حتى لو كان ذلك - وبشكل دائم - داخل حدود لها نهايات لايمكن تجاوزها ٠ فمرونة شكل من أشكال الحياة - فردية أو جمعية - بالفعل - له حد ٠ واذا كان احتكاكنا بالحياة الذاتية (السيرة) حميما للغاية فسنستطيع التنبؤ بأي نمط من أنماط الفعل لايتجاوز هذا الحد ٠ وان أقل معرفة بالنفسية الوجودية للشعوب يجعل من الحساسية بمكان الحديث عن الوقت ، وعن أي ظروف تعوز لكي يصاغ ويتوازن مزاج جمعي ٠ وليكن الأسلوب مايكون فانه لابد - وبعناية شديدة - من تمييز المفاهيم المجردة للثقافة والحضارة الخاصة بالحيوان الجمعية التي تمثل تلك المفاهيم شكلها ٠ واذا صنعنا ذلك فان مفاهيم شائعة مثل «الحضارة الغربية » أو « اللاتينية » أو « السلافية » أو « الشرقية »

ستبدو غير مناسبة حينئذ ــ سنرى ــ وفى مثال نضبه ــ انه «داخل غموض تعبير « العالم اللاتينى » : اسبانيا ــ فرنسا ــ ايطاليا ، كل منها تتباهى بسجايا مميزة ومتميزة جذريا وأكثر حسما من تلك السجايا الثانوية المتشابهة فيما بينها ٠

ويستمر المؤلف كاشفا عن منهج بنائى مبكر فى الدراسات التاريخية حيث يرى أنه ــ ومهما كان من خطـر الأخطـــاء والنقص المفرط ــ ينبغى ــ وبالضرورة ــ الدخول فى وجود أولئك الذين يعيشون تاريخهم الخاص ــ وفى أعمـــاق هذا التاريخ وليس خارجه ــ متناسين ــ عند الدخول ــ أسلوب الحكى الخارجى للأخبار ، لأن الحكى الخارجى اذا لم يبرز شكل الحياة التى تجرى قبل أى شىء آخر ــ ولن يبرز ــ فما أقل فائدة محاولة قص هذه الحياة ٠ ولذا ينبغى أن نتحمس لنرى فى وحدات البنـــاء : من أين تقـــلع ، والى أين تتجـــه « الحياة » ، فالأحداث ليست تاريخا ولكنها مؤشـــرات للتاريخ وارهاصات به ٠

ثم يتجه المؤلف ــ بعد هذه التصورات المنهجيـــة ــ نحو موضوعه على مهل مبرزا كثرة المادة التاريخية منذ القرن الثامن عشر ــ كمثال لضرورة عمله وصعوبته ــ مع قلـــة فحص هذه المادة الفحص الذى يشق مسالك من المعنى فى الغابة المضـطربة لما هو اســـبانى ٠ وان الصـــبيانيات والدردشات حول : هل كان لاسبانيا نهضة أو علوم (١٠)،

---

(١٠) عصر النهضة الأوربية الممتد من ١٥٠٠ ــ ١٧٠٠ لم يظهـر له كبير اثر فى أسبانيا بل أطلق عليه فى أسبانيا اسما آخرا « العصـــر الذهبى » ، وهذا الاسم ينبع من البريق الامبراطورى والعسكرى والذهب والثروة المجلوبة من امريكا اللاتينية بجانب تفوق فى الأدب والفن وانحطاط شامل فى العلم وانصراف غريب عن دعوة العقلانية والاستنارة التى كانت مدار النهضة الأوربية المتوجة بالثورة الصناعية ٠

لمثل على مايميز حجم تية المؤرخين حيث يبدو من كل هذا أن أسبانيا كما لو كانت فتاة متمردة أو كسولة قد رفضت أن تذهب الى المدرســـة التى تعلـــم كيف يكـــون المجتهدون والناهضون ٠

وهو ـ فى الدخول الى الموضوع ـ لايفوته ـ هكذا ـ أن يعود الى منهجه مقارنا بالمناهج السائدة ٠ فهو ـ متحدثا عن نفسه ـ يقول أنه من الصعب عليه أن يتجاهل تلك العقيدة التى تتحدث عن شخصية ثابتـة لاســـبانيا ـ وجدت من قبل ـ فأسبانيا ـ فى تساو بين أجزاء أرضها ـ تقريبا فى كل شبه الجزيرة الابيرية ـ أرض مضت تجرى عليها أحداث سعيدة وكوارث فكأنما ـ فى نظر تلك العقيدة ـ التاريخ أحداث تقع وليس معايشة للأحداث أو انغماسا فيها ٠ ولاشك أن أسبانيا ـ كأى شعب من الشعوب ـ كانت فاعلا ـ مشكلا ـ كان عليه أن يمضى خلاقا لذاته ، ومحافظا عليها ٠ ان الأحداث ـ بما فيها البالغ النكبة ٠ فقط يصبح لها معنى داخل فعـل هذا الوجود المشكل ٠ والأنا تنتمى الى عالمها فى « مخرطة » تتجه نحو « الكيف » كمنظور ٠

ان الفعل ينبثق مرتبطا بنوع القيم المفضلة أو المرفوضة والتاريخ يكون حضورا لقائمة القيم التى يتبعها كل شعب ـ نعنى قوائم قانون الســلوك التاريخى للشعب ٠ وتاريـخ أسبانيا المسيحية يمكن أقامته بتتبع خيط ايثار الســـعى الملحمى البطولى ، وبعدم الاهتمام بالفكر ٠ ولكن أسبانيا الرومانية لايبدو لنا منها الا أشباح لا تختلف فى شىء عن اقاليم الدولة الرومانية الأخرى ٠ وقد استقرت مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا كاستمرار للحياة الاقليمية الرومانية المسيحية الجرمانية حيث كانت اسبانيا ـ فى القرن الخامس

عشر الميلادى - وبدون أدنى شك - أرضا رومانية (١١)٠ ولم يخلق القوط أى طابع يمكن أن يكون اسبانيا يشكل وعندما اختفت هذه المملكة فى ٧١١ م لم يحدث أيضا شىء فرنسى أو ايطالى متميز وعلى العكس فانه فى عام ١٠٠٠ مثلما فى عام ١٦٠٠ - فيما هو جوهرى - كانت أسبانيا متميزة - بوضوح قاطع - عن ايطاليا وفرنسا ٠

وتبدأ قصة اسبانيا بأمر طرحته الحياة على الجزء من اسبانيا - غير المغرق بالاسلام ٠ ان الأمر هو الاختيار بين الموت والحياة ٠ وكان على هذا الجزء - فى ذلك الوقت - أن يصوغ لنفسه طريقة للحياة ، بجانب مشروع للفعل بشكل جديد تماما - وفى عزلة نائية عن المسيحية الأوربية ، وعن روما وعن القسطنطينية ٠ وحول هذه الطفوله لاسبانيا المستقبل ، على المؤرخ أن يركز نظرته لأن كل التاريخ التالى سيتكىء على خطط الحياة المصوغة حينذاك ٠ ان اسبان القرون الأولى من « حرب الاسترداد »(١٢) يقدمون أول وعى

---

(١١) ان الكاتب قد أهمل تماما المكونات الرومانيـة والقوطية فى التاريخ الاسبانى - على الأقل فى هذه المرحلة التى الف فيها الكتاب - وهو اهمال قد فهم خطأ عند من هاجموه وعلى رأسهم سانتسن - البورنوث(السابق الاشارة اليه) لأن الكاتب كان يبحث عن تميز اسبانيا والعوامل التى لا زالت فاعلة فى تاريخها ، بفرض اشتراك اسبانيا وكثير من بلاد أوربا والعالم فى الخضوع للاستعمار الرومانى لكن اسبانيا هى الوحيدة التى خرجت عن دائرة الحركة الأوربية مبكرا لتدور فى فلك جديد لحضارة جديدة ، هى الحضارة الاسلامية مما فرض على اسبانيا نمطا مخالفا للوجود وللفعل فسارت - ولا زالت تسير - فى طريق وكل أوربا الغربية فى طريق آخر ٠

(١٢) حرب الاسترداد تطلق على الجهود الاسبانية العسكرية المستمرة ضد العرب فى الأندلس والتى انتهت بشكل حاسم عام ١٩٤٦ عند القضاء على مملكة غرناطة آخر الممالك الاسلامية فى الاندلس وان كان لهذه الحرب ذيول تمثلت فى اضطهاد الموريسكيين وحربهم ثم طردهم عام ١٦٠٩ ٠ والكلمة الاسبانية La Reconquista باضافة ((re-) للكلمة conquista المستعملة للدلالة على الفتح العربى للأندلس متبوعة بالصفة Arabe

بالكينونة ، وبالرغبة فى أن تكون تلك الكينونة لها شــكل معين يمكن تحديده ـ بالضــبط ـ فى رغبتهـــم عن العيش كالمسلمين وفى رغبتهـــم فى الاحساس بقدرتهـــم على أن يدفعوا ـ بدورهم فى الحياة ـ الى الأمام ٠

مما سبق تتضح أول نتائج المنهج الذى يتبعه الكاتب٠ان بنية التاريخ الاسبانى كانت فعلا مماولده الوجود الاسلامى فى نفوس أثناء الشمال الاسبانى ، ذلك الشـمال الذى كان «شاطئا يشارك ـ فى مواجهة مد البحر العربى ـ فى صنع الجزر ليحمى وجوده ٠ وبين المد والجزر تتشكل بنية التاريخ فى شكل بنية الســلوك الاســبانى ٠ وبذلك فان الوجود الاسلامى ـ بالضرورة وطبقا لمفهوم البنية ـ سيصير عنصرا تكوينيا من بنية السلوك الاسبانى المشكل لبنية اكبر هى بنية التاريخ(١٣) ٠ وتظهر خطورة هذه النتيجة فى أننا لســنا أمام منهج مقارن يحاول أن يتتبع مناطق التأثير والتأثر على ضوء الصلة التاريخية وانما نقف أمام بنية متكاملة تتشكل على مهل كما تتشكل بنية القشرة الأرضية ٠ ان الاسلام فى اسبانيا لم يلعب دور المؤثر فحسب بل وجد وبقى فى نسيج معقد دائم التشكل بين المتغير والثابت ، وهو يوجد فى سلوك اسلامى نمطى ٠ ان انحسار البحر العربى الاســلامى عن أرض يشكل لون الحياة النباتية والحيوانية المستقبلة فيهـا كما يترك وراءه ٠ بحيرات مغلقة تظل تعكس صفحة قديمة فى حركتها الموجبة المتجددة ٠ وهذا ماستكشف عنه السطور التالية ٠

---

(١٣) كما سنرى بعد سيطلق المؤلف على العناصر التكوينية لبنية التاريخ الاسبانى اسم : « صيغ الحياة » ٠

اننا اذا نظرنا الى الواقع الاسبانى الذى يتجمع فى بؤرة الطفولة الاسبانية المذكورة سابقا ستختفى تلك الفكرة المجردة عن «اسبانيا ما » أزلية قامت على التربة الايبرية لمحاولة غريبة تبغى اسقاط ثمانية قرون اسلامية غير مرغوبة من التاريخ الاسبانى - ان الحديث عما هو اسبانى لايجرى فى وعى المؤلف الى ماقبل عام ٧١١ ، وما بعد ذلك لايهم الحديث عن كونه كان طيب أو شيئا ، وانما يهم تقديم رسم مجمل له عبر تحديد الكيان الانسانى الذى يتأسس عليه مشروع العيش والاستمرار ، حيث أن الارادة الانسانية مضت تشق مجرى عنيدا ، أسفر عما هو أكثر خصوصية وغرابة من كل مانجده عند الشعوب المجاورة شرقا وغربا (ولايدعى ذلك تفوقا اسبانيا ، ولكن وجدت قيم اسبانية لاشك رفيعة ووحيدة فى نوعها) ، وعما ليس له نظير - فظواهر مثل لاثلستينا ، وسرفانتس ، وفيلاثكس وأونامونو وبيكاسو وفايا ، (١٤) تقدم جوهرا لايوصف الا بأنه أسبانى وحسب • لقد اكتسبت القيم الاسبانية عالمية وخلود دون شعوب أخرى لعلها على قمة الحضارة الحديثة اليوم •

---

(١٤) لاثلستينا : عمل ادبى الفه (أو لعل غيره قد الفه) اليهودى المتنصر فرناندو دى روخاس ، ويعد العمل طليعة للمسرح الحديث، وقد تاثر هذا العمل بالقصص العربى الشعبى •

أونامونو : (١٨٦٢ - ١٩٣٧) اديب واستاذ جامعى شغل فى اسبانيا مكانة تشبة مكانة طه حسين فى مصر لانه مفكر واديب متعدد المجالات بجانب انه أستاذ فى اللغة والأدب •

فايا : (١٨٧٦ - ١٩٤٦) موسيقار عظيم يعد من أهم مؤسسى الموسيقى الاسبانية الحديثة وله مكانة عالمية رفيعة فى عالم الموسيقى وهو اندلسى ولد فى قادش ومات فى قرطبة •

وينهى المؤلف مقدمته معبرا عن امكانية النقص فى تقديم « بانوراما » للتاريخ الاسبانى ، ولكنه يعلن أنـــه تمكن من تقديمه « كصيغة للحيـــاة » وليس كأحداث لان الأحـــداث مؤشرات تشير للتاريخ فحسب ، وليست هى التاريخ نفسه ٠ كذلك يعرب عن عدم معرفته للغة العربية فاستعان بجهود المستشرقين مشيدا بدور هؤلاء بصفة خاصة غارسيا غومث عميد المستشرقين الأحياء ، وأثين بلاثيوس عميد المستشرقين الراحلين ليبدأ الفصل الأول من الكتاب ★ ٠٠

★ فى الصفحات الأخيرة من كتاب ابن مسرة ومدرسته (راجـــع كتابنا) يتنبأ بخطورة دور الاسلام فى تشكيل التاريخ الاسبانى مثلما يتنبأ بقدوم كتاب يكتشفون هذا الدور ٠ ولم تمض على هذه النبوءة ســـنوات قليلة حتى اهتز العالم الاسبانى بكتاب اميريكو كاسترو هذا الذى نقدمه وكأن شكره هنا وتقديره للمستشرق بلاثيوس هو تلميـــح لعلاقته بنبوءة بلاثيوس المذكورة بجانب أنه تصريح بتحول التراكم الكمى فى الدراسات العربية الى سلوك كيفى فى البحث والنظر ٠ اننا امام رائد لاتجاه جديد فى النظر للتراث الاسلامى فى اسبانيا ماكان ليكون قبل جهد طويل للاستشراق الاسبانى خاصة ٠

الفصل الأول

اســـبانيا ، أو تاريخ قلــق

يبدأ هذا الفصل بالحديث عن تاريخ الدولة الأوربية بما فيه من وضوح قاطع ، ذلك التاريخ الذى تحدد كل نقطة فى ماضيه مستقبله ، ثم يضيف المؤلف الى هذا ظاهرة أخرى تفرد اسبانيا ــ رغم عدم غيابها قط عن التبادل التجارى مع جاراتها الأوربيات ــ عن غيرها ، فالفرق بين اســبانيا وبين أى دولة أوربية يختلف فى النوع تمــــاما عن الفرق بين أى دولتين أوربيتين أخريين ، فضلا عن وصول اسبانيا ــ برفقة البرتغال ــ الى القرن العشرين وهى تعانى من الضــــعف السياسى والاقتصادى والعلمى بينما تحمل فى اهابها تفوقا مذهلا فى الفن والأدب بجانب الانتصــــارات العســــكرية واكتشاف عالم جديد (فى أمريكا) ٠

ان الاسبانى يحلم بالمجد ويمضى الوقت عاطلا فى انتظار ذلك المجد فان لم يأت فهذا حكم القدر ، وان أتى فهو لايقبل الا الحد الأقصى بينما لا يفكر فى تحقيقه بل يحكم ٠ فمنذ القرن السابع عشر شعر الاسبانى المتميز بخواء انجازاته الجمعية ، تركزت الحياة الاسبانية فى محاولة تجنب ضربات القدر ٠ هناك ظاهرة أخرى غريبة ، فبرغم أن الاسبانى يعيش على ماضيه المجيد فيما تفوق فيه الا أنه لاينظر بتقدير واع الى انجازات ذلك الماضى (يشارك اســـبانيا فى ذلك الآن دول أمريكا اللاتينية التى لاتحافظ على منجزات العمارة والفن

الاسبانى فيها محافظة الولايات المتحدة على الآثار الاسبانية فى لويزيانا وكاليفورنيا) ٠ فالمصور « الجريكو »(١) مثلا لم يخرج الى دائرة النور الا فى بدايات القرن العشـرين ، والشاعر « جونجورا (٢) ظلفترة طويلة ينظر اليه كرجـل يهذى ، ولم يحفل بهما أحد الا فى ظل حملات عاطفية أوربية لتقديرهما ، وأمثال ذلك كثير ٠ أليس عدم الاحتفال بمثـل هذا الدليل القائم على أن الأمر عاطفة تخلو من العقلانيــة والتفكير ٠

ان ماسبق ليدفع الى التأكد من أن التاريخ الاسبانى لا زال فى موضع يستحق المناقشــة من جديد ٠ ان التــــاريخ الاسبانى بين الاحتضار والحياة لغز يحتاج الى الفحص من جديد ★ ٠ أن الروح اليهودية اليائســة والمنتصرة تصب فجأة فى « لاشلستينا الخالدة (١٤٩٩م)٠وفى عام ١٦٠٥م فى ضوء بيئة تتصارع فيها النهضـــــة مع نقيضها يظهـر « دون كيخوته » لتجسيم خالد للانسان المســتحيل ، يتحقق جماليا ٠٠٠ الى أن نصل الى عام ١٩٠٠ لنســـمع لورد

---

(١) الجريكو (١٤٧٧ - ١٥٧٦) مصور أســـبانى عظيم عاش فى الفترة من ١٥٤٨ الى ١٦٢٥ ٠ ولم يلتفت فى اسبانيا الى أهميته الا فى مطالع هذا القرن كمـا يشير المؤلف ٠ وهو تلميـذ للمصـور الايطـالى « التيثيانو » مؤسس مدرسة فينيسيا ٠

(٢) جونجورا : (١٥٦١ - ١٦٢٧) شاعر غنائى قرطبى مسقط الرأس وله اسلوب خاص يسمى الكولتيرانيزم حاكاه كثير من الشعراء وهو أسلوب يمزج بين العاطفة والطبيعة والسخرية ٠

★ لعل سانتسن البورنوث استعار من هذه العبارة اسم كتابه الذى يعد ردا على كتاب اميريكو كاسترو حيث أن اســـم الكتـــاب المذكور هو « اسبانيا : لغز تاريخى » ٠

« سالسبورى » يصف اسبانيا بأنها دولة متحضرة ، وفى ظل هذا الاحتضار تظهر نخبة من الرجال فى الفن والفلسفة والعلم أسماؤها ليست فى حاجة الى صفات (انطونيو ماتشادو - لوركا - بيكاسو - البنيث أى كاخال - مننذث بيدال - أورتيجا أى جاسيت ... الخ (٣) ، أليس هذا غريبا ؟ ان كل الأحداث ترشح اسبانيا كبلد للفلاحين لايثير فيها الاهتمام الا جمال مظاهر الطبيعة .وفجأة تنفر وتصنع المستحيل . ان فحص هذا التاريخ يتطلب النسيان - لو قليلا - لأفكار التقدم ، والانهيار المادى ، والقدرة السياسية والكفاءة التكنولوجية .

منذ القرن السابع عشر ، يبدو للعيان عدم التكامل فى الارادة الجمعية بعد انهيار امبراطورية اسبانيا التى كانت تقوم على الايمان الكاثوليكى من وجهة نظر الاسبان لا من وجهة نظر كنيسة روما برغم الاتفاق الظاهرى بين الجهتين . وقد بدأ عدم التكامل هذا بين اتجاهين متناقضين أحدهما يدعو لعقلانية النهضة والآخر يصمم على الاتجاه المدمر ضد « الاسلامية » بينما عاش كثير من الاسبان فى ظل جمود العادات والمعتقدات دون الانشغال بمعرفة شىء حتى أننا نجد - فى بعض الجهات : أن الناس استمرت حتى القرن العشرين فى استخدام المحراث الرومانى ودرس الحبوب بالثيران

---

(٣) انطونيو ماتشادو (١٨٧٥ - ١٩٣٩) شاعر اسبانى عظيم من عمد حركة ضخمة فى الأدب الاسبانى قادها مجموعة من الأدباء أطلق عليهم جيل ٩٨ . وقد ساهم ماتشادو فى تجديد الشعر الاسبانى كما ساهم فى ازدهار المسرح مشاركة مع أخيه مانويل ماتشادو .

وعلى أى الاحوال ينبغى التنبيه بأن التاريخلم يعد يفهم بمناهج مبتذلة : الحضـــارات تولد وتتقدم وتذبل ! أو أن التاريخ هو نتيجة لارادة جمعية ـ أو ارادة تحولت لجمعية تطرح أهدافا سامية ! كذلك ينبغى التحذير مما يقـــع فيـه المؤرخين الذين يأخذون حاضر الأمة القوية الغنية بينمـــا يسلبون كل شىء من تاريخ الامة الضعيفة الفقيرة ٠

اذن لندع جانبا تلك الأفكار عن « العظمة » « والانهيار » ان تاريخ اسبانيا فى حزمة واحدة ، تراث قديم سـوداوى يعود للظهور عند أغلبية مؤرخيها ، فى محاولة دائمة لجعل أسبانيا تهرب من نفسها ★ ٠

الحياة انغماسا

ان نظرة الى أوائل القرن الخامس عشر تطلعنـــا على محاولات ـ لعلها صادرة من مسيحيين جدد ★★ فى معظمها ـ لتحديد شخصية الانسان الاسبانى،ونمط الحياةالاسبانى ان حركة الاسبان نحو التوسع تقوم على ايمـان كاثوليكى خاص ٠ يتم الفتح لنشر هذا الايمان لا لكســب الأرض ،

★ ان هذه المقولة تنطبق على التاريخ العربى ، الذى يهـــرب من نفسه ، فنحن الآن نسمى الأشياء بغير اسمائها ٠ لقد أطلق على حرب ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ لفظ « نكسة » ولم تستعمل كلمة هزيمة ٠ هذا مثال صارخ وقريب للهرب من النفس تدعمه عشرات الأمثلة ٠ ان ظاهرة الهروب من النفس عند كتابة التاريخ ظاهرة تاريخية لعلها تفتح مدخلا للتاريخ للعالم العربى ٠

★★ المسيحيون الجدد هم من ارتد عن دينه يهوديا كان أو مسلما ليدخل فى المسيحية ، وقد عانى هؤلاء الاضطهاد من المسيحيين القدماء بل وظلوا تحت دائرة الشك مما فرض عليهم أسلوبا فى الحياة دفع بعضـــهم الى شراء الألقاب وادعاء النبالة ٠ بمفهومها آنذاك وهو : الانتماء القديم للمسيحية (راجع السطور القادمة) ٠

وبالتالى فانغماس الاسبان الروحى أبعدهم عن الانشـغال بالماديات ، وهذا الانغماس جعل من البـلاد معبرا لنشـر الايمان الكاثوليكى والمحافظة عليه • ان الهوة السحيقة بين اسبنيا وجارتها الاوربيات تتلخص فى أن الاعتزاز بالنيابة فى أوربا مضى مندمجا فى الاعمال التجارية بينما اسبانيا لم لم تطق المزج بين التجارة ، وبين الايمان الذى كان مصدرا للنبالة • ويزداد تحديد اسبانيا أكثر بأن أهم قيمتين لديها هما : أولا : خصب الأرض وعطائها الذى يجعل من قشتالة (اسبانيا ذلك الوقت) دولة غنية • ثانيا : حمية المؤسسات العسكرية • وهاتان القيمتان تعكسان الكسل والفخـار بالنفس (٤) • ويقدم القرن الخامس عشـر هذا التحديد فى صورة ادراك أسبانى للذات الأسبانية أمام الآخرين ، كمـا يبدو فيه حسن بمعاصرة الأحداث عند الاسـبان فى ذلك القرن • وينتج عن هذا الادراك ظهور جيش اسبانى دائـم يتطور على يد فرناندو الكاثوليكـى ليعين هذا الأخير على التوسع فى أوربا بل لعل ظهور هذا الجيش فى البداية كان ارهاصة بظهور الملكيين الكاثوليكيين(٥) • ثمة أمر آخـر - سيقدم له تفسير فيما بعد وهـو الكثرة الغفيرة من الموظفين والحرس فى البلاط الملكى وعند النبـلاء ، فهؤلاء يرغبون فى

---

(٤) هذا ملخص لرأى فرناندو دى لاتورى (وقد عاش الرجل خـلال القرن الخامس عشر) ، ورأيه هذا تمثل فى رسالة منه الى انريكى الرابع دى قشتالة فى بداية تملكه عام ١٤٥٥ • راجع :

Cancionero y obras en prosa de F. de La Torre, publicado por A. Pazy Melia, Dresde, 1907

(٥) « فرنانحو » و « ايزابيللا » اللذان تم على يدهما اسـقاط آخر الممالك الاسلامية فى الاندلس وهى مملكة غرناطة وفى عصرهمـا تـم توحيد الممالك الاسبانية •

البروز اجتماعيا بهذه الهالة من الرجال حولهم اتســـاقا مع الروح الاسبانى • ان الروح الاسبانى عملـة ذات وجهيـــن أحدهما أرض مؤلهة والآخر سماء مؤنسنة ولعل هذه المحبــه للأرض والحديث عن دورها الخلاق وتميزهـــا الخارق هــو امتداد لتراث عربى يتحدث عن الأرض فى حب لاينبــع عن الرغبة فى المكسب من ورائها (٦) • ان الكتاب الاســـبان سيمضون يمجدون أرض اسبانيا منذ الفونسو العالم مثلهم مثل مسلمى أسبانيا وها هو لوبى دى فيجا (٧) :

انها أرض خصبة لا يصيبها النصب أبدا •••
فى انتاج الأرزاق ذهبا وفضة •
فكيف تبدو لك تلك الأرض ياسيدتى ؟
ألا يبهجكم مرآها السعيد :
نباتاتها ، خصوبة وجمال ••• ،
ثمار وأشجار فى ثراء ؟
ألا يعجبكم مرأى كل ذلك السمو ؟(٨)

ومرة أخرى يقول نفس الشاعر على لسان بحار :

أعرف أن تلك الأرض تنتظرنى

---

(٦) لاحظنا ذلك تحديدا أثناء دراستنا لشعر الطبيعة فى الأندلس : راجع هذه الدراسة فى رسالة مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة •

(٧) لوبى دى فيجا (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥) كاتب مسرحى عظيم اشتهر بالاسراف فى الكتابة حتى تجاوز الرقم ألف فى عدد مسرحياته •

(٨) المثل من كوميديا Roma Abrasada للوبى دى فيجا

الأرض التى أهوى تقبيلها

انها الأم ... تلك الأرض .. فى النهاية

وكأم فأنها تقيم الأود(٩) .

ان الحياة الريفية كانت موضوعا أساسيا فى أهميتـه عند لوبى دى فيجا فى أشعاره خاصة كما كانت كذلكفىأدب القرنين ١٦ ، ١٧ عامة . ان الثناء على الأرض لم يكن فحسب صدى فيرجيليا أو بسبب النهضة (التى مجدت الطبيعة) أو بسبب العصر الذهبى انما أيضا ـ وبصفة أســاسية ـ بسبب أن الفلاح كان يحس كزارع لأرض سحرية خــالدة موافقة للأهواء عطاءة لفاكهة ونبيذ لذة للشــاربين . ونفس الشىء فى النظر الى السماء كمنعمة على الزارع الذى يـزرع الهيات خفية . ان الاسبانى المسيحى فى القرون الوسطى ازدرى العمل الميكانيكى والمقنن والخــالى من الاســرار ، والذى لايقف وراءه خلود تهبه الأرض أو السماء . ان الأرض والسماء قد حلا تناقضهما فى وحدةالايمان الذى يقف وراء الفلاح والحياة الريفية فى الواقع وفى الأدب . ان أسبانيــا

---

(٩) المثل من كوميديا El Molino للوبى دى فيجا

تشبيه الأرض بل واشجارها بالأم نجده عند الشاعر ابن خفاجة ، ولكنها الأم التى تأكل أبناءها تارة أو الأم الرؤوم بأبنائها اليتامى ، فموقفه عكس موقف لوبى دى فيجا (راجع شعر الطبيعة فى الأندلس ـ فصل ابن خفاجة) فابن خفاجة فوق أرض تهتز ولوبى فوق أرض تقيم الأود . ابن خفاجــة يقول :

واعلـم أن المـرء للأرض اكلة
فيا عجبا أن تأكـل ابنا لهـا أم

(الديوان ص ٢٨٧)

ويقول فى شـجرة اندلسـية :

كان اما بهـــا رؤومـــا تحتضن من شربها يتامى

(الديوان ص ٦٩)

قد كانت ايمانا : عقيدة يغذيهـا الموت والحيـــاة ، والأرض والسماء . ان تقديس لولى دي فيجـا للأرض سيتكرر عند كالديرون دى لاباركا (١٠) وفى مسرح القرن السابع عشر بل وفى المثل الشعبى « بلاط أو مزرعـــة » . ان فرنانـدو دى لا تورى (أول اسبانى حـاول أن يفكر فى وطنـــه) يقدس الأرض كصفة لما هو أسبانى . ويعود أونامونو لتحديد صفة أسبانيا قائلا : « عند قليل من شعوب الأرض تقدست الأرض كما حدث للشعوب التى صهرتها أسبانيا . ان اسبانيا أرض تحت سماء ، انها أرض مليئة بالسماء ★ .أرض لها كينونة

---

(١٠) يقول كالديرون دى لاباركا فى مسرحيته

El alcalde de Zalamea

ما كان يفلح قبطانا ...
ما لم يكن فلاحـا

وكالديرون كاتب مسرحى (١٦٠٠ ـ ١٦٨٠) نقل المسرح من واقعية لوبى دى فيجا الى مسرح الباروكو الذى يتأرجح بين ثقل الفكر والصور فى زخرفية أبى تمام .

★فى شعر ابن خفاجّة نرى الأرض تحت السماء معدنين نفيسن فى يوم هو عمره :

تــرى الأرض فيــه وقد فضـضت
ووجــه السـماء وقد ذهبـا

وفى البيت التالى تمتلىء الأرض بالسماء بل تفرزها :

وقد أطلـــع الروض من أيكـة
سـماء ومن زهـرة كوكبـا

ـ الديوان (تحقيق : السيد غازى) ص ٢٩٨

كما تمتلىء السماء بالأرض والأرض بالسماء :

والأرض فضية الآفاق تحسبها ... شمطاء حاسرة قد مسها الكبر
فكل نجـــد ووهد قد أطل بــه ... روض تجلى بنور ماله ثمـــر
وللأقاحى ثغـــور فيه باسـمة
لها من الثلج ريق بارد خصر
كأن فى الجو أشـــجار منـورة
هب النســيم عليها فهى تنتثر

(الديوان ص ٣٧٢)

ففكرة الأرض المركزية فى مفهوم كلمة « اسبانيا » ذات جذور أندلسية.

الجسم فصارت روحا • وليست هذه « غنائية » ولكنها دعامة لحياة أكثر واقعية وعمقا مما هو مكتوب فى الأخبار ، لأن وراء هذا المظهر الغنائى ـ طبقا لما أقمت من دليل ـ تتوتر عشرة قرون من الانسانية الحنونة والتواقة • وان الخط لم يتغير ـ فرنانودى لاتورى ـ لوبى دى لافيجا ـ كالديرون دى لاباركا ••• أونامونو (١١) ـ وهذا يجعل المؤرخ ينظر فى تلك الصيغة الخاصة للحياة التى كانت مشكلتها الأولى والمستمرة هى القلق والمرارة تجاه وجود نفسه ، ذلك الوجود الذى يبرز عدم الكينونة فى وضوح والعيش فى يقظة الشك • سيقال ان شعوبا أخرى لم تخل من نظر فى وجودها فى ظل ظروف قاسية • والرد أن هذا النظر قريب من مجرى الوجود المحدد الواضح المجرى بينما يبدو النهر الاسبانى لا يكف عن السؤال : عما اذا كانت مياهه تتدفق حيث يجب أن تتدفق •

***

ويمضى المؤلف ـ بعد وقوعه على أول صيغة للحياة الاسبانية وهى القلق المستمر المشوب بيقظة الشك فيما يتعلق بمشكلة الوجود ، ذلك القلق الذى يشد الأسبانى الى الأرض من السماء والى السماء من الأرض ـ محددا

---

(١١) يشير المؤلف هنا الى استمرار نفس الصيغة المشار اليها منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين •

أول مهام المؤرخ الاسبانى ٠ ان مشكلة المؤرخ الاسبانى أمام حياة قلقة تجعل من «مهمته أن يودع القلق مثله مثل الشعور الوطنى ويغمس نفسه فى التاريخ ببؤسه ونعيمه مفكرا فى ارتباطهما ٠ فمنذ « قصيدة السيد » حتى موسيقى فايا - لو أن أسبانيا دخلت فى دائرة الحضارات العقلانية والرخاء المادى والسلمى ، لما وجدت بالفعل لها حضارة عالمية ٠

اذن لنترك ملاحم المؤرخين السوداء أو البيضاء - لأنها لاتعنينا - ولنتأمل تاريخ أسبانيا الذى كتبه أورتيجا اى جاسيت عام ١٩٢٢ م : ان قضيته هى أن اسبانيا لاتعانى فحسب مرضا مزمنا انما وجودها نفسه - وبشكل جذرى - مرضى ٠ وجذر هذه الآلام يرجع للقوط الغربيين من القرن الخامس حتى وصول العرب ٧١١ م ٠ ان هؤلاء القوط سلالة ضعيفة بين السلالات الجرمانية فهم عانوا انحطاطا كما خلوا من القلة المختارة من الرجال الذين بدونهم لاتقوم ثقافة جديرة بالتقدير ٠ ومنذ ذلك الحين أصبحت الثقافة نابعة من جماهير غير منظمة معادية للقلة المختارة لمجرد أنها « مختارة » فلم يحدث سوى الهدم والتحطيم والتدمير ٠ دخل العرب فبدأت حرب الاسترداد ثمانية قرون - ومن المدهش تسمية حرب تستمر ثمانية قرون بهذا الاسم ! - وهذه الحرب نمط لاستمرار سلوك هذه الجماهير المعادى للثقافة الرفيعة ، ولو توقفت عن عدائها لتغير كل شىء ولما كان المرض ٠ ان « أورتيجا أى جاسيت » بمكانته الرفيعة التى لا نظير لها فى العالم الاسبانى يكتب بهذه العاطفية ، وينطلق فى اصدر الاحكام المطاقة لهو المثل الصارخ للحياة انغماسا ٠ ولو رجعنا لكل من علق على التاريخ الاسبانى أو كتب فيه منذ زمن بعيد لوجدنا نفس الانغماس ، فكما أن «أورتيجا»

ينسب كل شيء لجماهير متمردة غير منظمة يترك كيفيدو(١٢) اسبانيا بلا جماهير فى تعليق له على طرد الموريسكوس ٠

اذا مضينا مع هؤلاء نعدد كل الأسباب وراء ســـوء انحظ والكوارث فى أسبانيا سنكلف أنفسنا بمهمة فادحـــة وخالية من أى مغزى يرتبط بهدفنا التاريخى ـ اننا ـ اذن ـ يمكن أن نتحدث عن المناخ والكسل ورفض العقلانية ، وغياب النهضة ، وأيضا عن العرب كما يفعل كثير من المؤرخين الذين ذهب بعضهم الى الحديث عن « نفسية ايبرية » ذات مزاج فردى ومتناقض تشكلت فيما قبل التاريخ ، بينما الحقيقـة أن الاسبانى تشكل داخل تاريخه المعـاش نفســـه وليس بفروض عنصرية ٠

مما ســبق يبدو هدفنا متواضعا وأقل دوجماطيقة ٠ انه التطلع الى وصف ماحدث للاسبانى ، وأى أسس للحيـــاة قد أتاحتها الظروف له ، تلك الظروف التى رتب القدر بداخلهـــا مكان الاسبانى ٠ وبذا يمكن تأمل التاريخ كتحققلقيم وليس تنفيضا لســـجادة ٠ ان الاسبانى كان ضـــد أى ســـلطة للدولة منقادا لكل ماهو تراث وبدونهذا لصارتشبهالجزيرة الايبرية امتداد لافريقيا ٠ ان الاسبانى تشبث بمعتقداتـه الاسطورية والدينية والفنية كما لم يفعل شـعب أوربى آخر ان الاسبانى ـ أيضـا ـ تحوصل داخل شـــخصه ، ومن شخصه استخرج الجسارة والايمـــان لقيم امبراطـورية الغربية والشاسعة والاستعمارية والتى استمرت من ١٥٠٠

---

(١) كيفيدو (١٥٨٠ ـ ١٦٤٥) شاعر اسبانى عظيم وكاتب ساخر وسياسى جنت عليه السياسة فتعرض للنفى والسجن مرات ٠

الى ١٨٢٤م★٠كذلك حافظ هذا الاسبانى على لغته ، لغة القرن الثالث عشر وصهر بها ابداعاته الفنية ذات القيمة العالية ، كما أنه مضى يتوحد ليس عبر الأسباب والمعرفة والقوانين ولكن خلال الأساطير والمعتقدات ٠

★ لعل فكرة التحوصل كانت من صفات المجموعات البشرية التى تعايشت فى اسبانيا مع اختلاف مهام التحوصل طبقا للمراحل التاريخية ٠ ان الاسبانى يتحوصل بحثا عن نفسه التى تتشكل بينما المسلم فى نفس المرحلة يبحث عن نفسه الضائعة فى صنفين أحدهما يسكر والآخر يتأمل والنتيجة واحدة ٠ ونلحظ ذلك فى شعر ابن خفاجة :

غيرى مَنْ يعتد من أنسه ما نال من ساق ومن كأسه
وشأن مثلى أن يرى خاليا بنفسه يبحث عن نفسه

(الديوان ص ٦٢)

ان مايعبر عنه ابن خفاجة هو ما يطلق عليه مرارا اميريكو كاسترو الانغلاق داخل الذات فى تأمل الذات ٠

الفصل الثاني

اسلام شبه الجزيرة الايبيرية

يقدم الكاتب فى افتتاح هذا الفصل حديثا عن وجـود دور اسبانى فى ظل القوط الغربيين ، ولكنه دور رومـــانى الطابع غير متميز · واسـتمر هذا الدور الرومـــانى تحت الراية القوطية حتى وصول المسلمين وسيطرتهم على شبه الجزيرة الايبيرية لتنفصل اسبانيا عن مجرى التاريـــخ الأوربى الذى سارت فيه الدول الأوربية الاخرى · ولم يلبث المسلمون الا قليـلا حتى بدأت المقـــاومة المســـيحية تبدو محسوسة ، وتجبر المسلمين على الدخول فى حرب الثغور · والواقع ـ كما يرى الكاتب ـ أن الأسلام كان غير قادر على خلق أبنية اساسية متينة بسبب حضارته ذات الطــــابع السحرى التى منعت الزعماء المسلمين من أن يحاطو بشعوب قادرة على خلق انظمة مستقرة تتعايش فى ظلها هذه الشعوب ومع ذلك فقد كان الاسلام يمثل الثقل الحضارى الوحيد ، وله أدب غنى فى محتواه ، وهو أدب يقوم على أدوات تعبيرية تملأ النفس دون نظير يوازيه فى روما · وقد استمر الاسلام فى اسبانيا طـــالما وجد زعماء أقويـــاء يكهـــربون الناس بانتصاراتهم · وقد عاش فى ظل الاسلام عدد من المسيحيين بفضل تسامح هذا الدين الى أن جاء المرابطون والموحدون فقضوا عليهم (١٠٩٠ ـ ١١٤٦) · ويستمر الصـــراع بين المسلمين والمسيحيين فى الثغور شاغلا التاريخ الاســـبانى كلية حتى منتصف القرن ١٣ م حيث يحتل المسيحيون قرطبة

عام ١٢٣٦م ، وبلنسية عام ١٢٣٨م وأشبيلية عام ١٢٤٨م★
ومنذ ذلك الحين يحاكى المسيحيون المسلمين ، فيظهر مقابل طوائف المسلمين طوائف مسيحيون (١)، ويهمد دافع «حرب الاسترداد » وتبطؤ حركة هذه الحرب الى أن يأتى الملــكان الكاثوليكيان (فرناندو ، وايزابيلا) فيوجــدان طــوائف اسبانيا وينهون هذه الحرب فى نهاية القرن الخامس عشر ٠ لن أكرر ماحدث أثنـــاء هذه الفترة ـ لأن أحداث هذه الفترة معروفة ٠ ولكننى سأوجه اهتمامى الى نواحـــى الحيـــاة الوسيطة التى تداخلت ـ فيها ـ الحضـــارتان الاســــلامية والمسيحية ليس لقص أثر الاسلام فى اسبانيا المســـيحية فحسب وانما للوصول الى وجهة نظر ذات كفاءة فيما يتعلق بنسيج الحضارة الايبيرية : هكذا يقول الكاتب مشيرا من جديد الى منهجه البنائى مؤكدا هذه الاشارة بأنه واجـــه المشكلة فى محاولة له عام ١٩٣٨ للكتابة عن بعض مشـــاكل القرنين ١٥ ، ١٦ ٠ فقد وجد نفسه غير قادر على ترجمة ماهو اسلامى فى لوحة التاريخ الاسبانى كما لم يستطعأن يستغنى عنه ، فتفادى الأمر بطريقة غير مناسبة للدراسة ٠ وبذا لم يتمكن من تحديد المشكلة لأنه حتى ذلك الوقت كان واقعا تحت سيطرة تفكير سادة المؤرخين فى « مادة » وليس فى « صيغة » تاريخيـــة ٠

★ بدأت سلسلة ســقوط المدن الأندلسية فى يد المسيحيين بســقوط طليطلة عام ٤٧٨ ٠
وتم سقوط بلنسية على يد « الســـيد القنبيطور » عام ٤٨٨ هـ وتــم استعادتها على يد الأمير ابى محمد مزدلى قائد يوسف بن تاشفين عـــام ٤٩٥هـ وعادت للسقوط نهائيا عام ٦٣٦هـ ، بثلاثة أعوام بعد سقوط عاصمة الاسلام فى الأندلس « قرطبة » ٠ أما أشبيلية فقــد سقطت عام ٦٤٦ هـ (الطيب جـ ٤) ٠

(١) يقصد ملوك الطوائف ، ولكن ممالك الطوائف المســيحية كانت بؤرا للتجمع بعكس الطوائف المسلمين كانت بؤرا للتمزق والتفرق ٠

وبعد ذلك ظهر للمؤلف أن العصر الوسيط المسيحى كان « مهمة جماعة مسيحية » لكى تصمد أمام عالم استمر - طوال النصف الثانى من هذا العصر - متفوقا عليهم فى كل شىء الا فى الجسارة والقيمة والتعبير الملحمى . ان المسيحيين قد تبنوا جمهرة من الأشياء المادية والانسانية التى أبدعها المسلمون ولكنهم لم يستوعبوا الأنشطة المنتجة لهذه الأشياء لسبب محدد ،وهو أنهم كان عليهم عمل انشطة أخرى مختلفة لمواجهة المسلمين ، ثم الانتصار عليهم .

ثم يستعرض المؤلف الوضع الاسلامى المسيحى : عظمة المسلمين ومدنهم التى لم يشهد المسيحيون لها نظيرا ، وملوكهم الذين كان يهب الملوك المسيحيون لهم بناتهم . حضارة متفوقة ماديا وروحيا أمام قوم فقراء لايملكون الا الايمان المسيحى والاحساس بأن الجسارة والنبالة وما وراءهما من مكسب لا يتنافيان مع الايمان ، هؤلاء القوم تلخصت حياتهم وخطتهم فى محاكاة المسلمين حتى يشودوهم . ولم يكن هناك - على أى الأحوال - أى انفصال جغرافى أو عنصرى كامل بين المسيحيين والمسلمين . فالمسيحيون الذين عاشوا فى ظل التسامح الاسلامى بدأوا يهاجرون أفواجا من المدن الاسلامية (١١٢٥ - ١١٤٦) . كما عاش فى ظل الممالك المسيحية أولئك المدجنون الذين تدين لهم بعض المدن الاسبانية بأجمل الآثار الفنية التى تم انجازها على أيديهم مثل القصر فى أشبيلية وباب الشمس فى

طليطلة (٢) ٠ أيضا هؤلاء المرتدون من الدينين الذين تبادلوا الهرب بين الشعبين ، هذا كله بجانب أمور أخرى كثيرة للاتصال جعلت المعايشة بين الشعبين والدينين سهلة لاسيما فى القرون الأربعة الاولى من الوجود الاسلامى الذى استمر أكثر من تسع قرون تنتهى بطرد الموريسكوس نهائيا عام ١٦٠٩ م (وان كان يشك فى بقاء بعضهم بعد ذلك) ٠ ان آلاف الكلمات العربية قد تسللت للاسبانية كضرورة ونتيجة لهذه الاتصالات والمعايشة ٠

ولعل من أطرف وسائل الاتصال أولئك « شيوخ المنصر » الذين عملوا كجواسيس لصالح الشعبين لمقدرتهم فى اجادة اللغتين العربية والرومانثية ٠

ثم ينتقل مؤلفنا الى « الموريسكوس » (٣) وطردهم من اسبانيا ٠ ويتساءل هل كان طردهم من وطنهم مبررا ؟ ان الحس الاسبانى بأن الحرب بين المسيحيين القدماء والموريسكوس كانت حربا أهلية بين اسبان واسبان ، فلماذا يطردون ؟ ان الزراعة والصناعة فقدت الكثير ــ بل كل شىء

---

(٢) القصر تم تشييده فوق أطلال قصر المعتمد بن عباد حيث استقر عدد من ولاة الموحدين ثم الملك سان فرناندو وخلفاؤه بعد الاستيلاء على أشبيلية ، ولم يبق من هذا القصر القديم سوى « باب الجص » ، والقصر الموجود الآن فقد شيده « بدرو القاسى » واصلحه جزئيا من بعده الملكين الكاثوليكيين ثم كارلوس الخامس ٠ وتشهد واجهة القصر بروعة فن المدجنين ولازالت الحدائق العربية تخلق جوا اسلاميا حول القصر ٠

(٣) الموريسكوس (أو الموريسيكيون) : هم المسلمون الذين بقوا فى اسبانيا بعد انتصار الاسبان النهائى فى حروبهم ضد المسلمين التى اطلق عليها حرب الاسترداد ٠ وقد عمد الموريسكوس تعميدا مسيحيا وعاشوا مسيحيتهم مع الشك العام فى ايمانهم المسيحى مما أدى فى النهاية الى محاربتهم وطردهم من اسبانيا مع ما أسفر عنه ذلك من توقف النشاط الانتاجى الذى كان يقع على كاهل الموريسكوس ٠

- بطرد هؤلاء . ان شهرة الموريسكوس وذكاءهم وتفوقهم وكثرة نسلهم فضلا عن زواج بعض الاسبان من موريسكيات، وتعاون الموريسكوس مع بعض أعداء اسبانيا فى أعمال التجسس ، كل هذا أثار حفيظة الاسبان من المسيحيين القدماء، وجعل احساسهم بالخطر الموريسكى يعلو ويدفعهم لمحاربتهم حربا قاسية لاهوادة فيها ، مما جعل الموريسكوس يتمردون مرارا ثم يطردون . ولكن على أى الأحوال - رغم هذه المهارات الموريسكية التى يضاف اليها ثراء فولكلورى - فانهم لم ينجبوا ابن حزم أو ابن رشد آخر ، وأدبهم الخامياد المحفوظ حتى الآن يشهد بأن المسيحيين تفوقوا عليهم روحيا وعسكريا . ان الكتب التى ألفت بسبب طرد الموريسكوس بين ١٦١٠ ، ١٦١٣ (٢٠ كتابا بين مطبوع ومخطوط) تثبت كم كان هذا الحدث يعنى الرأى العام . لقد استخدم العنف والاقناع ولكن هذه السلالة بدت عصية على أن تقهر . ان الموريسكوس كانوا يشعرون باسبانيتهم كالمسيحيين القدماء وقد كانوا يؤسسون ضمير أمة على أساس من ماض مجيد . وكانت محاسنهم نابعة من العمل والثروة الاقتصادية التى تترتب على العمل . وقد ضحت الملكية الاسبانية بهذا لأن الثروة والرفاهية بالنسبة لها ليست شيئا أمام الشرف الاسبانى المؤسس على الوحدة الدينية والسيادة المطلقة للسلطة الملكية . ان المواثيق والتفاهم مع غير المؤمنين كان شيئا ينتمى الى القرون الوسطى ، ولذا كان وجود الموريسكوس (المشكوك فى ايمانهم) أمرا يخالف تسلسل التاريخ ، ومع ذلك فان هيكل الحياة الوطنية كان عليه أن يتابع نفس الهيكل الوسيط : حيث كان المسلم يعمل وينتج ، بينما المسيحى يتسيد فى غيبوبة نشوانة بسبب الاحساس بالعظمة الشخصية . انه

لايمكن فهم صــور الفلاحين والمتصــوفين والحرفيين عند « الجريكو » ، تلك الصور التى تبدو فخيمة الا لكونها صورا محاكية لهذه الفئات التى عاصرت الجريكو ، وكانت ترفل فى النعيم والفخار ، وتتآمر ضد الدولة ٠ ان اسبانيا فى عهـد كارل الخامس كانت تشعر بقوتها ، وكان لديهـا بقيــة من مرونـة تحافظ على دفعة باقيــــة من التراث ٠ ولكن فى عهد فيليب الثانى يدخل كل شىء فى دائرة التشــــدد فينتهى الاعتدال تجاه الموريسكوس ، ويترتب على ذلك أن ينطلـق الموريسكوس لحمل السلاح لأنهــم قد اشــتموا نهــاية الامبراطورية الاسبانية ٠ وهذا واحد منهــم يقول : « أنا لا تهمنى الامبراطورية الاســبانية الممتـدة ، لأن الدول ـ وصدقونى ! ـ عندما تصل الى نقطة العظمة فمن المحتم أن تنهار لأن القوى الكبيرة تهدمها الرشوة والشهوة والملذات التى تصاحب الرفاهية ٠٠٠٠ وبصرف النظر عن هذا فنحن لسنا عصابة لصوص بل مملكة ٠ ان اسبانيا ليست أقــل مرضا من روما » ★ والحقيقة أن فيليب الثانى احتاج لكل قوته لكى يتغلب على الموريسكوس فى سلاسل جبال غرناطة وبالضرورة فان جماعات هؤلاء الموريسكوس سوف تقــل بسبب سوء تسليحها بعد ثلاث ســنوات من الصراع ٠ ان هذه الحرب الأهلية ثم أخيرا طرد هذه السلالة التى لانظير لها حدثان كان عليهما أن يطرحا كصيغ للمشـكلة موضوع الاختلاف ٠ لقد أدى ذلك الى انشقاق ـ ولكن مع أضرار أليمة وخطيرة لكلا الطرفين ـ لأن تنــاقض « العقل » كان يمضى مصحوبا بتعاطف « الحياة » ٠ ان هذا التعاطف كان أساسة

★ يلاحظ تاثره بنظرية ابن خلدون حول أعمار الدول وسقوطهــا (راجع مقدمة ابن خلدون) ٠

مجتمعا ذا تجربة أخلاقيةواحدة غير قابلة للتصالح مع«عقل حكومة امبراطورية ثيوقراطية ٠

لم يعد المسلمون والمسيحيون يأوون الى العقيدة التى أظلتهما فىالعصور الوسطى ٠ ومع ذلك فالموريسكى ظل يحس باسبانيته ٠ : — « أينما كنا فاننا نبكى من أجل اسبانيا ، ففى النهاية نحن ولدنا فيها وهى وطننا الطبيعى ٠٠٠ الآن أعرف وأخوض تجربة ماتعود الناس على قوله : كم هو حلو حب الوطن » هكذا يتحدث الموريسكى المطرود من اسبانيا فى رواية دون كيخوته (II,54) ٠ ويرى أسقف غرناطة الأول « فراى ارناندو دى تالفيرا » أن المسيحيين القدماء والموريسكوس سيان فهم مسيحيون طيبون ويمكن أخذ الموريسكوس الى حظيرة ايمان القدماء وأخذ القدماء الى دائرة أعمال الموريسكوس الطيبة ٠ ولم يكن هذا الحس العاطفى مؤقتا أو سياسيا ، فهذا المؤرخ بيرمودث دى لابدراسا (٤) ، اذا كان قد رأى أن الموريسكوس ينقص بينهم الايمان ويكثر التعميد ، فانه يؤكد أن لهم حسنات طيبات أخلاقيا ، فهم صادقون جدا فى التعامل والتعاقد ، وذوى بر مع فقرائهم ، يقل بينهم العاطلون لأنهم جميعا عاملون مجتهدون ٠

هنا يكمن صراع جديد ، فى زمن اتصف جذريا بالصراع ان ذلك الصراع ينتهى بأن يظهر على هيئة تعبير فى الأساليب

---

(٤) Segun Bermòdez De La Pedraza, en Antiguedades y exceloncias de Granada, folio Gl, Citado por P. Longas, Vida religios a de los moriscos, Mádrid, 1915, p. LXXV.

المسماة بـ (الباروكوس)(٥)· اذن لايناسب أن نبسط الأمر هذا التبسيط المبالغ فيه بقولنا : ان التعصب الاسـبانى هزم الاصرار الاسلامى المتمرد على الوحدة الحديدية لاسبانيا فى عصر فيليب الثانى · فالحاسم فى المشكلة هو الصدام بين العقل والحياة ، ذلك الصدام الذى وعى به الذين كان لهـم حلم مثالى بتنسيق « الايمان بدون عمل » لأولئك المسيحيين القدماء مع « العمل بدون ايمان » للموريسكوس ، وبفشـل هذا التنسيق بينهما تصبح الكارثة الاجتماعيـة حتمية · ويلاحظ « العيسـوى بدر وجوثمـان » فى ١٦١٤ أن بعض الموريسكوس (ويطلق عليهم البروتستانت المبتدعين) كانوا يدينون فى سعادتهم للحال النابع من ممارسـة « العمل » كقيمة اجتماعية وبناءة (٦) · بطريقة أو بأخرى ، كان الناس فى اسبانيا يحسون بما هو « الانجاز الممتاز » مع أن تحقيـق مثل هذا الانجاز كان مستحيلا ، وهذه الثنائية المشـكلة بين الوعى والسلوك تعد مقدمة منطقية ، منها تشتق السمـات الدائمة وذات المستوى العالمى للحضارة الاسبانية ·

وفى القرن ١٦ يضج اقطاعيو أراجـون بالشـكوى من سلطات التفتيش التى تطارد تابعيهم من الموريسكوس كما نرى فى بلاغ مندوب التفتيش فى أراجون الى مدريد عـام ١٥٥٣ م · وفى عام ١٥٥٦ م يعدم أدميـرال أراجـون « دون سانشو دى كارودنا» لتسامحه الموريسكوس حتى أنه سمح

---

(٥) أسلوب فى الفن والأدب يقوم على الزخرفية المثقلة بالصـور والفكر ، ولعل له بعض الجذور الاسلامية متمثلة فى شعر أبى تمـام وفى الفن الاسلامى ، وأيضا تبدو العلاقة بين منظور هذا الفن ومنظور التصوف الاسلامى فى رؤية العالم ·

(٦) Pedro de Guzmàn, Bienes de honesto trabajo, Madrid, 1614, paginas 119, 120.

لهم باعادة بناء مسجد صغير كما نسب اليه نية الذهاب الى البابا وحتى الى سلطان تركيا فى احتجاج على طقوس التعميد الاجبارى المفروضة على الموريسكوس البلنسيين • عموما أصبح غير مطروح الانمزاج بين « الايمان بدون عمل ، « والعمل بدون ايمان »،كذلك استبعد التنسيق فى محيط المصالح الاقتصادية •هكذا يبدو نهائيا أن « أشياء » هذا العالم الملموسة والمتبادلة لم تكن أبدا محسوسة بالنسبة للروح الاسبانية مع أن هذه « الأشياء » نفسها هى التى تحسم - فى اللحظة الأخيرة - قدر اسبانيا : فالمسئولون عن الحياة العامة ، لم يستطيعوا أن يروا فى الموريسكوس أكثر من ارادة متمردة ، ولم يعد فى الأفق حقل للالتقاء فى مصالح مشتركة بين حب الموريسكوس لاسبانيا وبين ذلك التقدير الذى تحمله بعض القلوب ذات المزاج الشفاف نحو الموريسكوس • هذا دفع الصراع الى أن ينقلب الى مواجهة بين ارادتين عاريتين غير متكاملتين ، فيما يتعلق « بأشياء » هذا العالم الخارجى السالب الذى ينتمى الى الجميع ولا ينتمى اليه أحد • ونتيجة هذه المواجهة بين الارادتين لم يكن من الممكن الا أن تكون تصفية جانب من الجانبين دون امكان النظر الى شىء آخر • أما سادة أراجون فقد تم قهرهم ، وسقطت حقولهم الى هوة البؤس • وانى لأرى أن بقية الحنق الأراجونى - ضد السلطة القشتاليه المركزية خلال القرن السابع عشر - قد وجد مأوى له فى المطبوعات ، من كتب تغص بالمرارة والهجاء • ومعنى ماسبق أن الأمر لم يمر فى استسلام كامل للنظام الكائن ، فالطبعات الأولى للأعمال الأكثر جرأة ولذاعة لكيفيدو صدرت فى أراجون ولم تصدر فى قشتالة ، ومن المؤكد أن سياسة التوحيد لفيليب الثانى والمضادة لقوانين أراجون ، كانت حافز لليقظة لأى هجوم ضد

المجتمع · كما أن الفكر ينبغى أن يذهب الى أن طرد الموريسكوس ساهم فى هز التضامن الفقير بين ممالك اسبانيا المختلفة ·

ومن ثم ، يمكن حساب المسافة الزمنية ـ عائدين الى الوراء ـ بين طرد الموريسكوس ١٦٠٩ وطرد اليهود ١٤٩٣ · لنرى أن هؤلاء وأولئك ـ فى مجموعهم ـ شكلوا جزء من اسبانيا وامتدادا لشعبها كما يبدو فى كل ماقرأنا من هجوم عليهم أو مديح لهم· ومع ذلك فاليهود كانت لهم وظيفة اجتماعية مختلفة ،وقد نجحوا فى ضمان حماية بعض السادة لهم بما أبدوا من رقة وعبقرية ولاسيما فى جمع المال لهؤلاء السادة ـ كذلك قاموا بنشر أساليب فطنة من التصوف وصبوا فى أدب القرنين ١٦ ، ١٧ م مواضيع وأساليب مترجمة عن العربية ـ وبذا نرى أن الدائرة التى بدأت بالمستعربين الخاضعين للمسلمين فى القرن ١٣ م تقفل بالموريسكوس الخاضعين ثم المطرودين على يد الثيوقراطيين فى القرن ١٧ م · وهذه القرون التسعة منذ الفتح العربى حتى طرد الموريسكوس ، والتى قمنا ببسطها بين يدى القارىء وعلى مرأى منه ، لابد أن تترك أشياء فريدة فى اللغة والعادات والدين والفن والآداب ، وأيضا ملامح أساسية فى الطابع الاسبانى تتطلب أن نضع فى اعتبارنا هذا التداخل الذى استمر أجيالا · علينا أن ننظر الى كل هذا كصيغة بنائية للتاريخ بل كمحتوى للحياة · ونكرر أن اسبانيا المسيحية لم تكن شيئا قد امتلك وجودا خاصا ثابتا سقط عليه النفوذ الاسلامى كشىء مؤقت مثل « الموضة » أو كنتيجة للحياة فى تلك الأزمنة · ان اسبانيا المسيحية قد تشكلت بينما كانت تنتصب وتتطعم حياتها بما دفعتها اليه الروابط مع ماهو اسلامى ·

وينهى المؤلف ماسبق كمقدمة لهذا الفصل باعلان هام : وهو أنه لن يحكى تفاصيل تاريخ الحضارتين الاسلامية والمسيحية فقد تم ذلك فى جمهرة من الأعمال التى يعجز عن ذكرها ، انما هدفه بيان كيف صيغت خصوصية القيم العظيمة الاسبانية . قد يخطىء أو ينخدع ولكنه واثق من أنه سيصوغ حكمه ما هو أكثر أصالة وعالمية ـ للنمط الاسبانى العبقرى وأصل هذا النمط ـ فى صيغ حياة انصهرت فى تسعمائة عام من النسيج المسيحى الاسلامى اليهودى .

اللغة :

ليس هناك أكثر بلاغة من اللغة : آلاف الكلمات العربية تواجهنا فى اللغتين الاسبانية والبرتغالية ، كانعكاس لاحتياجات حتمية ، تماما مثل اللاتينية التى قبلت آلاف الكلمات الاغريقية . وكثير من تلك « العربية » يخلد فى لغة الأدب والكلام . أما البناء النحوى فلم يتأثر « بالعربية » لأن التراث الرومانثى اللاتينى المكتوب لم يفقد كاملا ، وتأكد بقاؤه بمحاولات الدول المسيحية ، لتكثيف وعيها الوطنى★ ولو سيطر المسلمون على كل اسبانيا ، لتغير وجه اللغة الاسبانية الرومانية ،ولكن الذى حدث أن الكلمات العربية، دخلت الاسبانية خلال مجرى حياة هذه اللغة باجبار الحاجة وليس بسيطرة السلطة . « فالعربية » فى « الاسبانية » ـ بعكس « النورماندية » فى « الانجليزية » ـ تدين لاستيراد

★ عدم التأثر النحوى الذى يقطع به الكاتب أمر مشكوك فيه لأن اللغة الاسبانية تنفرد بظواهر غير موجودة فى الفرنسية والايطالية مثل ظاهرة التقديم والتأخير بل ان كثيرا من الصيغ التركيبية اللغوية الشائعة الاستعمال توازى تماما صيغا عربية سابقة لها وكل هذه الصيغ « الارابيسمو » تحمل معها أبنية نحوية عربية خصوصا استعمالات حروف الجر . والأمر يحتاج الى دراسة لغوية مقارنة مكثفة . ومع ذلك فالتأثر النحوى سيكون أقل جوانب الآثار العربية فى الاسبانية واكثرها دلالة كلما أمكن العثور عليه .

أشياء لاغنى عنها من منتجات صادرة عن قدرة انتاجية تبــرز تفوقها • وهذه المنتجات كما تبدو فى المعجم تنتمى لجوانب متعددة فى الحياة : الزراعة ـ الفن ـ البناء ـ المهن ـ التجارة ـ الادارة العامة ـ العلم ـ الحرب • ويقدم الكاتب حشــــدا من الكلمات التى تثبت أن « العربى المسلم » كان ضرورة فى حياة المجتمـــع المسيحى فى معظـــم جـــوانب الحيـــاة • وبقى هذا الأثر فى اللغة حتى اليوم ولاسيما فى البنـــاء والرى بل ان أعلى مراتب التقنية فى الرى تظهر فى كلمـات الاسبانية ذات الأصل العربى • وفوق ذلك ، فان ملاحظة الكلمات التى تتصل بالماء تدفع الى اكتشاف أن الدراسات المعجمة «العربية الاسبانية» قد أهملت كثيرا تتبع الكلمات الاسبانية ونظرياتها العربية فى استعمالاتها فكلمة « عين» العربية تشير مثلا الى ينبوع الماء ، وهذا يفسر الاســـم الجغرافى « عيون الوادى "Ojos de Guadiana"ويكفى النظر هذه العينات من الكلمات لادراك مدى امتداد وعمق النسيج الاسلامى المسيحى • وهنا يشير مؤلف الكتاب الى أنه لم يذكر الكلمات ذات الصبغة الحربية والصناعية التى تدل مع غيرها على مشاركة فى صيغ الحياة المادية•ويمضى الكاتب متحدثا عن الكلمات الدينية • ان هذه الكلمات لانجد منهـــا الا الكلمات التى تشير الى المصطلحات الدينية الاســـلامية لأن الاسبان عاشوا داخل مسيحيتهم وراء حدودهم فى محاولة ملء فراغ من الأرض ماديا ليدفعوا بهذه الحدود الى الأمـام دائما ، لكنهم لم يستطيعوا تبنى الصيغ الثقافية أو العلمية ماعدا اسماء النجوم التى أسبغها عن العربية « الفونســو العالم » • ولم يحدث أن دخل الاسبانية كلمات علمية مثـــل: الكلمات العلمية التى دخلت من الاغريقية الى اللاتينية ، حيث أنه لم يحدث أن فعل اسبانى مع العرب العظام امثال الغزالى

وابن رشد وابن حزم ... الخ مثلما فعل سيسيرون وسنيكا مع الاغريق عندما ترجموهم وتبنوا أفكارهم لاتينيا . ولكن ينبغى أن نعرف أنه بجانب كلمات الصيغ المادية للحياة ، وجدت كلمات ترتبط بالجانب الآخر المعنوى من الحياة ، انتقلت من العربية الى الاسبانية .

واذا كان الوجود الاشتقاقى لكلمات عربية فى الاسبانية يعبر عن مشاركة حسية فى صيغ الحياة ، فان الترادف فى استعمال الكلمات المناظرة لدليل على التعاطف النفسى مثل كلمات عين ojo ، ظل Sombra ، وقصر palacio بيت Casa وعار Verguenza : فالأولى بمعنى عين ماء ، والثانية بكل استعمالات ظل العربية والثالثة بمعنى غرفة ، والرابعة بمعنى عمران سكانى كقرية أو مدينة والخامسة بمعنى شرف . وهذه الاستعمالات لا نظير لها فى أى لغة رومانثية أخرى الا البرتغالية التى نصيبها من « العربية » هو نصيب الاسبانية .

من الواضح هكذا ـ أن كثيرا من صيغ اللغة تصبح غير مفهومة ولا مبررة الا عبر انعكاس الاسلام فيها . ولعل من الكلمات ما له من الدلالةالكبرى حتى تستحق أن تفرد له دراسات مستقلة مثل كلمة Hidalgo . وهى كلمة يوصف بها الاقطاعى الصغير . ان كلمة algo « التى تسبقها كلمة « « ابن Hijo » لتشكيل كلمة Hidalgo تعنى الثروة والشرف معا . والكلمة استعمال عربى طعم به الاسلام السلوك المسيحى . ولاشك أن استعمالات«ابن»العربيةكانت ولازات تفيد الانتماء . وقد فقدت قيمتها المجازية كما لو استعملت فى اللغات اللاتينية كقولنا بالفرنسية «ابن باريس» التى تفهم فهما عاطفيا لاوجود له فى الاستعمال العربى . ولعل كلمة algo معادلة لكلمة « الخمس » العربية التى تستعمل

للاشارة الى نصيب الدولة فى أرض البلاد المفتوحة وغنائمها، كما تستعمل ترجمتها الأسبانية quinta للدلالة على نصيب ملك أسبانيا من غنائم الحروب ومن الذهب والفضة المجلوبين من أمريكا ، وقد أطلق على زارعى الخمس في الاندلس«أبناء الخمس » وهى كلمة فى شكلها ومحتواها تقابل Hidalgo . الاسبانية ٠ وقد حاول المؤلف ـ بعد هذا التصور ـ أن يجد كلمة عربية تشير الى الثروة والشرف معا ، فلم يجد (٧) ، وعقد الأمل على اليوم الذى يصبح فيه الأمر أكثر وضوحا عندما ينجلى الوضع الاجتماعى فى الاندلس ٠ ويتصور المؤلف أن هذا الاستعمال قد جاء مع هجرة المستعربين ، وقيامهم بترجمة الفكرة العربية الى الاسبانية ، وهذا يفسر استعمال كلمة enfante (ابن ـ ولد) بمعنى نبيل ثم بمعنى ولى العهد فى مقابل استعمال « الولد » فى العربية ٠ وعلى أى الأحوال فهذه الاستعمالات لاتعرفها اللاتينية ولا الرومانثيات وهى اسلاميات تسللت الى التفكير الاسبانى باللغة ، ومن الاسبانية تسلل بعضها الى اللغات الأوربية الأخرى ٠

تأثيرات قرآنية :

ان آلافا عديدة من الأمثال الاسبانية ، والأقوال السائرة لها نظير فى القرآن ٠ ونضرب مثلا لذلك قولهم : « حمار يحمل علما » وتردد العبارة نفسها : « حمار يحمل آدابا » واذا ذهبنا الى البرتغال ـ وقد احتفظت لغته بالعربية أكثر من اللغة الاسبانية لعزلة البرتغال عن أوربا ـ سنجد العبارة قد صارت : « حمار يحمل كتبا » وهى نفس النص القرآنى « كالحمار يحمل أسفارا » ، وهذا يعنى أن النص القرآنى

---

(٧) تكاد تقابل الكلمة العامية المصرية « ابن عز » الكلمة التى يشير اليها الكاتب Hidalgo

نفسه قد استعمل ، ثم استبدلت الأسفار بالعلم أو بالآداب ليصير المثل شيئا غير مفهوم الى حد ما ٠

***

وينهى المؤلف هذه الاشارات اللغوية التى تخلو من أى أهداف لغوية علمية محضه لأن منهـــج المؤلف لايبحث عن الحدث ، انما يكشف ماوراءه ٠ ان الأحداث اللغوية السابقة تقدم صيغا للحياة قد فرضت على نسيج الحياة الاسبانية فرضا يتكشف منه شيئا فشيئا شبح التاريخ أكثر وضوحا وتحددا ٠ ان دراسة عناصر البنية التاريخية فى حركتها ، ومنها اللغة سيجعلنا نعود فى الفصـول التـــالية لبعض الاستعمالات اللغوية كلمـا كان ذلك مفيـــدا ٠ ثم يضيف الكاتب ثبتا لكلمات ذات اشتقاق عربى أو لكلمات نظـائر ترداف كلمات وصيغا عربية نظيرة ٠

اسـتطراد حول قطالونيا (٨) :

لم تنل اللغة القطالونية الفرصة لتحتك مباشـــرة بالاسلام وبالمستعمربين٠فقد عاشت فترة تولى وجهها نحو جنوب فرنسا ، وعندما عادت بوجهها ـ فى نهاية القرن ١٢ ـ الى اسبانيا أتيح لها الاختلاط باللغة القشـــتالية ٠ على أى الأحوال ، ان قطالونيا لم تنتم أبدا الى اسبانيا كما لـــم تنفصل عنها قط ٠ وبذا يمكن فهم الانشقاق الاســـبانى

---

(٨) أحد الأقاليم الاسبانية الشمالية المتميزة لغة وثقافة ٠ وعاصمته برشلونة مسقط رأس المصور المشهود بيكاسو اما لغته فهى القطالونية التى كتب بها المتصوف لوليو أعماله التى تعد أهم الجسور الثابتة تاريخيا لعبور التأثير العربى ٠

خلال التكامل . وترتب على وضع مثل هذا ، أن قطالونيا قد تجمعت فى لغتها الحقائق اللغوية من ثلاث مدارس لغوية متباينة ومحيطة بالقطالونية أى يمكن القول أن هذه اللغة أخذت من العربية - ولكن أقل من القشتالية أو قل عبر القشتالية - كما أنها أخذت من البروفنسالية - وخاصة فى شعرها - كما أخذت - أخيرا - من القشتالية - فى نثرها - ، وفى جميع الأحوال هى لغة لها وضعها الخاص النابع من الوضع الخاص لقطالونيا - فى التاريخ الاسبانى ، فلم تشبه الاسبانية (القشتالية) والبرتغالية .

الفصل الثالث

التراث الاسلامى والحياة الأسبانية

لقد حظيت صـــيغ معينـــه للحياة والتعبير بقدر من الاستطلاع أقل كثيرا عن الكلمات ذات الأصل الاشـــتقاقى العربى فى اللغات الرومانثية الايبيرية ٠ هذه الصيغ المعينة تبقى غير مفهومة بعيدا عن الاطار الاسلامى ٠ وهنا لايعنينى الفولكور بقدر ماتعنينى الحقائق التى تركتها ٩٠٠ سنة من النسيج المسيحى الاسلامى فى ايبيريا ٠ وفيما يتعلق بهدف هذه الدراسةيبدو غير ذى أهمية ذلك الذى تركته الحضارة الشرقية فى بلاد أخرى احتكت بها مثل روسـيا وبيزنطـــة والهند ، ويحتل أيضا نفس المنزلة تلك العادات التى قـــد يدين بها المسلمون الاسبان لشعوب مثل الفرس والبيزنط ٠ ويبدو هذا القول واضحا اذا عرفنا أن العادات التى حفظها المسيحيون الاسبان هى انعكاس حى للجلال الاســـلامى الذى كان يقهر ويخضع فى بعض الاحايين (على حد تعبير ممنندث بيدال) الى درجة أنه يرغم على محـــاكاة له غير واعية ، حتى بعد أن كان قد تلاشى الازدهار الســـياسى والعسكرى للملسلمين ٠

واذا وجدت لدينا خريطة للحمـــامات فى اســـبانيا الوسيطة لحصلنا على التفاصيل الكافية لمساحة التأثيـــر الاسلامى ٠ان قرى صغيرة من قشتالة لاتعرف حمام الماء الساخن اليوم كانت تتمتع به فى ذلك العصر كما تخبرنا

لوائح البلديات . وقد كانت الحمامات مباحة للجميع حيث كانت النساء نظيفات بعيدا عن الاستحمام فى المنابع الطبيعية أو الأنهار أو حتى فى المنازل ، ولكن فى نهاية القرن السادس عشر تهدم كل الحمامات وينسى الاسبان ومثلهم الاوربيون عادة الاستحمام لأنها عادة اسلامية ، ويستمر ذلك حتى تدخل هذه العادة المؤثمة - من جديد - لانجلترا فى زمن متأخر . كذلك حاكى المسيحيون المسلمين فى غسل الموتى . كما نرى تغطيه وجه النساء عادة ، تنتشر بين النساء الاسبانيات ، بينما تحرم على نساء الموريسكوس ورثة هذه العادة الحقيقيين . أيضا كثير من عادات تأسيس البيوت عربية الأصل ولاسيما مجالس المرأة فى هذه البيوت المكونة من سجادة مغطاة « بالحشيات » . ومن الطريف أن تبقى المجاملات العربية التى لازالت حية الآن فى البلاد الاسلامية كقول « تفضل » يتفوه بها مجاملا صاحب الشىء اذا أعجب هذا الشىء شخصا آخر وأبدى ما أحس من اعجاب . وكدعوة الحضور - دون قبول منهم بالطبع - الى الطعام من الشخص الذى يتناوله أينما كان . وهذه العادة تنتشر بصيغ مختلفة فى كل أقاليم شبه الجزيرة . أيضا نرى ترديد عبارة « ان شاء الله » ترافق كل وعود الاسبان تماما مثل ترديدهم أقوال شبيهة بعبارة « الى الغد » . وهذه العبارات اسلامية بدليل عدم وجودها فى اللغات اللاتينية الأخرى بجانب صعوبة ترجمتها حرفيا الى هذه اللغات . وحتى ترديد كلمة الله فى اسبانيا يبدو مسرفا جدا اذا قارنا معجمين للغة الاسبانية والفرنسية . ويبدو أن كلمة : ! OLé لتشجيع المغنين والتعبير عن الطرب والاعجاب فى حلبات الرقص ومصارعة الثيران تأتى من استعمال مثيل لكلمة « الله » العربية .

يضم الى كل ذلك التحيات فى الاسبانية وصيغ التعبير عن الاحترام ، فهذه كلها ــ تقريبا ــ تضم كلمة الله ٠ والمستعربون يستعملون كثيرا عبارات « الله يحفظك»، الله يحميك » حتى أن اللغوى « مننندث بيدال » يتصور ــ لكثرة شيوع هذه العبارات ــ أنها ظاهرة أعم من تأثير المستعربين الذين كانوا يرددونها فى القرن الثانى عشر ، وأن بقايا هذه العادة ظلت حتى اليوم فى قول « يحفظه الله » عندما يذكر اسم الملك رسميا ٠ وفات اللغوى أن كلمة يرددها ــ بجانب الاستعمال الرسمى لها ــ الفلاحون فى الأندلس كما يرددون A la paz de Dios كنظير حرفى مترجم للتحية الاسلامية « السلام عليكم » ٠

ويبقى أيضا كصيغة فى الرسائل عبارة « تقبيل اليد » و« تقبيل القدم » فى التعامل مع السادة ٠ وحتى القرن التاسع عشر كان يودع الفرسان بالقول « أقبل يد حضرتكم» كما كان يقف السيد أمام المرأة قائلا « أقبل قدمكم ياسيدتى» وماريانو خوسية لارا كان يعرف العادة التقليدية لتقبيل الابن ليد أبيه « ٠٠٠ ايه يا سيدى الوالد ! لقد كان حينذاك (حيث تقبل يد الأب من الابن) لا ينادى على الأب بكلمة « بابا » ، ان تقبيل يد الأب ليس أثرا قديما (١) » عموما نجد

(١) El casarse pronto y mal

★ تقبيل اليد : راجع (ابا هلال العسكرى ، ديوان المعانى ج ١ ، مكتبة القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ) ص ٢١٤ ــ ٢١٥ حيث يورد احاديث عن تقبيل يد الرسول (ص) والصحابة كذلك يورد أبياتا من شعر المدح يجعل لليد باطنا (للندى) وظاهرا (للتقبيل) ٠ ومما له مغزى هنا ما ورد على لسان ابن قزمان الزجال الأندلسى العظيم فى مقدمة ديوانه فى اهدائه الديوان لأحد ممدوحيه « ٠٠٠ الذى وجهه للنظر وكفه للتقبيل » (ديوان ابن قزمان ــ نشرة كورينطى ــ المعهد الاسبانو عربى ١٩٨٠ ص ٦) ٠

أن التراث له الدوام فى الأقاليم أكثر من مدريد ، فحتى الآن يوجه الابن رسالة الى أبيه « بعد تقبيل يدكم المبجلة » ٠ واننا نجد الاشارة الى تقبيل الأقدام فى رسالة الى فيليب الثانى عام ١٥٦٦ م معروضة فى الجمعية الاسبانية فى نيويورك ٠ كما تظهر فكرة التقبيل بكثرة فى المسرح الاسبانى فى القرن السابع عشر ، وفى دون كيخوته ، وقبله فى قصيدة السيد ، وفى كتابات « رايموندو لوليو » ٠ وليكن الأمر أن المسلمين قد أخذوا هذه العادة من البيزنط أو غيرهم الا أنها عادة اسلامية أخذتها اسبانيا من المسلمين الاسبان وان صيغة تقبيل المزارعين ليد السيد الاقطاعى ليست لها علاقة بالاقطاع الأوربى ، وانما لها علاقة بالتاريخ الاسبانى ، لأنه كان طبيعيا بين العرب تقبيل اليد كدليل على الخضوع أو التشريف كما نرى فى هذا البيت الشعرى لابن دراج القسطلى (ت ١٠٣٠) :

تخوفنى طوال السفار وانه لتقبيل كف العامرى سفير

أما عادة تقبيل الخبز بعد التقاطه من الأرض فلا ندرى أهو أثر مسيحى فى الاسلام أم العكس الا أن الاندلسيين الآن يلتقطون الخبز اذا سقط على الأرض قائلين « خبز الله » وهكذا كان يفعل المسلم الاسبانى قائلا : « عيش الله » ٠

أما الذى ينتمى الى الاسلام بوضوح فهو الدعاء للشحاذ عند الاعتذار عن التصدق عليه ، بصيغ هى ترجمة حرفية لقول المسلمين « الله يعطيك ٠٠٠ الله يعينك ٠٠٠ الله يقويك ٠٠ الله يرضيك ٠٠ الخ » ٠ ومن الصعب ألا ترجع — الى الحياة الاسلامية المسيحية فى العصر الوسيط — تلك الصيغ الحماسية والمسرحية لطلب الصدقة كما يلاحظ فى اسبانيا — حتى الآن — ولاسيما فى الجنوب : « الله ينور بصرك ٠٠٠

حن على الأعمى ··· الخ » ··· أيضا الاشارة الى قداسة الأيام والمناسبات الدينية فى نداءات الشحاذين ، ويبدو ذلك عند كيفيدو ، ومن قبل قمص هيتا الذى يؤلف أغانى للشحاذين الذين كانوا يشكلون مؤسسة اجتماعية مهمة ، نفس الشيء الذى يشير الى نداءات للشحاذين قد سمعناها فى اسبانيا ·

أما اللعنات والمدائح فلم تظهر بهذه الكثرة الساحقة والمقدرة التعبيرية فى أى لغة رومانثية أخرى كما ظهرت فى الاسبانية ، ولايسمع فى غير الاسبانية ماردده **الخليفة العباسى المنصور منذ** ١٢٠٠ سنة « سلمت الأم التى ولدتك ! » ان هذه الظاهرة لابد أن تكون ذات أصل شرقى ·

ان قائمة التأثيرات يمكن أن تتسع ، ولعل من يعرف الحياة الاسلامية خيرا منى يمكنه أن يقدم هذا التوسع فى القائمة بسهولة · ولتحقيق هدفى يكفى اثارة الانتباه لمظهر جديد وخصب من مظاهر التاريخ الايبيرى · وحتى لاتمضي الصورة التى أرسمها على وتيرة واحدة فاننى ألونها ببعض الاشارات الى النفوذ الموريسكى خلال العصر الوسيط فى نهاياته ، تلك الفترة التى كانت تصدح فيها البصمات الاسلامية فى الحياة وفى العادات ، وتنبثق « الزينة المدجنة » فى العمارة الداخلية للقلاع وللحكايات الشعرية الشعبية الموريسكية على الحدود · هذه الأشعار الحلوة السائرة بين الناس ، والتى تبدأ بمثل :

كنت أندلسية اسمها مريم ···

اندلسية شابة ذات ذوق جميل

والشاعر فيامســـاندينو (ت ١٤٢٧ م) يتغنى بلذاذات الغراميــات مع الموريســكيات اللائى كن يجــذبن بعض المسيحيين القدماء فى القرن السابع عشر كما سبق الاشارة. يقول فياساندينو :

من يغرم بالجميلة

فليغتفر طول الانتظار

عندما تكون تلك الجميله أندلسية .

زهرة حلوة ناعمة !

رأيتها نابته فى جنينه

مفتاحها السرى

من عرق اسماعيل

محمد الجسور

أمر أن تكون هكذا

نقية النبالة تماما ،

نهود بيضاء من الكرستال

من رخام متلألىء ...

له حق ـ كل الحق ـ

الثوب ـ اذ يضم زنديها ـ

فى امتلاك مثل تلك اللذة

كنت أهواها ....

دأب نفسى الأمارة ! (٢)

---

(٢) Ver Poesia Espanola (Edad medica), edic Damaso Alonso, Buenos Aires, Editorial Losadia, 1942, pages, 175-176.

وفى ذلك القرن عندما يبدأ ظهور الشعر الغنائى الاسبانى تتفجر الأغانى المجهولة المؤلف ذات الموضوع الموريسكى ، وليس ما يمنع الظن بأنها مؤلفة بيد الموريسكوس أنفسهم ، الناسين للغتهم العربية حتى أن فقيه شقوبية Segovia الأكبر كان عليه أن يحرر القانون القرآنى بالقشتالية عام ١٤٦٢ م . ويظهر بعض هذه الأغانى فى ثوب يبرز تحتانا حول كلّ ماهو حميم مما يفتح آفاقا لها نحو العالمية :

ثلاث بنيات أندلسيات عشقننى

فى جيان :

عائشة وفاطمة ومريم

كن فى طريقهن لقطف الزيتونات

فوجدوهن مقطوفات ...

فى جيان :

... ووجدوهن مقطوفات

من ثم عدن قانطات

وضاعت الألوان

فى جيان ... ★

أو تلك الأغنية الأخرى التى مطلعها :

تلك الأندلسية الجميلة

هواها ... هواها ... هواها ...

بث الضنى فى حياتى :

★ راجع : بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة د . حسين مؤنس) ص ٦٢٧ ، ٦٢٨ حيث توجد ترجمة لرواية أخرى من هذا النص نفسه .

وقد تسللت وترشحت طرق الحياة الموريسكية فى الحياة الخاصة للأسبان ثم تعيش هذه الطرق قرونا فتصير اسبانية ، وقد كتب عنها فى القرن الخامس عشر لأن الانتباه كان يتوتر نحو ماكان يحدث فى العالم المرأى المحسوس ، وذلك فى تناسق مع الهجرة مما هو سماوى الى ماهو أرضى . ولنقرأ يوميات البارون دى روثميتال: «فى برغش Burgos يعيش الآن « كونت » ذو جاه ، أخذ سيدى الى قصره (الذى يكتب يوميات البارون هو سكرتير للبارون) كما دعا عدد من الأصدقاء . وقد حضرت فتيات جميلات متزينات على الطريقة الموريسكية فى بهاء ، وكن يرقص رقصات بديعة بالأسلوب الموريسكى،وجميعهن كن سمراوات بعيون سوداء ... » واذا حدث هذا فى برغش - حيث لم يكن فيها مسلمون منذ القرن العاشر - فيمكن أن نتخيل كيف سيكون الأثر الموريسكى فى مناطق استعادها المسيحيون حديثا (أى بعد القرن العاشر) . لن أسرف فى الحديث لتشكيل صورة دقيقة للحياة الخاصة فى القرن الخامس عشر ، ولكن كل هذا الذى فرغنا من ذكره يثبت أن العادات الاسلامية المسيحية لم تكن « موضة » مؤقتة ، انما كانت شيئا مفروضا على الحياة المسيحية كتخويل لبق من الغالبين للمغلوبين . وهذا يفسر الذوق - فى الغرب الامريكى الشمالى - ذلك الذوق الذى يتسم بالأسلوب العمرانى الاسبانى فى العمارة ، وفى صيغ أخرى للحضارة . ان الكلام الذى يتلو سوف يعمق طرح هذه الأفكار التى التقطناها من اللغة .

التأثير الدينى للاســـلام

لم يحظ الدين بمكانة فى حجم العمل الاجتماعى فى أى قطر كما حدث فى شبه الجزيرة الايبيرية ، وبين المتكلمين بلغاتها ٠ وهذا لايعنى أن الكنيسة الآن مثلا - تمثل قيمـــا فريدة فى نظر الناس أو أن الشبان لايسعون لشئون الحياة المادية ، وانما يعنى أن الدين لازال هناك ، بشكل ما ، حتى أن أى محاولة لاسكاته تجر كوارث لايمكن حسابها ٠ وقـد ثبت ذلك كعين اليقين بجداول الدم فى المكسيك وأسبانيا ٠ كما أن شعوب أمريكا اللاتينية لازالت تعيش فى جو سحرى٠ ان المنجزات الدينية ، ودور رجـال الدين فى كل مجـــالات الحياة الاسبانية لهى أمور لم يحدث لها نظير ، والمثال على ذلك تلك الكنائس البالغة الجمال فى كل مكان والباقـــة المدهشة من الأدباء بين رجال الدين (سان خوان دى لاكروث - سانتا تريزا - لويس دى ليون - فرانسيسكو دى فيتوريا - لوبى دى فيجا - كالديرون دى لاباركا - تيرسودى مولينا - جارسيان - رنيجو (Feijoò) (٣) وقد حملت ســـياسة اسبانيا الامبراطورية فى أوربا وأمريكا الى الواقع العملى - كدافع وهدف معا - ماكان الفن يبدع من واقع مثالى ٠ ان

---

(٣) سان خوان دى لاكروث : (١٥٤٢ - ١٥٩١) : مؤسس النظام الكرملى للرهبان ، وهو شاعر غنائى بالغ الرقة وتلميذ حفيد لابن عـربى المتصوف الأندلسى ٠ وهو صديق حميم للمتصوفة الكرملية المصلحة للنظام الكرملى للراهبات وهى سانتا تيريزا دى خيسوس (١٥١٦ - ١٥٨٢) ، وقد مارست الكتابة والشعر ٠ وكان فراى لويس دى ليون (١٥٢٨ - ١٦٠١) من المعاصرين لها المعجبين بها وهو أيضا شاعر وكاتب ، ورغـــم أنــــه أوغسطينى الا أنه ممن كتبوا عن سنتانا تيريزا ٠

● تيرسو دى مولينا : (١٥٨٤ - ١٦٤٨) كاتب مسرحى تميزت كوميدياته بالعمق والسخرية المريرة ، وهو قصاص تعد قصصه الجـذور الأولى للرواية التاريخية عند والتر سكوت ٠ وهو شاعر غنـــائى وكاتب لمسرح دينى ٠ وأهم مصادر شهرته اختراعه لاسطورة دون جوان ٠

كل تاريخ اسبانيا ـ فى جوهره ـ هو تاريخ عقيدة وحساسية دينية ، وفى نفس الوقت هو تاريخ السؤدد والبؤس ، وما وراؤهما من جنون ·

لقد عاشت اسبانيا ديانتها مع ماترتب على ذلك من نتائج ،وقد عرفت فى كل لحظة ماتخاطر به من مصير فى مثل هذه اللعبة · لقد كان الأمر فى أعلى درجات الجدية كما لم نتعود أن نرى عند الرومان الذين حارب باباواتهم دفاعا عن مصالح دينوية ، دون تخريب لولاياتهم أو اخلائها من السكان · لقد كان الدين عند كثير من هؤلاء تجارة سياسية دينوية وبيروقراطية ذكية بجانب كونه عقيدة فطنة تخلو من حرارة الايمان ··· انهم أنسنوا الدين دون قطيعة مع السماء ·

وقد بقيت الكنيسة الاسبانية دون أن تتعرض لأى اضطهاد ـ وقد حدث هذا لكثير من المؤسسات الدينية فى العالم ، وينبغى أن يحدث ـ ولكن تبدو خصوصية الكنيسة الاسبانية فى استمرارها كقوة قائمة فى مواجهة الدولة حتى الآن الأمر الذى لم يحدث فى فرنسا وايطاليا أو فى البلاد الكاثوليكية الكبرى · ان لاسبانيا حكومة فى اطار انتمائها للثقافة الغربية ، بيد أن هذه الحكومة ظلت قوة معاونة بجانب الكنيسة حاملة ذكرى حكم أسبانيا ثيوقراطيا · وعندما حرمت الكنيسة من ممتلكاتها عام ١٨٣٦ م استخدمت الأنظمة لحيازة قوة اقتصادية ذات اعتبار كما مارست سلطة واسعة عن طريق مراكزها التعليمية · ان الشرح الخارجى لهذه الظاهرة غير مجد ، مادامت الجماهير لازالت تستوحى عقيدة ساكنة وغير متفاعلة دون النظر الى وقائع موضوعية تحكمها الأحداث والمصالح الانسانية · ان الرأسمالى

الاسبانى يفضل وضع أمواله فى الحسابات الجارية أو فى سندات تضمنها الدولـة دون أن يغـامر باسـتثمارها فى مشروعات صناعية فمعظم الاستثمارات الصناعية أجنبية، وفى عام ١٩٣٥ كان فى اسبانيا ١٧ الف فنى أجنبى ٠ أن عبارة « ان شاء الله » الاسلامية تتلون ـ حتى هذه اللحظة ـ فى حشايا الاسبانية عبر استعمالاتها فى كل خطوة ٠

وأمام اللامبالاة الهـادئة التى تدعمهـا الكنيسـة فى الطبقات القادرة تقف العاطفة المسيحية عند جمهور الشعب، تلك العاطفة المؤسسة على عقيدة مقابلة وان كانت ذات جذر مماثل ٠ وأن الفوضوية ـ كعقيدة شعبية ـ بين عقائد أخرى ـ بجانب فوضوية الكنيسة ظلت هى الطابع الذى يسـود اسبانيا ٠ فالفرد الأسبانى لايعتقد أن مصير اسبانيا يتوقف على سلوك كل الافراد ، كذلك يقاتل هذا الفرد لتحقيق مثـل عالمية ٠ ان شعور الجماهير الفوضوى مقابل شعور الكنيسة تحت شعار أجنبى كان له القدرة التى صنعت مأساة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ (الحرب الأهلية الاسبانية) ٠ ان الاسبان فى القرن ١٥ ظنوا أن الملوك الكاثوليك قد جاءوا من أجل القضـاء على الطغيان فى العالم ٠ وفى عصر النهضـة كانت تكتب اليوتوبيا بالقلم بينما تتم كتابتها فى اسـبانيا بالدم من أجل تحقيق « نموذج مستحيل » لقد ضاع من الاسبان البون بين الممكن والمستحيل ٠ وقد يقال أن مثل ذلك قد حدث عند شعوب أخرى الا أننا ـ فى الغرب مثـلا ـ لانجد المحـاولة المستحيلة ، تقوم على أشواق وسحر ، انما تعتمد على تكامل: أشخاص ووقائع (اقتصاد ـ مفاهيم سياسية ـ تبادل علمى وصناعى) أما اسبانيا فان الشـخص ينطلق من الثقـافة الجمعية ، والتاريخ يدور فى عملية متبادلة بين الأشـواق والسحر المصورين فى بوتقة الايمان أو الخداع ـ فيما يتعلق

بزعماء الأمة٠وفى الادب الاسبانى ـ حتى القرن ١٩ ـ ينظر الى لزريق وجوليان كمذنبين لقيا جزاءهما لمسئوليتهما عن دخول الاسلام الى الاندلس ، وقد تحول هذا الجـــزاء ـ مع تراكم النظرة نفسها نحو الأحداث ـ الى اجراءات تفتيش ٠ وقد نسب فضل النهضة الأدبية فى القرن ١٧ لكارلوس الثالث لمجرد أنه لم يعكر صفو مجموعة من الارســـتقراطيين الذين كانوا يتكسبون من قضية الثقافة بالعطف عليهـا ٠ واليوم مثل الأمس تملأ الروح المسيحية ـ أو المعادية لها ـ التاريخ بصدى سحرى ٠ وليس غريبا أن يترك الدين بصـــــماته السحرية الفريدة فى أسبانيا ، فهل يمكن أن نشاهد فى أى بلد كاثوليكى فخامة احتفالات الاسبوع المقدس فى أشبيلية الذى تتعدد الجماعات الدينية المشتركة فيه مع تخصص كل جماعة بجزئية من الموكب الفخيم كعنصر من عناصر الحرب النفسية العاطفية الموجهة ضد الجمـــاعات المضـــادة ٠ ان المعاناة المذهلة التى يقوم بها الأفراد فى أشبيلية لانجـــاز اجراءات الاحتفال لايقابلها أى فهم لما تعنيه ٠ انها محـــاولة كل اسبانى لأن يضع يده على عالم الغيب « الخاص به » قافلا على نفسه باب اعتقاداته بأنه ينبغى أن يعيش على عطـــاء الأرض « الأم » التى يهبها هذا العالم الغيبى ، عندما لاتكفية الأرض يتجه لاستغلال جانب من ثرواته المعدنية دون النظر الى خطورة ذلك ، وربمـا يتجه الى الدولـــة لنفس الغرض معتقدا فيها بالرغم من عدائه لها فى ظـــل تفكيره الدينى فى الحالتين ٠ ان الاسبانى ـ ومغلقا على نفسه الباب ـ يعبر عن نفسه كممثل ومشاهد معا مهما تعدد أسلوب التعبير ٠ ان عداء الاسبانى للدولة عداء نابع من تعاملها معه موضوعيا، لأن الديانة الاسبانية فردية لا تقدم نموذجا عاما للسلوك أما تضامنه مع الدولة حتى الموت فهو دفاعا عن هذه الديـــانة

التى تنبع من عالم خاص به ، تسود فيه ارادته وحلمه وطموحه • انه اذا شعر بأن العالم حوله يمضى بمعايير لايستطيع تطويعها لاراداته فانه يرتكب الجرائم ، حتى لاينبثق هذا العالم المعيارى الى الوجود • ان الحرب الأهلية عام ٣٦ ـ ٣٩ كانت حربا بين التدين الاسبانى المنحدر عبر القرون ، وبين ديانة ضبابية غامضة يترابط فيها القول الاسبانى السائد « يروق لى » مع مشروع طوبائى لتحقيق سعادة عالمية ، وماعدا هاتين الديانتين فقد كان حمى هامشية مستوردة من الخارج •

واننى لأظن أن هذه الطريقة لمواجهة الحياة كانت قد حضنت ونمت فى معايشة للثقافة السحرية للاسلام المؤسسة على الخضوع الى عقيدة تولد بدورها عقائد أخرى • فالاسلام الذى ينص على أن محمدا هو خاتم الأنبياء الموحى اليهم يقدم لنا منذ وفاته حتى اليوم « مهديا منتظرا » يشجع استمرار الطمأنينة الحيوية للمسلمين • وقد يضاف الى كل ماسبق ـ من فكرة المعايشة فى خلق طريقة الحياة الاسبانية ـ ماتركه اليهود الأسبان والمرتدون المسلمون من أثر فى عملية القوم الاسبان وفى صيغ دقيقة للروح الدينية ، ولنتأمل الأمر •

ان استخلاص ماهو اسلامى من اطار ماهو مسيحى اسبانى يعد أمرا صعبا ، لأننا لانتعامل مع أشياء انما مع أوضاع للحياة وطرق للمواجهة العاطفية لوجه عالم مقابل • ان الطرق الاسلامية فى اطار نفوذها فوق الطرق المسيحية قد وصلت الى تشكيل عادات ، وبالتالى أسلوب للحياة • وهذا يعنى أن المظاهر الاسلامية فى الحياة منعكسة فى اللغة والعادات لايمكن أن تمر دون أن تنعكس ـ دون اعتراف بذلك

لانكار القيم التى تنبع من حيـاة مناهضـة ـ فى التدين المسيحى • ان الحياة الاندلسية الاسلامية فرضت نفسـها على الجيران وناهضتهم ، ومن هنا كان على هؤلاء أن يلتقطوا كلما غلبهم الاغراء وكلما كان ضروريا ماديا وروحيا : أى من الكحول الى الكرامات • ومحاولة تتبع الآثار الاسلامية فى التدين الاسبانى أثرا بعد أثر لهو تباعد عن فهم التاريخ أو عن فهم هذا التدين فى ديناميكية وعند ظهور هذه الآثار عاملـة فيه • ان العقيدة الاسلامية فرضت نفسها على المسـيحيين الاسبان وناهضتهم، وحاكاها الاسبان ، وهى تفرض نفسها عليهم ، وناهضوها خلال المحاكاة بعقيدة مثلها تعتمد على قوة فوق ـ أرضية ، جعلت حرب المسيحيين جهادا ضد جهـاد المسلمين • ان المسيحية الاسبانية الدرامية النامية فى ظـل هذا التصور ستغطى على المسيحية الاسبانية القوطية وتحل محلها منذ القرن التاسع حتى القرن السابع عشر • وتبدأ هذه العقيدة المحاكية للاسلام بمناهضته بنفس سلاحـه بظهور سانتياجو (شنت ياقب) •يتضح ذلك فى الصفحات التالية •

الفصلان الرابع والخامس
المسيحية فى مواجهة الاسـلام

ان فهم تاريخ اسبانيا يتعذر دون تفهم قضية قداسة « شانت ياقب » وطقوس هذه القداسة التى امتدت فى انحاء اسبانيا ، كما امتدت الى أوربا عندما هب الحجاج من كل الانحاء يتوجهون نحو القبر المقدس رابطين اسبانيا بأوربا ومعمرين طريق الحجاج بالحياة والمبانى · ان «شانت ياقب» تلميذ المسيح المستشهد فى فلسطين ، قد انتقلت رفاته بمعجزة الى أسبانيا ، تلك الأرض التى نشر فيها بنفسه المسيحية قبل غزو الاسلام لها ·

ان جليقية (١) أرض لم تحظ بأهمية تذكر فى عهد الرومان والقوط · وعندما يظهر بها « شانت ياقب » كان من المتوقع أن يظل الحدث محليا · ولكن الأمر لم يجر هكذا · ان « شانت ياقب » الذى ورد فى الانجيل كشقيق للمسيح ، يشكل لونا من الاعتقادات السابقة للمسيحية ، والتى كانت تقوم على الثنائية · ولعل هذه الثنائية الانجيلية ، كانت بهدف القضاء على الثنائيات السابقة · وعموما فالمسيحية الاسبانية كانت غامضة فى الخمسمائة عام الأولى من الميلاد لكنها فيما بعد ستفتح الباب أرثوذوكسيا لطقوس وثنية سابقة للمسيحية ·

---

(١) احدى المقاطعات الاسبانية الواسعة التى تقع فى طرف شبه الجزيرة الايبيرية من جهة الشمال الغربى وتضم أربع محافظات ·

ان العقيدة الشعبية بوجود قبر لأخ للمسيح فى جليقيه، ربما كانت لاتزدهر دون محاولة اعاقة غمر اسبانيا بالاسلام ان الغزو الاسلامى جاء ، واسبانيا المسيحية معزولة تماما عن باقى الأراضى المسيحية · وكانت الحيرة تحيط بالناس وهم يتساءلون : كيف يمكن اعادة مملكة المسيحية فى طليطلة ؟ وانه من المدهش أن يطلق أحفاد الفونس الثالث (٨٦٦ - ٩١٠) عليه لقب امبراطور لتوسيع رقعة المملكة الأستورليونيه قليلا · ان لقب امبراطور بين قوم لم يعرفوا لحكامهم غير لقب أمير أو ملك ذو مغزى اذا صار فى نفس العصر (القرن العاشر) أسقف « شانت ياقب » «بابا» للعالم·وبعد ذلك بقليل تحول العقيدة الشعبية « شانت ياقب » من شقيق للمسيح الى « توأم » له ، فلم لايستحق أسقف كنيسة لقب « بابا » العالم كما استحق - حسب الاعتقادات - « شانت ياقب » نفسه مكانة أهم من القديس بدرو · ويمتد هذا الاعتقاد الشعبى فى أوربا ومن قبلها اسبانيا لتصبح سلطة « شانت ياقب » الدينية هى السلطة الأولى فى أوربا القرون الوسطى بلا منازع ، مع عدم استناد وجود قبر « شانت ياقب » فى جليقيةالى أساس من الثبات التاريخى أو المنطقى · فقد بدأنا نسمع عن القبر فى القرن التاسع ، وقبل ذلك لم يظهر أى خبر سوى خبر عن دور « شانت ياقب ما ! » فى نشر المسيحية فى أسبانيا · عموما نشهد شيئا مثير حول مدينة شانت ياقب وشخص صاحب اسم هذه المدينة عند المؤرخين المسلمين (ابن حزم - ابن عذارى - ابن حيان) بما يفيد تحول مدينة شانت ياقب الى كعبة تشبه فى قداستها كعبة الاسلام ، اليها يهرع المسيحيون من أقاصى الأرض حتى من نوبة مصر · كذلك تشير هذه المصادر الى أدعاء المسيحيين لأخوة هذا « الشانت يأقب » للمسيح

بجانب أن هؤلاء يحلفون باسمه فى اجلال واحترام . كذلك لايشهد التاريخ أى محاولة اسلامية لهدم قبر «شانت ياقب»

وترتفع أسهم « شانت ياقب » ودوره بجانب المسيح فى المعتقدات الشعبية حتى يعلو على دور كل التلاميذ ليرتفع - كما سبق الذكر - أسقف كنيسة هكذا الى « بابا العالم » .

***

ويمضى الكاتب - اميريكو كاسترو - بشكل مفصل ومطول فى تحقيق شخصية « شانت ياقب » وكيفية نمو عقيدته ، وامتدادها . ويهدف الكاتب بكل ذلك الى ابراز ثلاث حقائق :

١ - الحقيقة الأولى :

أن الاسلام كان له الفضل الأول فى ظهور شانت ياقب كمقابل مادى للرسول «محمد» كما صارت كنيسته مقابلا ماديا للكعبة عند المسلمين ، وبذا ارتبط الدين المسيحى - ولأول مرة فى تاريخه - بالجهاد والعسكرية ، وتظهر مؤسسات دينية مسيحية ذات وظيفة محاكية لوظائف المؤسسات الدينية الاسلامية .

٢ - الحقيقة الثانية :

أن « شانت ياقب » لعب دورا هاما فى توحيد اسبانيا كما توحد المسلمون حول الكعبة .

٣ - الحقيقة الثالثة :

أن « شانت ياقب » قد أتاح لاسبانيا أن تتصل بأوربا ، وتنفصل عنها فى نفس الوقت ، بمعنى : تفاعل أسبانى

أوربى بين تأثير وتأثر ينتهى بتميز اسبانيا ، وتفردهـــا النابع من مواجهتها المباشرة مع الاسلام دون حرمانهــا من الاستفادة من التقنية الأوربية الصناعية ٠

***

وتستمر هذه العقيدة حتى القرن الحادى عشر لتبدأ فى التمزق والتبدد الى عقائد منتثرة عن وحــدة اســـبانيا ، فقد انفكت الى اعتقادات فى حشد من القديسيين الآخــرين ومن الملوك منذ المليكين الكاثوليكيين ، ومن الأدباء والأبطال الاسبان ٠ وتلك كلها عقائد ذات صبغة مسيحية مخلصــة ويحدث ذلك دخولا فى عصر النهضة الذى قام على أســاس انسانى ، وان كان فى اسبانيا سماويا فى انسانيته ٠

***

واذ تنتهى الحروب مع المسلمين واليهود والمرتدين عن هذه الأديان والموريسكوس يتسرب الدين الى كل جانب من جوانب الحياة ، وتمتلىء المدن والقرى بآلاف الرهبـــان والراهبات فى أديرة غير مترابطة ، ويصبح كل رئيس دير « سيدا من الأعيان » لديره ٠ ويتفرق الناس دون احســاس مشترك ، يتجمع حول « شانت ياقب » الذى تلاشى نفوذه ، فلم يعد يجمع الناس ســوى الولاء للملك اســبانيا ٠ وهذا الاجتماع حول الملك لم يمنع البرتغال من الاستقلال نهائيا ، ولم يحل بين قطالونيا وبين محاولة الاستقلال ٠

***

وفى القرن السابع عشر عندما تحل قداسة **سانتا تريزا** محل قداسة شانت ياقب لا نجد الا عقيدة تحاول أن تقوم على

أشلاء أخرى · وتتبارى العقيدتان على أسس عاطفة خالية من العقلانية بأشعار وعبارات أدبية نرى فيها التصوير الأدبى العربى يتسرب صداه مع اليأس اليهودى كما سنرى بعد ·

ان **كيفيدو** فارس الدفاع عن شانت ياقب يستنكر استبدال عقيدة الكرمليين المؤنثين الحفاة بقديس أسبانيا الذى جلب لها النصر · وهكذا يبدو الاسبانى فى القرن السابع عشر لايستطيع التغلب على عقيدته بمعرفة للأشياء ولكفاءتها كما لم يستطع البقاء داخل هذه العقيدة بالاطمئنان القديم ، وذلك بالنظر الى أوربا التى شرعت فى التحرك العقلانى ·

***

وفى ضوء ماسبق يدخل الى الحديث عن قضيتين لهما خطورة فى التاريخ الاسلامى المسيحى عامة ، ويحتاجان الى تحقيق مستقل ومزيد من الدراسة لما يعرضه حولهما :

القضية الأولى :

أن النظم العسكرية فى الأديرة قد نشأت فى اسبانيا محاكاة للمسلمين ، وعبرت الى أوربا ثم اختفت من أوربا بانتهاء الحروب الصليبية فى القرن الخامس عشر لكنها استمرت فى اسبانيا بعد ذلك · وخطورة هذا الأمر أننا يمكننا أن نبنى عليه نظرية لنشأة فكرة الحرب المقدسة عند المسيحية الأوربية تجعل من الفكرة شيئا اختمر وتولد فى حضن اسلام اسبانيا ، وهذا يلقى ضوء جديدا على الحروب

الصليبية بل وعلى الفكر المسيحى الوسيط ، وامتداداته المعاصرة فيما يتعلق بالأخذ من منجزات الحضارة الاسلامية أدوات ايجابية لتدعيم حضارة أخرى ناشئة فى مواجهتها مع الحضارة الاسلامية نفسها ، وعمومنا هذه هى مقولات الكاتب فيما يتعلق بالحضارة الاسبانية والاسلامية خاصة فلو صح تعميمها على الحضارة الأوربية لصح أكثر انطباقها على اسبانيا فى صراعها مع الاسلام • ويكون ذلك اختبارا دقيقا لنظريات كاسترو •

القضية الثانية

أن التسامح المسيحى مع المسلمين واليهود ـ كما بدا فى سلوك **الفونسو العالم** (٢) ـ مؤسس على القرآن فقد نظر ذلك الملك الى المسلمين واليهود كمنافسين سياسيين ينبغى الانتصار عليهم سياسيا وليس كأعداء ينبغى التخلص منهم وأن هذا التسامح استمر طالما رأى المسيحيون فى المسلمين مثلا يحتذى حضاريا ، وعند نضج المسيحيين بفضل المحاكاة والرغبة فى التفوق زال التسامح ، وحاولت عقيدة المسيحيين القيام على انقاض عقيدة المسلمين ، كما قامت بعد ذلك فى اسبانيا العقائد المسيحية على انقاض بعضها : والمثال عقيدة سانتا تريزا تحل محل عقيدة شانت ياقب كسكرتارية سماوية لتنفيذ مطالب اسبانيا عند السماء • وخطورة هذا الأمر أن التسامح فى فترات التعايش الاسبانى المسلمى يدفعنا الى النظر الى روح الاسلام فيه كما أن حروب اسبانيا الأهلية وخلافاتها يدفعنا الى النظر الى نمط الحروب الاسبانية ضد الاسلام واليهودية •

---

(٢) يحمل هذا اللقب بسبب عكوفه على العلم وتشجيعه لأعمال الترجمة من العربية والعبرية الى القشتالية ويحمل لقب الفونسو العاشر لقشتالة وليون • وقد حكم فى الفترة من ١٢٥٢ الى ١٢٨٤م •

وهذا مايشير اليه الكاتب فعلا فى تفسيره للحـــــرب الأهلية المعاصرة (٣٦ ـ ٣٩) واعتبارها حربا بين عقيدتين ٠ وهذا التفسير يكمن فى تصور الكاتب لحلم عالمى غامض عند كل اسبانى فى ممارسته للتدين ، وهو حلم مستحيل ، هذا الحلم يتناقض مع فكرة التعصب للكنيسة الاســـــبانية ، والدفاع عنها ، ومع ذلك فهذا الاسبانى لايرى حلمه الغامض يتحقق الا اذا تعرضت الكنيسة للخطر ، فيهب للدفاع عنها حتى الموت دفاعا عن حلمه ٠ ولذلك عندما يلتقى هذا الحلم مع عقيدة أخرى تحققه بشكل غامض يهب لفرض هذه العقيدة الجديدة بدفع أجنبى ، وخلف سلطة الحكومة التى تعــادل الكنيسة أحيانا ، اذا توجـــه نحوها الاعتقــاد ، فيشــعر الاسبان الآخرون بالخطر على الكنيسة وعلى حلمهم العالمى (بدفع أجنبى أيضا) ، فتدور الحرب الأهلية بين من يرى حلمه يتحقق فى الدفاع عن الكنيسة وبين من يرى حلمــــه يتحقق فى فرض العقيدة الجديدة على يد الحكومة ، وبعــد سنوات من الصراع تنتهى عام ١٩٣٩ تنتصر الكنيسة ولكن بدماء ومذابح لاتشبهها فى القسوة الا دماء ومذابح الحــرب المقدسة ضد المسلمين ٠

وهكذا نرى صيغ الحياة الاسبانية تحتــذى النموذج الاسلامى وتنهض فى مواجهته حربا وســلما ٠ وأن الحياة الروحية الاسبانية ليست بمنأى عن الاسلام فى نســيجها الذى يمكن متابعته فى ثلاثيته : اســـلام ـ مســـيحية ـ يهودية ، فى صيغ فريدة كما ستعرض السطور الآتية ٠

الفصل السادس

الأدب وصـــيغة للحياة :

« الاسلام والحياة الجوانية للمسيحى الاسبانى »

فيما سبق ـ وحتى الآن ـ نرى كلمات ذات أصل عربى، واستعمالات ، وعقائد ومؤسسات تلتصق بالاسلام بشكل مباشر أو غير مباشر · وجاء دور جوانية الاسبانى ، فممـــا لاشك فيه أن الصيغ البرانية التى رأيناها ستنمى اتجاهات حميمة جوانية عند الاسبانى تتفق مع الصيغ الاســـلامية للتجربة الحميمة · لقد عاش الاسبان قرونا طويلة متخذين أفق الاسلام كحدود لعالمهم الأخلاقى لان الاســلام تــــرك تماما التدخل فى حركات الضمير الانسانى ، وهذه الميزة ـ عاجلا أو آجلا ـ تغرق فى اللاوعى العميق حتى أننا نفقد أى اشارة خارجية قد تنم عن أصولها الاســــــلامية · مثل هذه الظاهرة يناسبها مايطلق عليه الطبيعيون « الشكل المستعار Seudomorfosis ولعل الاستعانة بهذا المصـطلح الذى يفيد تقمص المعادن لأشكال بعضها ليس الا من أجـــل فهمى ـ فهم الكاتب ـ انا للأمر لان الكائن الانعانى جـــد مختلف عن أى معدن متبلر ·

ان الشخص الحميم (الجوانى) يعمل فى حشـــــاياه أو فيه من الداخل اشارات وتلميحات كما يصنع الجســـم *الطبيعى* ، ولذا يقال أحيانا عن أحد *الناس* : *ان النفس* فيه تتجول فى البدن · والنفس والروح يضـــربان عن العمل

أحيانا كما يعملان أحيانا أخرى ، وهما فى كلا الحالتين يحتفظان بعلاقات فيما بينهما منسقة أو متضاربة ، وذلك باتفاق مع الجسم أو على الرغم من تمرده . ولقد سئل الكونت دى كابرا عندما لوحظ أنه يرتعد : « كيف يرتعد رجل مثلك ذو شجاعة فائقة» .فقال:«ان اللحم المتاخم لحدود القلب يمتلىء رعبا مما سيوقعه فيهالقلب » . وقد قال شيئا شبيها بذلك الأمير دى كونديه – فى وقت لاحق – بل تبرز عبارة مثيلة فى كل لحظة تجسم نفس الظاهرة (١) . ان الحكيم المطلق أو فيلسوف الأخلاق الجامد هو الذى يستطيع أن ينغلق داخل الروح دون أن يأبه لقتال رغبات النفس أو البدن ان المشكلة صعبة ، ولكن الذى يعنينا أنه فى مقابل من يستطيع أن يرغب فى الانغلاق داخل الروح يوجد من لايعزل « الأنا الروحى » عن جوار النفس والبدن .

ان الهدف من فعل التفكير هو الحصول على حقائق تصير ملكا عاما لمن يعرفها ، مثل ملكيتها الخاصة لمن فكرها أول مرة ، لأن العلل عامة ، وفوق فردية ولاتستدعى من صاغها وبدنه الى المعرفة . ومن وجهة نظر أخرى ، ان من يقبل الحقيقة وما فيها من واقع يعترف بوجود شىء ما فى حياته لا يقبل تدخلا . وهكذا فان المفكر الذى يتموضع فى التفكير يفقد شيئا ما حميما ، أى أن الاعتراف بوجود شىء موضوعى هو افتراض يطرح تدخل ذلك الشىء الذى ينتمى الينا كوجود لشىء آخر غير موضوعى أى حميم (ذاتى) . وتوجد شعوب ترى أن الحل لمشاكلها هو التعبير العاجل عن مشاركتها النفسية فى العالم المحيط ، وهذا خير من الانعزال

---

(١) تشبه هذه العبارة قول قطرى ابن الفجاءة مخاطبا نفسه :

اقول لها وقد طارت شعاعا   من الأبطال ويحك لن تراعى

لتأمل مصاعب ومشكلات يخلقها ذلك العالم نفسه ، اذ لـن تكون تلك التأملات سوى وقائع لاتكشف عن شىء من روح من يتأمل أو يتلقى تلك الوقائع • وبالنسبة للاسبانى لـم تكن لتعنيه هذه الأنشـطة العقلية بقـدر ماهو بعيد عن العقلانية فى سلوكه منذ القرون الوسطى ، انه اذا فكـر لا يستغنى عن الروح والجسم معا فى أداء التفكير • أى أن التفكير يتكامل مع الاطار الكلى للحياة فيبقى بعد ذلك فراغ محدود للتنظير • ومن هنا يندر وجود علماء وفلاسفة اسبان بفكر له أصالة كاملة • ولنذكر أن فكرة الخلود عند **ميخيل أونامونو** تستدعى خلود بدنة شخصيا وربما خلود ملابسه التى تغطى ذلك البدن (٢) • وفى مواجهة المطلق ، والتوصل البارد للتفكير يفضل الاسبانى التعبير الدافىء عن نفسه الفردية ، ومن أجل هذا يحب التلميح والاستعارة ممتزجين بحساسـية فيما يعبر عنه • واذا كانت التلميحة والموقف فيهما قيمة خاصة عند الرجل الاسبانى فلأن ذلك راجـع لأن حياته تتشكل فى الاقتراب من الروح أكثر من الابتعاد عنها : هذا الشعب لم يكن لديه مشكلة عقلانية •

وينطبق هذا الأمر على مشكلة وجود الله ،وعلى العكس تم تعقيل كل مايشير الى كيفية التعبير وتمثيل الوجـود عند كل فرد • وأنتونيو بيريز ينقل الينا عبارة ممتـازة عن دوق « ألبا » الكبير حول الوضع الواجب على الرجـال فى الأماكن العامة : ان ارتداء القبعة عند الخروج الى الاماكن العامة ليس الا اعلانا عن توافق العواطف وتغطيتها كما أن

---

(٢) نظير ذلك فى الاسلام كثير ونكتفى بطرح بعض الأمثلة :
(أ) أن كثير من علماء الدين يرى أن الحشر بالبدن والروح •
(ب) أن الرأى يستقر على أن اسراء الرسول كان بالبدن والروح •
(جـ) أن طهارة البدن رمز لطهارة الروح بل أيضا طهارة الملابس •

خلع القبعة عند دخول البيت ليس الا لأن الشخص فى حياته الخاصة يتمدد ويتعرى » وسواء كانت العواطف بسيطة أو مكثفة فانها فى حالة حضور دائم وبها يشاد هيكل الحيـاة النابضة الكلى ومع ذلك لنحاول أن نخترق الكون الحميـم لهذه الصيغة من الوجود • فى قصيدة السيد نسمع :

Amaneciò Q Mio Cid en tierras de Mon Preal.

مايعنينا هو هذا الاستخدام المبكر للفعل Amanecer « أصبح السيد •••• » ، ولنا أن نتساءل بدهشة كيف يمكن لشخص أن يصبح أى يشارك بطريقة مافى ظاهرة طبيعيـة غريبة عنه تحدث خارجة مستقلة عنه • لاتوجد فى اللاتينية ولا فى اللغات الرومانثية الأخـــرى امكانية هذا التركيب اللغوى • والأغرب من ذلك تصريف الفعل « أصبح Amanecer“ تصريفا شخصيا مطلقا مع جميع الضمائر حتى أننا نقول : (« أصبح Amanezco“ أو « هل أصبحت ؟ Has amanecidoya“ ••• الخ) ونفس الشىء يحدث مع أمسى Anochecer وتوجد الظاهرة فى البرتغالية أيضا كوجودها فى الاسبانية

اننا ندين الى Ait Lomoua باكتشـــاف مثل هذا الاستعمال اللغوى الراجع الى العربية • ان أصبح وامسى فى الاستعمال العربى لهما قد طعما اللهجـات الرومانيـة بصيغ لاتينية،وحياة عربية تطويها تلك الصيغ اللاتينية،لكن لتفسير تاريخنا الاسـبانى نفترض أن التطعيـم العــربى لاينتج تعبيرات موضوعية مثل hidalgo فحســب بل ينتج تعبيرات تدور حول التجربة الجوانيه نفسها ، وحول صيغ السلوك الداخلى عند التعبير عن واقع موضـــو ى • فانه بدلا من الاكتفاء بادراك الظاهرة الطبيعية ، تقوم روح الانسان بتحويل « **المدرك** » الى **ابداع ذاتى** ، أى الى شىء يجرى فى الداخل ، وليس فقط فى الخارج ، فقولنا « أمسيت

"Anochecí" ، تعنى صيرورة المساء بداخلى ، وصيرورتى أنا داخل المساء (٣) ٠ ان العربى ـ كما يقول أسقف ميتا ـ يمر بسهولة مطلقة من تصور جوانى الى تصور برانى ، وبنفس الطريقة ينزلق من الذاتى الى الموضوعى ، وبالعكس، فكلا وجهى الواقع يتقلبان فى اهابه ٠ وهكذا فالصباح والمساء يشكلان وجودا موضوعيا ، وأيضا ما أعيشه منهما وفيهما ٠ ان الواقع الموضوعى ، والمعاش ، يتقاطعان فى أرابيسك لانهائى خلال تجربة عاطفية وحسية ، لاتكون أبدا عقلانية وحاسمة ٠ ان الواقع تدب فيه الروح ، كما أن الانسان لايخلع عنه تماما ماهيته كما هى ، حيث لايعزل ولايفرق بمفاهيم مجردة غير مشخصة ٠ فالاصباح فى هذا الاطار ظاهرة موضوعية ذاتية تنحدر اليه عواطفى وأحساسى (أصبح سعيدا أو متألما ٠٠ الخ) فى تجربة لى أن أطلق عليها « فلكية » ٠ ان هذا الاجراء اللغوى بدلالاته ، يعنى أن الحياة النفسية للمسيحى الاسبانى قد نبتت فى الاهاب الاسلامى مرارا كما حاكت الاستخدامات والعادات الخارجية (تقبيل اليد ـ غسل الموتى ـ الجلوس على الأرض ٠٠ الخ) ٠

وهكذا يمضى الكاتب متحدثا فى معالجة قضايا لغوية تجسم هذا المظهر الاسلامى المتراوح بين ماهو موضوعى وبين ماهو ذاتى ٠ ثم ينتقل الى الفن والأدب لنجد نفس الظاهرة٠ وكما أن الفن والآداب ليسا الا وجهين لهما أهمية بالغة لصيغة حياة اسبانيا أى لتاريخها نفسه ، ذلك التاريخ الذى نسعى

---

(٣) هذا الاستعمال فى اللغة العربية يتسع ليشمل دخول الانسان فى المكان ودخول المكان فيه مثل قولنا : أيمن ، : أى دخل اليمن ٠ وطبقا لهذا التفسير : صار جزءا من اليمن كما صار اليمن جزءا منه ٠

لتشكيله أي لتشكيل بنيته حتى تصير مرئية ، فان ماتراه فى الأدب والفن من روح اسلامية أمر قد تسرب الى الروح الاسبانى .

ويمكن القول - بوقائع متعددة - أن اسبانيا القرون الوسطى كانت « مؤسلمة » ، وفى نفس الوقت مسيحية وأوربية . فالنحت الاسبانى والتصوير كان لهما مسار نفس الخط العربى لأنه لم يوجد لدى المسلمين فنون تشكيلية تشخص الانسان ، كما لم يغب عن اسبانيا قط الوجود الأوربى ، كما لم يغب عن أوربا قط الوجود الاسبانى .

***

ان نظرة الى التفكير الأدبى العربى نراه دينيا أكثر منه دنيويا ، وهذه صفة غالبة على التفكير الاسبانى الأدبى . ان قصة **ابن السماك** (ت ٧٩٩ م) التى يحكيها ابن حزم تنتقل الى رايموندو لوليو . القصة تقول : « قال ابن السماك للرشيد ، وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه . فقال له : ياأمير المؤمنين : فلو منعت هذه الشربة فبكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟ فقال له الرشيد : بملكى كله . قال : ياأمير المؤمنين ، فلو منعت خروجها منك ، بكم كنت ترضى تفتدى من ذلك ؟ قال : بملكى كله . فقال : ياأمير المؤمنين اتغتبط بملك لايساوى بولة ولا شربة ماء ؟ وصدق ابن السماك رحمه الله . » (٤) وكما نرى تنتهى القصة بتعليق

---

(٤) ابن حزم ، رسائل ابن حزم الاندلسى (تحقيق احسان عباس) ، مكتبة الخانجى بمصر والمثنى ببغداد ، القاهرة (بدون تاريخ) ص ١٥٤ .

لابن حزم يؤمن فيه على قول ابن السماك . والذى يعنينا من سوق هذه القصة هو فكرة القفزة من اللامادى السامى الى المادى القذر . ان هذه القفزة دائمة الوجود فى الأدب الاسبانى . وذلك الوجود لايمكن تفسيره شأنه شأن الظواهر اللغوية الا بالتراث الاسلامى . فالحكاية السابقة يلجأ اليها « لوليو » ولكن مخففا لها كثيرا : « بينما كان الامبراطور يأكل سأله بلا نكيرنا عما اذا كان يجد لذة أكبر فى الخبز الذى يأكل أو فى امبراطوريته . أجاب الامبراطور: أنه فى ذلك المكان (وكان غابة) يرى الخبز الذى يأكله قد فاق كل امبراطوريته . ويعلق بلا نكيرا : كم هو تافه قدر الامبراطورية ، تلك التى لاتلذ لسيده مثلما يلذ له الخبز الذى يأكل » (٥) .

فى هذه النسخة المعدلة تنعم النكتة وترق . ومما يشوق أن نلاحظ كيف ترشح المادة العربية ، وتنقى ، عند اختراقها المنطقة المسيحية وليس هذا لأن لوليو كان أخلاقيا مسيحيا بل لأن المحاولات فى العصر الوسيط كانت قوية لمحاكاة المسلم ومجافاته معا . وتتم هذه المجافاة ، وتلك المحاكاة فى صيغ كثيرة من حياته الحضارية . لقد صدر حكم عام على هذه الصيغ بأنها ضارة أو آثمة . ومع ذلك فلم يفت المسيحى معرفة تراث العرب الشفاهى والمكتوب كما يبدو جليا من المحاكاة السابقة ، وبكثير من أمثالها التى يمكن تكديسها . ان سرفانتس لم يعان أى شك فى جعل دون كيخوته يمارس فى تكامل لذاته الجسمية مع نبالة الفارس ، هذا بعد أن راح المسلمون بزمن بعيد .

---

(٥) قام المؤلف بترجمة هذا النص الى الاسبانية من النشرة القطلانية لعمل لوليو .

Evast y Blanquera, Barcelona, 1935, pag. 238.

هكذا يبدو التراوح بين اعلاء الروح تارة ، والمزج بينها وبين البدن تارة أخرى ، وقد أطل من ورائه الاسلام ٠ ان شعوبا تحقق لغتها هذا الاضطراب يصعب على أهلها التنظير أخيرا فان حياة الناس وسمة حضارتهم أمران لاينفصلان عن القيمة الوظيفية لكل عنصر من العناصر الجذرية الثلاثة للكائن الآدمى : الروح ، النفس ، الجسم ٠

معالم الملحمة الأسبانية

مما يضللنا كثيرا فى مواجهة تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية خلال العصر الوسيط أن تاريخها يتقاطع فيه طريقتان للسلوك مع العالم الخارجى والداخلى ، ثم مع العالم الاسلامى والمسيحى الأوربى ٠

فى قشتالة أكثر من أى اقليم آخر ـ تعمر مؤسسات جرمانية أدخلها القوط الغربيون مثل الرهونات والثأر فى الحياة الخاصة ٠ وتتوافق الأحكام فى هذه الحالات مع اسكندنافيا ٠ ويبدو أن قشتالة ابتداء من القرن العاشر كانت تحاول تنظيم شئونها آخذة أساسا لها القوى الاجتماعية الأكثر ديمقراطية وعلمانية من القوى الليونية والجليقية ٠ وقد عرفنا أن هذه المناطق التى افتتحت حرب الاسترداد وجدت عظيمة تأوى اليها : لمعان بابوى ، وامبراطورى أجبر ملوك شبه الجزيرة الآخرين على تقديم الاجلال للملكية الجليقية ـ الليونية ٠ وفى القرن الثامن كان الشمال الشرقى من أسبانيا امتدادا فرنسيا يطلق عليه العرب والأسبان فى آن : « الفرنجة » لا « القطلونيين » فلم يكن هذا القسم مربوطا الى بقية شبه الجزيرة ٠

ومن ثم تنبثق قشتالة بين الطرفين القصيين فى الشمالين الشرقى والغربى القائمين على النفوذ الفرنسى ، أو الامبراطورى ـ البابوى (شانت ياقب) • وقشتاله فى انبثاقها اعتمدت على نفسها دون انكار لشانت ياقب ، ودون اتصال بالخارج عبر « نافارا » أو الطريق الفرنسى لشانت ياقب •

وتنضج اللغة الاسبانية فى قشتالة قبل غيرها للحزم فى اختيار صيغة واحدة للنطق والكتابة ، ولعل قشتالة ملكت لغتها القشتالية (أصل الاسبانية الحالية) قبل أن يكون لها أدب • وحول هذه الخصوصية القشتالية سيتكىء مستقبل شبه الجزيرة • ولاندرى الحوافز المبكرة لهذه الخصوصية سوى أن تاريخ قشتالة بين القرن الثامن والعاشر يبدو ضبابيا ، لكن كانت همومه دنيوية مخالفة لعقائد الشمال شرقه وغربه • فى الشمال الغربى قوت الاحتياجات الدفاعية تلك العقائد الفوق أرضية الوفيرة بينما كان الانسان فى قشتالة حيويا وعسكريا ، وانقلب فى حد ذاته الى هدف يراد • ولكن تقييم صفاته الشخصية يجد نفس الاتكاء على النموذج المسلم ، والاتجاه الى تقييم الهالة السحرية السماوية اينما وجدت • والرجل المسلم فى نفس الوقت عاش داخل وخارج حقل التجربة الانسانية ، وان عرف التكامل بين الداخل والخارج فى صيغته الخاصة للحياة • نفهم من ذلك أن الاسبان المسيحيين فى القرن ٨ ـ ١٠ ، كانوا ما كانوا ، الا أنهم يتوسعون فى الأفق المواجه لهم كلما أجبرهم هذا الافق على « كينونتهم » • كذلك تظهر لنا دراسة « مننندث بيدال » عن أصل القشتالية أن هذه اللغة قد تبنت فى نطقها صيغا فاسكية مما يؤكد تحرك قشتالة ملتصقة بالفاسك •

والملمح الأكثر أهمية فى قشتالة القرن العاشر هو بروز دور كفاءة الفرد كمستودع للقيم الاجتماعية · وقد كانت تقوم بنية هذه القيم على السلوك العلمانى ، وعلى قدرة الفرد فى أن يصير مرشدا ومثلا للآخرين · لقد كانت قشتالة خصبة بالزعماء وليس بالأساقفة والبابوات والاباطرة المفوضين من السماء · الاهتمام - اذن - ركز على الفرد كفرد أكثر من هالته الاعجازية ، وبذا ينبثق أسلوب حضارى لايشرحه - بتلك البساطة - الشجاعة التى لاتقهر للبشكنس البدائى والقبلى · ولايكفى لتفسيره تلك الطبقة التحتية الوجود من القوط الغربيين بما حملوها من ثنائية جرمانية ايبيرية تربط الملحمة الاسبانية بالجرمانية ان الملحمة القشتالية تختلف فى جوهرها عن الجرمانية بل والفرنسية اللتين خلتا من تداخل الاعتقاد فى الاسطورة الملحمية مع التجربة المعاشة · ان تأريخ الملحمة القشتالية الحائز ظاهرة فريدة : وعبقرية مثل هذا العمل تصبح متاحة لنا اذا وضعنا نصب أعيننا البانوراما الاسلامية القشتالية أى اعادة التقييم لكل مايمس التجربة الخاصة - الحدث العاجل ، الفرد الذى يحققها ، مظهره الفيزيقى ، ذاتيته الخلقية · وبنفس الاسلوب الذى أقحم به الجليقى عقيدته عن « شانت ياقب » شعر القشتالى بميله الى تقييم السمات الفردية مستوحيا صورا مثل صور المنصور ، أو الخلفاء العظام فى مستواه · وليس ذلك الا لانعدام النماذج القشتالية ، وانفصام قشتالة عن النماذج الأوربية · وتثبت المصادر العربية (ابن حيان) تجسد المثل الاسلامية فى شخص بعض « الملوك القشتال - نافاريين »· وفى ظل اعلاء الفرد لكفاءته يتميز الرجال ، ويتحرك الناس من حولهم اعتقادا فى مواهبهم الخارقة ، وثقة فى ثمار هذا الاعتقاد ·

وفى ظل الملاحم العسكرية تنشأ الملحمة الاسبانية · أيضا نجد أن اسبانيا لم تكتف بالوجه الجوانى للدين ، وانما فى التشير به ملحميا · ان التفكير المجرد اختفى من حياة القشتاليين ، واتجه التفكير الى تقييم الفرد ، ومواهبه ، ودوره الاجتماعى والدينى ·

والمقارنة بين قشتالة وأوربا تبرز هذه الفكرة ، القشتاليون ليس لديهم أى مظاهر فكرية ناقدة للبناء المثالى للعصر الوسيط · ولم يوجد كذلك أى وعى ببناء امبراطورية أرضية قادرة على مواجهة السلطة الروحية لروما · حدث ذلك فى جليقية ولكن بتواضع ، وبانطلاق عقيدة بابوية ، لاسلطة امبراطورية · وعموما فان قشتالة ابتعدت عن العقيدة الشانت ياقبية ، واقتربت من فرنسا فى أهدافها الأرضية ، بالاتكاء على زعامات فردية ، بارزة ، تصدر عنها موجات العنف والتمرد والمهابة مثل **فرنان جونثالث** ، **سانشو جارسيا** وكثير من أمثالهما · ان هؤلاء القشتاليين لم تكفهم الصيغ الرومانية ـ الأوربية فانطلقوا فى مجالهم الحيوى يتطلعون الى حدودهم مستخدمين لغة كلامهم كأداة للتعبير دون اللاتينية فى وسط توتر وخيال ملحمى · وفى القرن الحادى عشر تتحدد لغة التعبير لتصير شيئا مخالفا للغة الكلام غير بعيدة عنها الا بتحددها المذكور ، ولتصير بعيدة ـ أيضا ـ عن اللغة اللاتينية المكتوبة بفضل جرأة بعض الرجال وتصميمهم ، وبفضل ظهور الحس الوطنى فى ظل جو ملحمى ·

أغنية رولان وأغنية السيد :

ان أغنية رولان كتبت بميزان عروضى منضبط وموحد ، وحفلت بالصور الجميلة البراقة لتزين للناس الحج الى

« شانت ياقب » • انها أغنية كتبها الرهبان لتثير اعجاب الشعب ولتعلي من شأن الملك والنبلاء ، بينما أغنية السيد لايكاد ينتظم بها عروض ، بل ليس لها ميزان عروضي ، انما تسير في سطور غير منتظمة لأنها كتبت من وجهة نظر الشعب • وان تكلم الشعب في أغنية رولان - التي كتبت في القرن ١٢ قبل أغنية السيد بثلاثين عاما - فهو يتكلم غير كلامه ، وفي أمور بعيدة بعدا أزليا عن حياته الفقيرة ، حياة كل يوم • ان الأغنية الرولانية تبرز معيارا لنظام فوقي يربط العالم المنظور بالمعيني• ان الأحداث تجري في هدوء رمزي يدعو للتأمل لا الانفعال بالحدث بجانب تنميط الأشخاص وعدم ملحميتهم • ان الأغنية الفرنسية عرض مقدس ووقور أكثر منه حكاية • واذا كان هدف الاغنية التأمل فان المشاهد البصرية تصبح هي الماسة بجانب المشاهد السمعية •ولقد تحدثت الاغنية عن المسلمين حديث الجاهل بهم لعدم معايشة فرنسا لهم ، ولذا يفضل الشاعر بين عالم تجربته الراهنة ، وبين عالم الشعر الذي يطفو فوقه الخيال• ان بناء الأغنية محكم وساحر الجمال وذو أغراض عملية تهدف التأثير في الشعب •

الحديث في أغنية السيد :

ان الدراسة الدلالية للأغنية تدفعنا الى اللجوء الى معجم عربي حتى نفهم • ان استعمالات الفعل « حدث » في العربية ومشتقاته (يذكرها الكاتب بالتفصيل) تفسر كلمة nuevas في الأغنية ، انها تعني حكايات وأحداث تجري للسيد • ان هذا الاستعمال كان موضع اعتبار المستعرب المجهول الذي وضع الأغنية • ان الحادث nuevas يدل على الذي يبدأ في الكينونة ، ماهو جديد ، مايخلق أو

مايتجه لأن يخلق ،ماينبثق الى الوجود فى اتجاه يشد الى الوراء والى الأمام وصوب الداخل وصوب الخارج ، ثم يوالى الوجود فى كلمة من يقص · تتلاشى الحدود بين الحدث الخالق والمخلوق ، وبين الزمن الحادث لمن يتخلق وبين الزمن الهادىء للمخلوق ، وكل هذا الزمن يوالى الوجود نحو مستقبل غير محدد فى اضطراب القص · ان معانى الكلمة nuevas فى القرنين ١٢ ، ١٣ يساعد على ادراك السلوك الوجودى للحياة العربية ، انغلاق وانفتاح فى لانهائية ، لوحة أرابيسكو · ان ماسبق يعد خلفية تاريخية للكلمة novela ويجعل من فن الحكاية فى أوربا فنا شرقيا عندما ترجمت الى اللاتينية أول مجموعة قصصية شرقية بين القرنين ١١ ، ١٢ على يد اليهودى الأسبانى « بدرو الفونسو »· ويبدو هذا الطابع الشرقى فى تعريب أسم بطل الأغنية Miocid أى « سيدى » العربية · ان البيئة الشرقية تتجسد فى أغنية السيد كما تجسدت فى 'amanecer ، anochecer وغيرها · وتتأسس الأغنية ليس بعيدا عن المستمع ، ولا عن أشخاصها الذين نراهم مجسمين بكل صور حياتهم وتظهر الأسطورة عن قرب كما نرى الأشخاص من الخارج والداخل بعكس أغنية رولان حيث تبتعد ملامح الأسطورة ويرسم الاشخاص من الخارج بقصد اثارة التأمل عند الشعب بينما فى السيد تختلط اللغة بالتجربة الحية للقاص ، كما أن الموضوع الملحمى يعاصر الحياة الراهنة للفنان القصاص ومستمعيه · ويتطور شخص السيد الى دون كيخوته فى الطور الثانى من حياته ·

أن أحداث أغنية السيد تثير الاحترام ولكنها لاتتقدم معجزات متعايشة :

الأســـد عندمـــا رأه اســـتحى
وبين يـــدى السيد أهـــدى رأســـه وملك وجهـــه
أما « السيد دون رودريجو » فقد أمســك برقبته
وحمله مروضـــا ووضعـــة فى الشـــبكة (★)

ان الشخصية تمارس البطولة حتى أن الأسد يخضـع لها باحترام بينما مسرح الأحداث يغص بالجمهور الذى يحيط بالراوى · ان هذه الشخصية المنصبة بطلا يتخلص البطل فيها من هالتة الأسطورية لأنه يشعر بالجوع كأى شخص من لحم ودم ، بل ويعد له الطعام :

وقد تبل الطعام اللذيذ للسيد !

ان العمل الشعرى عبارة عن أخبار محكية ، وشكلهـــا التعبيرى أقرب الى النثر منه الى الشعر · اننا أمـــام عمل شـــعرى يأنف من اســـتخدام القـــوافى والمقـــايس الايقاعية المقيدة للحركة ، انما كل مقاييسه داخلية تتيـــح ادخال واقع غير مألوف بعيد المنال خليل يستحيل علينـــا تحقيقه بصب كلمات حياتنا اليومية الفقيرة · ان كلمـــة قصيدة المستخرجة من أضابير البلاغة لا توافق هذا « الغناء »

★ موتيفة صيد الأسد او قتله هى المدخل لتنصيب البطل فى كل الملاحم العربية ، وتبدو فى مبالغة عند قراءة ملحمة الزير سالم حيث يقتل عددا لا يحصى من الأسود ثارا لحماره ، كما يصل به الامر أن يمتطى الأسد ويخترق به شوارع الحى حاملا على ظهره مياه بئر السباع لشفاء زوجة أخيه كليب · ولاشك فى تأثر ملحمة السيد فى ذلك بالملاحم العربية أعنى بالسير الشعبية العربية ـ وهذا أمر لم يتنبه له كاسترو لعدم معرفته بالسير الشعبية العربية · ويجدر هنا الأشارة الى ان السيد فى الملحمة كان شغوفا بسماع سير البطولة للعربية ·

الشامل لحواديت nuevas ، لاتدخل فى اطار تاريخ الأدب المحدد الأجناس • انها عبارة عن جنس أدبى فلكى يختلط فيه السمو الشعرى بالتجربة المعاشة فعليا من القارىء أو المستمع ، ولا تقارن بأغنية رولان بحال • ان أغنية « السيد » لا تستجيب لأية قاعدة الا للاحتياجات الداخلية لعالمها القصصى الفنى ★ • ان الجمهور الذى كان يتطلع من النوافذ للسيد ذلك الفارس المنفى كما حدث فى مدينة « برغش » Burgos ، هو نفس الجمهور الذى يستمع الى الأغنية • ان الجمهور المذكور يحب أن يضعوه أقرب مايكون الى بطله ، ولايهمه قط أن يكون ذلك لشىء الا لتأمله من أجل التأمل فحسب ، أو لتخيله من أجل نفس الشىء • ان طفلة ذات تسع سنوات تسلم للسيد رسالة من سكان ضواحى مدينة « برغش » ، هذا فى الأغنية ، وفى نفس الوقت تروح وتغدو طفلات من نفس العمر بين أولئك الذين يستمعون الى انشاد الأغنية ، ولهذا اذا كان حينئذ ينبغى القول بأن الطفلة ذات التسع سنوات عادت الى بيتها بعد ترتيل رسالتها الرقيقة فانه ينبغى أن يعبر عن ذلك بكلمات عادية ودون تنغيم مقاطع كلمات القص ، ودون اعراب أو وقفات ايقاعية أو قواف ، لأن عودة الطفلات الى بيوتهن كان حدثا أساسيا لايقبل أى نوع من الخداع أو التحذلق على الاطلاق • ان لغة الحدث لابد أن توافق واقعه ، واذا

★ كل هذا الكلام يكاد ينطبق بحذافيره على السير الشعبية العربية فهى يتبادل الشعر فيها مع النثر كما أن نثرها أقرب الى الشعر وشعرها أقرب الى النثر • انها جنس أدبى متميز • ولذلك يعترض أميريكو كاسترو على اطلاق لفظ قصيدة على ملحمة « السيد » وهو اللفظ الذى لم يرد قط فى وصف السير الشعبية العربية حتى لو وردت شعرا كما فى بعض روايات الزير سالم • ومن المفيد هنا فى تأكيد العلاقة بين السيد والملاحم العربى أن السيد فى الملحمة كان معجبا ببطولة « ابن ابى صفرة » العربى، وكان يطلب ان تقص عليه حكاية بطولات هذا الفارس العربى •

تكثر الأصوات وتتعدد فى الأغنية ليس لخلل عروضى ، وانما لانتظام عروضى خاص جدا بأحداث السيد · أن عبقرية التعبير تاسبت توترا تعبيريا مهولا ليس من الدقة تسميته خللا عروضيا ·

هكذا سيفهم ــ دفعة واحدة ــ طبقا لما سبق ، أن الملحمة القشتالية تاريخية يقترب موضوعها من الحدث الحقيقى نفس الشىء الذى رأيناه فى الشعر ينحل الى نثر ، وفى الأسطورة الماورائية تتخللها التجربة الملموسة المعاشة عند كل ابناء الأرض المنتجة للأسطوره ·

ان الملحمة ينبغى أن تكون تاريخية بمعنى ألا تتجاوز الأفق الراهن للمستمعين حتى يتعايش الحافز الذى يقف وراء الملحمة مع ماتوحى به ·

هذا بينما نرى الأغنية الفرنسية قد تم تصميمها للمستمعين من قمم المؤسسات الملكية ، وعبر اهتمامات الأديرة ، محلقة بعيدة عن المجال الأساسى للحياة · بينما فى اسبانيا الصيغ الفوقية ظلت على اتصال بالمنبع الجمعى الذى نبتت منه · ان صورة الاسبانى الذى يحول الصباح والمساء الى حدثين ذاتيين مازجا الموضوعى بالذاتى حددت صورة البطل والأحداث حيث تطول الأغنية كلما ارتبطت أحداثها بالراوى أو بالمستمع ، أما قصة السيد نفسها فانها تنتهى بعد الأبيات المائة الأولى بقليل ، أى أن الاسبانى يفعل مع الملحمة كما يفعلمع زعمائه حيث يطوعهم كموضوعات لذاتيته ، ولذا فانه يصنع الأبطال ويحطمهم · ان ملحمة السيد تخلق جوا شرقيا ، ولكنها ليست عربية وليس لها نماذج عربية · انها شىء اسبانى خالص تأثير بالاسلوب الملحمى الفرنسى الجرمانى،

حيث نجد بها كثيرا من الكلمات الفرنسية ولكن ترنيـــــم الرواى وحماسه العاطفى وتجسيمه للبطل والأحـــداث هو نفس الأمر الذى جعل من الملحمة تاريخا فى ملحمـــة ، وذلك لأن الجمهور الذى استمع اليها أراد منها واقعا يعيشه بالفعل ويرويه بالفن ٠

ويهذه الطريقة يتخلق جنس أدبى غريب تتشابك فيه النغمة الشعرية بالنبرة الشعبية ، فالبطل يرى فى بطولته وفى ذاتيته المنافية للبطولة حتى أنه يبدو نصابا محترفـــــا حين يخدع يهوديين وثقا فى كلمة شرف منه ، أو حين يظهر كصاحب طاحونة مثل أى بورجوازى متواضع ، وهذا لاينفى بطولته التى تخضع الأسد وتلمع فى البلاط ٠

والسيد فى هذا الاطار يسب الأمراء الانذال « الكــلاب الخونة » الذين جلدوا بناته فى الغابة وتركوهن وحيــدات حتى يعثر عليهم ابن عم السيد يفترسهن العطش ويطلبــن جرعة ماء ٠

ولقد وجد مننددث بيدال أن السيد كان يملك فعلا بعض الطواحين على نهر أوفييرنا ، كما ورد فى الاغنية ، وبهذ نجد أنفسنا بعيدا عن منطقة الشعر والقص غير الواقعى ، وفى حضــور تصورات ملموسة تعطى اتجاها ورائيـــا للأسطورة الملحمية : قبعة جديدة مشتراه حديثا من بلنسيه ، وشخصية تاريخية تعرض وجهها المضىء بعد«غداء دسم»٠٠بطل يبدو كمالك طواحين كان يملكها فعلا ٠ ان السيد لم يكن الا رجلا هؤلاء استعارية وبعيدة عن الفكرة الوطنية التاريخيـــــة ٠ لامعا كانتتحكى مآثره قبل أن تؤلف ملحمته ٠وهذه الطريقة من الأدب لابعرفها الغرب كما لا يعرفها العـــرب ، لان آداب هؤلاء استعمارية وبعيدة عن الفكرة الوطنية التـــاريخية ٠

فالاشخاص فى الادب العربى تنحل فى الحــدث الروائى ، وتراق فى تعبيرات استعارية أو حكمة أخلاقية ولا تتميز أبدا بهذا النمط التشكيلى المنحوت من الأشخاص الآخرين ، أو من البيئة المحيطة بهم ان الأشخاص والأشياء لا تأخذ وجودهــا المجمل • ان الاحساس بشخصية ما يعنى حضورها لاتدفقها عبر زمن سائب ، ولا انزلاقها فى أرابيسك من زمن لآخر • لايوجد فى الأدب العربى شخوص ولا روائيون ولامسرحيون لأنه لايناسب الاسلام وجود الشخصية المتميزة • حقا ، توجد حكايات عظيمة لحيوات تتدفق وسير ذاتية لامعـــــه ، لكن لا توجد شخصيات لها منظور متميز تتجادل مع شخصيات أخرى مثيلة • وبهذا الفهم يمكــن تمييز ماهو شـــــرقى فى الأغنية وما هو اسبانى ، وماهو أوربى • ان كثيرا من الصيغ عربى ، بل ان المزج بين الهزل والجد عربى أصيل ، أمـــــا تصوير الشخصيات فهو غير عربى لأن العرب تعرف نموذج « علاء الدين » و « على بابا » ، تلك الشخصيات التى تتــوه معالمها فى تحولاتها السحرية • كذلك فان مزج التاريـــــخ بالقص بالواقع الذى يعيشه الرواى والمستمع لا نظير لــه عند العرب والأوربيين على السواء ، فاذا كان الاســـــلوب الأدبى أوربى فان الشخصيات اسبانية فى تصويرهـــــا القصصى •

ان كتبِ الأدب العربى تقـــدم مــادة ثرية ومتنوعـــة ومستحيلة فى الأدب الغربى • ان الأشياء تقــدم كمــــا بالســياسة بالاســطورة بالنكتة فى سيل متدفق لا يفـــرق الا بين تجربة معايشة وتجربة أخرى نظيرة لها ، لابين شىء الا بين تجربة مغاشة وتجربة أخرى نظيرة لها ، لابين شىء مادى وشىء آخر • ان الانسان فى وجوده المأساوى يحــاول أن يفهم ويحل مشاكل هذا الوجود،أو يستسلم للقدر • وقد

اختار العرب الاستسلام للقدر فاهتموا بما هو عملى وتركوا التأمل النظرى الكلى ، ولذا ـ رغم ثرائهم الفلسفى ـ فاننا لانجد فلسفة أصيلة فى نظامها العام ،كذلك فى علمهم درسوا الفلك ليعرفوا الاتجاه نحو مكة لأداء الصلاة ، أو لأغــراض عملية أخرى ، كذلك كل العلوم • أما الاسبان فقد قام بداخلهم صراع بين محاولة فهم الوجود والأسلوب الذى اختـــاره العرب من استسلام للقدر ولم يكن بمكنتهم الاختيـــار لأن الأسلوب الثانى كان ينفتح أمامهم فيسعون فيه مجبريـن أمام تعايشهم مع العرب ، والاسلوب الاول لــم يستطيعوا التخلى عنه لانتمائهم للغرب ، وفى ظل هذا الصراع الحـى يهربون من الشلل التام الذى كان يمكن أن يغرقهم فيـــه الاسلام وأن يبدعوا روائع الفن والأدب للعالم ولكنهـم فى النهاية ظلوا كالعرب منغمسين فى العالم دون رؤيته فلـم ينجبوا ـ حتى الآن ـ فلاسفة وعلماء الا فى قامة ابن حـزم وابن رشد وابن خلدون ، وغيرهـم من العــرب • على أى الأحوال فان قصيدة السيد كانت نتاجا للصراع السابق ، وكما يقول بيلايو اى مننددث : « اننـــا نحن الأســبان قد وصلنا الى النقطة الحاضرة مقلعين من قصيدة السيد » •

بين التراث والحاضر :

ان الذات تتكافل مع الموضوع ، الروحى مع المـادى ، الرفيع مع الهزيل ، الجاد مع الهازل ، البعيد مع القريب ، وعلى قدم المساواة تتدرج الحدود وتتــلاشى بين الماضى والحاضر • وقد سبق أن وضحنا حب الاسبـــانى للأرض وما تعنيه عنده تلك الأرض وهو ما أسـميناه « الشـعيرة الأرضية » ، وصلات هذه الشعيرة بصيغة الحياة الاسلامية• ان المسعودى صاحب مروج الذهب يقول أن الله جعل البلدان

توحى الى سكانها حب الارض التى عليهـا يولدون • وقـد فسر ذلك أبيقراط وجالين وأفلاطون من قبل ، وان كنا لانقبل تفسيرهم كذلك لا نأخذ قول المسعودى على اطلاقـــه الا أن مايعنينا هو أن المسعودى قالذلك ولم يهتم بتفسيره ، وقد قال نفس العبارة موريسكى بعد المسعودى بسبعة قـرون • ان الأرض عندهما ميتافيزيقا أو ماض فى حاضر مـادى ، حيث يلتحم الماضى والحاضر الروحى للتـــاريخ • وبعكس أوربا الغربية. عاشت اسبانيا تحت قبة عقيدة ملتحمة مع أرض تعنى العادة والتراث • ان الحاضر ــ فى اسبانيا ــ وجه ماض حى دائما فى أرشيف العقائد والتراث التاريخى الشعرى • ان الأجناس الأدبية الاســـبانية قد توالدت من بعضها ابتداء من قصيدة السيد ، وظل هناك الملمح القديـم يميز الصورة الحاضرة • واذا كانت الأرض تستقبل منها ماتنتج ماديا فان التراث هو الأرض الروحيـــة التى تنبت مآثر العلماء ومهمة التاريخ هو الاشارة اليها • ان الحيـــاة تعود للماضى بفرض أنه أساس كل علم ، أى أنه الأرض التى تنبت العلم • ان الانسان ليس نقطة انطلاق انمـــا بوابة الوصول •

عند مؤرخ علامة مثل الفونسو العاشر تساوى الاعتقـاد فى الأغانى التى تحكم المآثر مع الاعتقـــاد فى الاخبـــار التاريخية • لم يكن هناك فاصل بين الواقع والشعر عنـد الرواة ، كذلك عند المؤرخين لم يوجد الفاصل بين خبر موثق وأسطورة شعرية • ان المآثر الشعرية والرومانث التى ظهرت بعدها بقليل قد شكلا معا المجرى الأساسى للتراث التاريخى للشعب فى حركته الذاهبة الآيبة بين الجيل والجيل • يرث ــ ذلك ــ الجيل الأول لينقله الى الجيل الذى يليـــه بعد أن

يضيف اليه من عنده اضافات جديدة ، هكذا فى حركة لاتتوقف عبر الاجيال • من ثم فقد شكل التراث والعقيدة معا الأفق الموحد للحياة الاسبانية المفككة المفتقرة الى أى عمد ملموسة تستند اليها • اذن حاضر الاسبانى صاحب تلك الحياة ليس الا مركز تكثيف لمراجع عامة يعيش فيها الماضى فى حركته المستمرة نحو المستقبل • ولهذا فان عودة الاسبانى الدائمة لفرناندو الكاثوليكى ـ عند تقييم كل لحظة حاضرة ـ فى اكبار لهذا الملك يفوق المعقول ـ تعد دليلا على سيطرة الماضى فى رؤيته للحاضر فى ظل عقيدة مسيحية هيمن الاسلام على صيغ حياتها • ان التاريخ والواقع ينقلبان الى سطح حالم ترسم فوقه الارادة وحدات أرابيسك جميلة •

الفصل السابع

التفكير والحساسية الدينية

ليس لدى الاسبان تاريخ مناسب للأفكار والعواطف الدينية فى اسبانيا المسيحية فى العصور الوسطى ولن أحاول الآن أن أملأ هذا الفراغ الشاسع . المهم أن اسبانيا العصور الوسطى لم تملك أداة التعبير . الا أننا سنلاحظ أن قطالونيا وأرجون وامتدادهما « بروفنسا » سيفتحون الطريق للشعر العربى الغزلى والتصوف الاسلامى، بينما لاتعرف قشتالة التصوف والشعر الغزلى الا فى القرن السادس عشر . ان عدم مبالاة قطالونيا واراجون بمعاداة الاسلام فى أول الأمر فتح الباب لدخول اسلاميات يتقبلها الناس بعكس قشتالة . ويظهر رايموندو لوليو الذى يعلن احتذاءه التصوف الاسلامى ويكتب بأسلوب ملىء بالشاعرية كظاهرة فريدة فى العصر الوسيط بينما قشتالة ـ التى ترى فى خطيئة لزريق (١)

---

(١) تحولت خطيئة لزريق الى أقصوصة شعبية اسبانية وردت فى المصادر العربية وملخصها وجود بيت مغلق فى طليطلة كان يضع على بابه كل ملك قفلا جديدا حتى تكاثرت الأقفال فلما ولى لزريق كسر الأقفال وسط رعب عام ، فلم يجد فى البيت الا تابوتا عليه قفل فأمر بفتحه يحسب به كنزا ، فلم يجد الا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب عليهم العمائم .. وفى أعلاها أسطر مكتوبة بالأعجمية ، فقرئت فاذا فيها : اذا كسرت الأقفال عن هذا البيت ، وفتح هذ االتابوت فظهر ما فيه من الصور فان هذه الأمة المصورة ... تدخل الاندلس فتملكها (راجع : نفح الطيب « نشرة احسان عباس » جـ١ ص ٢٥١) كذلك اغتصب لزريق ابنة جوليان صاحب سبتة فوقع فى الدنس ، وجلب جوليان ـ لخطيئة لزريق ـ العرب للثأر (النفح جـ ١ ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ١٣١ ـ ١٣٣ ، ١٥٦) .

سببا فى ضياع اسبانيا وسقوطها فى يد الاسلام - حرمت تسرب الغزل الى شعرها ودلفعت عن نموذج الطهر والعفاف فلم تكن فى ظل انشغالها بحرب الاسترداد الا بيئة تسمح بنشوء الملاحم · ويبدو هذا الاتجاه الاخلاقى الوطنى فى الأعمال التى تمت ترجمتها الى الأسبانية فى عصر ألفونسو العالم ، انها أعمال تعليمية فى الغالب · وعندما يكتب ألفونسو شعرا غنائيا فأنه يكتبه بالجليقية اللغة الأقرب الى الغنائية والمتأثرة بشعر الغزل العربى مباشرة أو باحتذاء من تأثر بهذا الشعر مثل بروفنسا · ان الترجمة تدفع عجلة اللغة القشتالية الى الأمام وتقوى قدرتها التعبيرية ولكن لايظهر التعبير عن النفس غنائيا ولا تبدأ الأنظمة الصوفية الا فى القرن السادس عشر ، ورغم ذلك فقد عبر القشتاليون عن أشياء عاطفية فحسب طوال القرون الوسطى ، سواء كانت هذه العواطف حبا الهيا أو انسانيا لكنهم فضلوا موضوعية الأفكار الأخلاقية فى هذا التعبير ، أو بمعنى آخر : الشعر القصصى وبصفة خاصة الملحمى على أن يكون موضوعه وطنى أو تاريخى · وهذا الاسلوب الملحمى يقدم ملامح فريدة وحتى تفهم ذلك أسميت هذا الأسلوب « الأسلوب الفلكى » لأن التعبير الادبى يدور فى فلكه موضوعات موضوعية (أسطورة - أخلاقيات - رموز ·· الخ)بظاهرة راهنة تجعل الانسان داخلاً عضويا فى نسيج هذه الموضوعيات · وهذا الاسلوب الفلكى للأدب ارهاصة لصيغ أوسع للحياة أو لشىء مشابه جدا لذلك الأسلوب فى الادب الربى فيما يتعلق بنظامه الداخلى · وانه من غير المفيد فى هذه الحالة دراسة الأعمال الأدبية الأسبانية واثبات مصادرها العربية ، ولدينا مثال : لقد أثبت أسين بلاثيوس بما لايدع مجالا للشك أن دانتى استقى مصادر اسلامية بينما ايطاليا لم تخضع للاسلام ولم

تعايشه ، ولم يكن قلذة من بدنهـــا • اذن ينبغى البحث عن أشياء أعمق وأعم وراء فكرة التأثير ، أشياء التقى عندهـــا الانسان فاستقى ظواهرها ، وهكذا يمكن اقامة التاريخ لأننا لانبحث عن تاريخ أفكار ، حيث لو صنعنا ذلك ما كان التاريخ الا ناقصا ومجالا فقط للتشريح والتحنيط •

لقد خدم المسيحى المسلم فأغرته حضارته الاسلامية فى كثير من جوانبها المتفوقة ففكر فى كثير من المحاذير ليواصل حياته فى اتجاه آخر • هذه العناصر الثلاثة : « خدمـــة ـ أغراء ـ محاذير » ينبغى أن توضع على مرمى نظرنـــا ونحن نفحص ظاهرة الحياة فى العصور الوسطى •

فى حقل التجربة الدينية والاخلاقية مضى يلتقى مرارا ويبتعد مرارا أخرى المسيحيون والمسلمون • وقد رأينا من قبل الفونسو العـــالم ينطلق ـ فى تسـامحه ـ من صـيغ قرآنية وأن الزهـــاد المسلمين المحـــاربين انقلبـــوا الى فرسان تحت لواء أنظمة عسـكرية • وقد تـكاملت فيهـــا الحرب والقداسـة على هيئـــة لم يعرفهـا المسـيحيون ، وان كان هـــذا ليس أكثر من هرمونيـــة الروحى مـــع المادى ، والموضوعى مع الوجودى ، هرمونية بين الوقـائع والقيم المضادة ، الشىء الذى لم يعرفه الغرب فى العصور الوسطى ، ولقد حاكى الاسبان ذلك • والآن جاء الدور لنلقى نظرة على بناء التصوف والحياة الروحية الاسبانية العربية، أيضا على الأساس الثيولوجى لهذا البناء •

***

سنمضى فى طريق مقارن يحاول أن يضع الاســلام فى مواجهة المسيحية ، والمسيحية فى مواجهة الاسلام •

ان النظر الى شخصية النبى « محمد » والقرآن معـــا تؤدى الى حقيقة هامة : ان النص القرآنى نص شـــخصى تضمن حياة شخص ، هو النبى ، وفى المسيحية ـ فى اصولها الأولى ـ كان الاب بالنسبة للابن والكلمة مثلما سيكون الله فيما بعد ـ وعند ظهور الاسلام ـ بالنسبة لمحمد وكتـابه ٠ لكن عيسى الانجيلى يشير لما يرى ببصره ولما يسمع بأذنه دون أن يكون لشخصه ذاته قيمة جوهريـــة ، بفـرض أن المسيحية لاترتكز على عدد الأناجيل أو ترتيبها مثلما يرتكز الاسلام على عدد السور والآيات وترتيبهمـــا ذلك الترتيب التوقيفى الذى سمع عن النبى بعد تمام القرآن ، حيث أن القرآن ليس الا وحيا يوحى به الى النبى الذى لا ينطـــق عن الهوى (٢) وطبقا لبعض الثيولجيين المسلمين فمحمـد «صوت الله » قد خط الله فى أزله علاقة بين شخصه ـ شخص النبى ـ وبين القرآن ،علاقة أزلية ،هى نفس العلاقة التى بين المصباح ونوره ٠ ان رسالة عيسى الانجيلى أكثر جوهـرية من شخصه بعكس الحقيقة المحمدية التى هى فوق القرآن ، والتى أطلق عليها العقل الأول « الأعلى » ، هو أول فيض الهى ينطبع فى كل عقول البشر ، من ثم الكتاب من الله ومن محمد وكل شىء يتصل بالألوهية هو نفس الله ، فالدين يشخص ويجرد فى آن ٠ ونفى الله يأتى لكل الاشياء التى حقيقتها فى نفسها لاشىء لأنها لاتقوم بنفسها وانما تقوم بالله ٠ويترتب على ذلك أن التنزل والحضور الالهى فى العـــالم يحســـه

---

(٢) « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وماغوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » (سورة النجم آيات ١ ـ ٤ ٠٠٠ ووصف القرآن بأنه نص شخصى يراد به أنه نص ثابت محفوظ لا يدخله تعديل وأنه يمثل الصورة النهائية التى أخذها المسلمون عن النبى طبقا لما أوحى اليه، وليس مثل الأناجيل فى اختلاف نسخها وعدم صدورها عن المسيح وانمـا عن حوارييه ٠

المحمدى « المسلم » ويتمتع به بطريقة تستحيل على المسيحى الذي يهتم أكثر بسلوك مضاد ، هو الصعود لله خروجا من زوال العالم المحسوس وشقائه : المسيحى دائما يتجول مسحوقا بألم عبرى ، ألم الخطيئة الأولى التى تجاهلها المسلم حيث تم تخليصه منها بايمانه • ان محمدا قد مد قنطرة بين العالم الغيبى والعالم الحاضر ، وقد وسع هذه القنطرة وأسسها الثيولوجيون على عمد نظرية أفلوطينية • ن أشياء هذا العالم لها نظير هناك وراء القنطرة والعكس • ان وصف الجنة ينقل من هذا العالم أنهاره وفواكهه وملذاته فلا فرق جوهرى بين هذا العالم ، والعالم الآخر ، أى بين الحقيقة الملموسة والحقيقة الروحية مما يسمح بينهما بالتبادل والترشيح • كذلك تحمل العقيدة الدينية أسس الوشائج بين وجود الانسان وموضوعية ما يعيشه ، وكلا الأمرين يقومان على وحدة العيش والتعبير •

ماسيق يعنى أن لفظة دين تستجلب للتفكير اجمالى الحياة لأن العقيدة الدينية الاسلامية تحيط بكل شىء ، واللفظة نفسها عند المسيحيين لا تعنى أكثر من مجموعة مؤسسات مدنية وقضائية وسياسية • كما أن الانجيل بلغته اللاتينية ابتعد عن المؤمنين المسيحيين فى مقابل القرآن بلغتة الحية التى هى لغة العرب فى الماضى ولغتهم حتى الآن • فمما لاشك فيه أن القرآن يحد من الحرية ،بمعنى تعلق مشيئة الانسان بمشيئة الله وضرورة أن يطيع الله ورسوله وأولى الأمر • أى أن وجود الله دائم فى حياة الانسان ، مزيلا لارادته بارادة الله ، وبالتالى فالله فى حالة خلق ازلية، حيث أنه خالق كل شىء بما فى ذلك أعمال الانسان • اذن ففعل الله فى هذه اللحظة هو فعله عند الخلق الأول مما يؤدى

الى عدم وجود علل ثوان · من ثم فالطبيعة والانسان لايمكن قبولهما كما هما · فكل ما يوجد يمكن تمثيله بنقطة غير قادرة على الاستمرار بنفسها فى خط يستقيم انما تستطيع ذلك بالدفع الالهى ، فالنقطة أو اللحظة (أ) يمكن أن تتبدل فى (ب) أو العكس ، أى أن الذات يمكن أن تكون موضوعا أو الموضوع ذاتا وفى موقف كهذا يتنازل الانسان عن خلق شىء ذى وجود موضوعى ونهائى لأن الله هو الأوحد الذى يفعل ذلك والانسان ليس له أن يضطلع لمنافسته · والمناسب فقط هو خلق وقائع ذات قطاعات مفتوحة ، وأشكال تبدو كزهرة أو حيوان ـ ولكن بلا حدود تقطع الاحتمالات ـ أو رسومات مفتوحة وغير محدودة فى الأرابيسك أو الاعمدة أيضا التى لانهاية لها تعيد نفسها دوما فى مسجد قرطبة أو الحكاية التى لاتنتهى أبدا فى ألف ليلة وليلة أو تعود دائما لبداياتها كما فى كتاب « الحب الطيب » لهيتا Hita . ·

فكل شىء فى العالم صغر أو كبر له قيمة ، ومن ثم يقوم على الله ويستقبل التنزلات الالهية فى كل نقطة ولحظة من وجوده وينطق الأمر على الانسان يبدأ نشاطا ما ·كل شىء يتضمنه فيض الخلق الالهى المستمر · وكل شىء لحظة عابرة تقفز نحو اللحظة التالية وكل اللحظات زائلة كما هى مشروعية فالوعى الشخصى يتضمن هكذا حياة الأشياء والأشخاص المجاورين · ان الاسلام عالم حسن جوار حيث يعاشر الشحاذ السيد العظيم ، ويتبادل فيه العالم السفلى مع العالم العلوى ·

ان الحجر أو العصفور ـ مثلا ـ لا يعبر عن نفسه بينما يفعل الانسان ، ولذا يحدث عندما يتكلم هذا ـ الانسان ـ

أو يكتب يجد نفسه مع كم مهول من محتويات وعيه ، ومن ثم يضخم بقدر ما يتأثر عن قرب أو عن بعد · فالكتاب العرب في القرن العاشر (مثل السعودى فى مروج الذهب) يحملون عملهم مجرى من الاشياء تحيط بمناطق من العالم بعيدة المتناول فى وقت واحد لأى شخص من القدماء · ويعزى ذلك للاعتقاد فى الاتصال الدائم والحميم للأشياء بالله · ان الوعى الفردى يتضخم بغير قياس ومن ثم يعرش على الحياة من حوله ، انه وعى رحالة دون تمركز ثابت به تعطش يعيش فى حالة تبدل حسبما يمكن أن نرى عند ابن حزم وتلميذه قمص هيتا ·

اذن من المفهوم لماذا يلجأ مفكرو الاسلام ـ عندما يتفكرون ـ الى الأفلوطينية ، فلسفة بث الحياة فى كل شىء ، أو الى ديموقريطس وفلسفته الذرية ، أو الى كل فلسفة فى اليونان أو الشرق تتصاهر مع طريقتهم فى رؤية الحياة · ان القول باحتكاك العرب بالاغريق فى مصر وسوريا هو سبب لجوئهم الى هذه الفلسفة لا يفسر وحدة انجاز بهذه العظمة ★ ·

ان الوعى الانسانى يتكثف كتعويض عن تلك العقبة نفسها ، المتمثلة فى صعوبة احراز أبنية ثابتة وموضوعية ·

★ ان من اهم انجازات كاسترو فى هذا الكتاب فصل العامل الجغرافى فصلا نسبيا فمثلا هنا اللقاء الجغرافى بين العرب واليونان يؤدى الى تقديم ما يمكن أن نسميه « المتاح » ، والمتاح لا يعنى بالضرورة تفسيرا لتبنى أمة له ، فكم من أمم أهدرت ماأتيح لها · فاللقاء الجغرافى يمثل نقطة الصفر بما يقدمه من « المتاح » ولكن تركيبة الانسان ورؤيته للعالم هى التى تحدد اختياره من « المتاح » بجانب كيفية احتواء المختار وتعديله ليناسب احتياجات الانسان ورؤيته · واذا لم يوجد « المتاح » الخارجى فالانسان يخلق من واقعه ما يسد احتياجاته أى أن « المتاح » من الواقع ايضا يسقط العامل الجغرافى فمفسر للتأثر وكيفيته ·

ولهذا مثلا يلجأ الحلاج فيأزمته ،كما يفسر ذلك ماسينيون فى تحديد العلاقة بين العالم والله فكرة الذرة كعضو وحيد وأخير لواقع كل شيء مخلوق والذرات وترتيبها فى خلق جديد فى كل لحظة لتشكيل الأجسام بفعل الله (٣) ٠

اذن الفلسفة والدين يتشابكان فى التصاق وثيق ، فلا تعتمد الفلسفة على معرفة ثقافية ولا فكرة موضوعية ، انما على « ذرة القلب » ٠ هنا ينبغى الاشارة الى وجود فلسفات اسلامية غير ماذكرنا ، وهى فلسفات علامة وأبعد ماتكون عن الدين ، وكذلك أبعد ما تكون عن الشعبية وعن غرض دراسة علاقة الاسلام بالمسيحية الأسبانية ٠ أما الفئات التى تنضوى تحت النظام الفلسفى الذى فصلناه فهى الصوفية والغنائية (الشعر) والسير الذاتية ، وتكامل الوعى مع اجمالى الانسان والظروف المحيطة به والذى يسميه ابن عربى « العيش بكل كينونته » ٠

ان المسيحى الذى لم يتأثر بالاسلام يعيش فى عالم واضح المعالم خلقه الله فى ثبات كما أنه يعتمد على حرية داخلية وفى روح « مروحنة "Espirtuado" لكنيسته التى تفصل بين الحق والباطل وتنظيم العالم فى هيراركية تتدرج من العالم السفلى الى الله محددة القيم المختلفة لكل سلوك انسانى ٠ أما المسلم فانه ـ على العكس من المسيحى ـ عليه ان يحمل ثقل حياته فى سويداء «ذرة قلبه» بوعى فسيح معبر عنه للروح « المروحنة » تمارس عملها حول نفسها ٠ فالحياة

---

(٣) ان فكرة الخلق الجديد يقدمها ابن عربى بتوسع يدعم فكرة اميريكو كاسترو ٠ كمثال راجع الفتوحات جـ١ ص ٧٠٢ ـ ٧٠٣ ، جـ٣ ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ، والفصوص (فص حكمة سليمانية) ص ١٥١ ـ ١٦٠ ٠

والعالم غير منفصلين هكذا كتلك النـاس الذين يلاحظون دورة دمه فى عروقه ٠

اننا اذا تأملنا الآداب غير الاسلامية (أو غير المتأثرة بالاسـلام) فى القرون الوسطى لوجـدناها تعطى تعبيرا هادئا ٠ أما الآداب الاسلامية (وماتأثر بها) فهى بلا حدود ولا تحفظات تفيض بالاندفاع والحماس ٠ الغربى سيشعر بهذا الاسـلوب كشىء شـعبى ومبتذل ، ولعـل الانجليزى يعلق عليه « غير رسمى "Informal" » او يقيمه بأنه واقعى او طبيعى أو يصدم ٠ ولكن ذلك يشبه دهشة من يرى مهارة السمك فى العوم ٠

ثم يعرض الكاتب نصوصا لفيلسوف بعيد عن أسبانيا فى ميلاده وحياته ، هو ابن سينا ، نراه فى هذه النصوص يخلط بين الحقائق العلمية ومشاهداته الشخصية لها حتى تتحـول تأملاته الذاتية أحيـانا كبراهين ، وكأنمـــا يقنع صديقا له بأمور شخصية بينهما متخليا — دون وعى — عن كونه عالما وفيلسوفا ٠

ويواصـل أميريكو كاســترو عرض فكرته بتقـــديم ترجمات لاتينيــة لمترجمين غير أسـبان لتلك النصـــوص السابقة ، ويعرض علينا كيف أن المترجم اللاتينى يختـزل النصوص مستخرجا كل ما فيهـا من حقـائق موضـوعية ضاربا عرض الحائط بكل ذاتيات ابن سينا فيما يترجمــه له ٠ ان هذا هو الفارق بين المسلم — ومن طعم بصبغ حياته من اسبان — وبين المسيحى الاوربى ٠ الاول لا يذكر وقـائع

وانما يذكر عاش الوقائع ، والثــانى يذكر وقائـــع باردة محددة·وكيف فعل المترجمون الفرنسيون نفس الشىء عندما ترجمــوا كوميــديات كاتب المسرح الاســبانى لوبى دى فيجا · ومثل لولى دى فيجا كل أدبــاء ومفكرى أســبانيا · ولننظر كيف يعبر صوفى مسلم فى أدبه عن عيشه للحيــاة فى كتابته لسيرته الذاتية دون أن يكون متعمدا أن يكتبهـــا لنرى كيف أن الادب الصوفى دينى بالدرجة الأولى ، أيضا لنرى عجز الآداب الغربية المسيحية المعاصرة لهذا الصوفى عن التعبير عن الواقع الراهن الذى يظهره كاتبنا الصوفى المسلم منغمسا فيه عبر تعبير متمهل واثق · ان هذا الكاتب هو ابن عربى فى مقدمة ديوان شعره « ترجمان الأشواق » حيث يقول : « فانى لما نزلت مكة ســنة خمســمائة وثمــان وتسعين ألفيت بها جماعة من فضلاء ، وعصابة من الأكابر الأدبــاء والصلحاء بين رجــال ونســاء ، ولم أر فيهم من فضــلهم مشغولا بنفســـه ، مشغوفا فيمـــا بين يومـــه وأمسه ، مثل الشيخ العالم الامام ، بمقام ابراهيم عليـــه الســلام ، نزيل مكة البلد الأمين مكين الدين أبى شــجاع زاهر بن رستم بن أبى الرجا الأصفهانى ، رحمه الله تعالى واخته المسنة العالمة شيخة الحجاز فخر النساء بنت رستم· فأما الشــيخ فسمعنا عليه كتـــاب أبى عيسى الترمذى فى الحديث وكثيرا من الأجزاء ، فى جماعة من الفضلاء ، كان يغلب عليهــم الأدب فكأن جليســـه فى بســـتان ، وكان ــ رحمه الله تعالى ــ ظريف المحاورة لطيف المؤانســـة ، ظريف المجالسة ، يمتع الجليس ، ويؤانس الأنيس ، وكان له ، رضى الله عنه ، من أمره شأن يغنيه ، فلا يتكلم الا فيما بعينه،وأما فخر النساء أخته بل فخر الرجال والعلماء فبعثت الينا ، لأسمع عليها ، وذلك لعلو روايتها ، فقالت : فنى الأمل،

واقترب الأجل ، وشغلنى عما تطلبه منى من الرواية الحث على العمـل ، فكأنى بالموت قد هجم ، فأقرع سن النـدم · فعندما بلغنى كلامها كتبت اليها أقول شعرا :

حـالى وحـالك فى الروايـة واحـد

ما القصـد الا العـلم واسـتعماله

فأذنت لأخيها أن يكتب لنا نيابة عنها أجازة عنها فى جميع روايتها · فكتب – رضى الله تعـالى عنه وعنها – ذلك ودفعه لنا وكتب لنا جميع مسموعاته اجازة عـامة وكتبت اليه من قصيدة عملتها فيه قولى :

سـمعت الترمـزى على المكـين

امام النـاس فى البـلد الأمين

وكان لهذا الشيخ ، رضى الله عنه ، بنت عـذراء ، طفيلة هيفاء ، تقيد النظر ، وتزين المحـاضر والمحـاضر ، وتحير المناظر ، تسمى بالنظام وتلقب بعين الشمس والبها ، من العابدات العالمات السابحات الزاهدات شيخةالحرمين، وتربية البلد الأمين الأعظم بلا مين ، سـاحرة الطـرف ، عراقية الظرف ، ان أسهبت أتعبت ، وان أوجزت أعجزت ، وان أفصحت أوضحت · ان نطقت خرس قس بن ساعدة ، وان كرمت خنس معد بن زائدة ، وان وفت قصر السموأل خطاه ، واغرى ورأى بظهر الغرر وامتطاه · ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض ، السيئة الأغراض ، لأخـذت فى شرح ما أودع الله تعالى فى خلقهـا من الحسن ، وفى خلقها الذى هو روضة المزن · شمس بين العلماء ، بستان

بين الأدباء ، حقه مختومة ، واسطة عقد منظومة · يتيمه دهرها ، كريمة عصرها ، سابغة الكرم ، عالية الهمم ، سيدة والديها ، شريفة ناديها ، مسكنها جياد ، وبيتها من العين السواد ، ومن الصدر الفؤاد · أشرقت بها تهامة ، وفتح الروض لمجاورتها أكمامه ، فنمت أعراف المعارف ، بما تحمله من الرقائق واللطائف · علمها عملها ، عليها مسحة ملك وهمة ملك ، فراعينا فى صحبتها كريم ذاتها مع ما انضاف الى ذلك من صحبة العمة والوالد ، فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق ، وعبارات الغزل اللائق · ولم أبلغ فى ذلك بعض ما تجده النفس ، ويثيره الأنس ، من كريم ودها ، وقديم عهدها ، ولطافة معناها ، وطهارة مغناها · اذ هى السؤال والمأمول ، والعذراء البتول ، ولكن نظمنا فيها بعض خاطر الاشتياق ، من تلك الذخائر والأعلاق · فأعربت عن نفس تواقة ، ونبهت على ماعندنا من العلاقة ، اهتماما بالأمر القديم ، وايثارا لمجلسها الكريم · فكل اسم أذكره فى هذا الجزء فعنها أكنى ، وكل دار أندبها فدارها أعنى ، ولم أزل فيما نظمته فى هذا الجزء على الايماء الى الواردات الالهية ، والتنزلات الروحانية ، والمناسبات العلوية ، جريا على طريقتنا المثلى ، فان الآخرة خير لنا من الأولى ، ولعلمها ، رضى الله عنها ، بما اليه أشير ، ولاينبئك مثل خبير ·· » ، تلك المرأة التى يهدى اليها الكتاب المشار اليه « ترجمان الأشواق » نراها هدفا وحافزا للروح الخلاقة ، وهذا أمر يسود الأدب العربى قبل وضع هذا الكتاب ، وأبرز مثال على ذلك الكاتب المتقدم عن ابن عربى صاحب طوق الحمامة الذى سجل حياته الشخصية الحميمة فى هذا

الكتاب (★)، مما يتنافى مع الفكرة المساندة عن المرأة فى الاسلام التى عليها أن تمكث فى البيت كزوجـــة وأم ٠ ان فتاة ابن عربى ، واسمها نظام ، تقود هذا المتصوف العظيم الى الله ، فهى الرائدة لشخصيتى بياتريس ولاورا ، حيث تقدم الينا هذه الفتاة فى صيانة روائية ٠ ان « نظـــام » تتحدث الينا فى ترجمان الأشواق كما لو كانت موجـودة فى العراق ، لكنها عبر التحليق الغنائى تهبط فى مكة حول حدث متواضع لتجربة تتكامل بحق مع التركيبة المعقدة التى تتشكل من : واقع مثالى ـ واقع تجريبى ٠ هنا تكمن الخلية الأولى لما سيكون بعد ذلك رواية سرفانتس (٤) ٠ ومع ذلك فان ابن عربى لا يحاول كتابة رواية ، ولم يكن بمكنته ، انما يسعى الى أن يتمع قلبه لله ولنظام ،الى اللانهائى : الحدث بين المستحيل والممكن بفضـل التـداخل بين الســماوى والانسانى ٠

وفى نصوص لابن عربى يشير الى الحيـــاة « بكامل الكينونة » وهو ما نجده فى الاســبانى 'Con Toda su Alma' أى بكل جسمه وروحه ، وهذا لانجده فى اللغات اللاتينيـــة الأخرى ٠ وفى هذا الدرب من الطموح والمرارة حيث أراد القدر تسييرا للتاريخ الاسبانى فى طريق اداء كل الأشياء بكل كينونة ذلك التاريخ ـ مضى الاســبان يسيرون بكل النجاحات والفشل لأن العيش « حيا » هو عمـــاد العيش « موتا » ٠ اذا تبنينا منظورا شبيها سنفهم أفضـــل « دون كيخوته » ، « وسانشو » ، كذلك حياة سانتاتيريزا ولوبى

★ يتحدث ابن حزم بالفعل عن قصة حـــب له ، كمـــا يتحدث عن قصص حب شاهدها وعايشها ٠

(٤) يريد رواية دون كيخوته

دى فيجا ، عموما يمكن ادراك المعنى الأكثر أصالة من التاريخ الذى هو ليس ـ فحسب وببساطة ـ نتيجة للواقعية الاسبانية أو النزوات الفردية ٠

ان الأمر يتضح اذا نظرنا الى محمد وأصحابه ، منهم من مضى زاهدا متصوفا ومنهم من مضى غنيا مسرف الغنى ، مسرف العطاء: افراز للزهد والأبيقورية معا بفضل التكامل السماوى ـ الأرضى لعقيدة متيقظة لذنوب الروح تيقظها لذنوب البدن ٠ فلا مانع لدى الزاهد من مصاحبة فتاة أو حتى فتى ولا مانع لدى الغنى من الورع والتقوى ٠ هذا ما يحدث فى الاسلام ، وفى مقابل ذلك تظل المرأة ـ غير المسلمة ـ الأوربية خارج اسبانيا رمزا للخطيئة ، كما نرى فى الأدب الدينى للعصر الوسيط ٠ أما الأدب الاسبانى فظل صامتا تجاه المرأة حتى جاءت « سانتاتيريزا » وكتبت عن نفسها وتجربتها (٥) ٠ اذن ينبغى أن نطرح الفكرة السائدة : أن المرأة فى الاسلام كانت « قطعة فسيولوجية » ٠

اننا لن نرى فى أى شعر رومانى ولا حتى عند دانتى صورة المرأة والزهرة معا دون تركيب مجازى ، ومع ذلك فى تركيب شعرى يشير للمرأة بلحمها ودمها وللزهرة بنباتها ومنبتها ، كما يمكن أن نشاهد الشعر العربى ٠ وهاكم مثال :

---

(٥) فى الحقيقة كل كتب سانتا تيريزا تعبر عن نتائج تجاربها الروحية لكنها كتبت كتابا ضخما عن قصة حياتها فى ترجمة ذاتية لها اسمه Su vida

وطائعة الوصـــال صـــددت عنها

وما الشـــيطان فيهـــا بالمطـــاع

بدت فى الليـل ســـافرة فبـــانت

دياجى الليـــل ســـافرة القنـــاع

وما من لحظـــــة الا وفيهـــــا

الى فتن القـــلوب لهـــــا دواعى

فملكت الهـــوى جمحـــات أمـــرى

لأجـرى فـى العفـاف على طبـاعى

كذاك الروض ما فيـــــه لمثـــلى

ســـوى نظـر وشـــم من متـــاع

ولست من الســـــوائم مهمـــلات

فاتخـــذ الرياض من المـــراعى (٦)

أخـــيرا يشـــير الكاتب للحقائق التالية :

١ ـ ان الاسلام بلا كنيسة نشأت فيه الحركة الصوفية فتقبلها الناس لعدم وجود سلطة الكنيسة التى كانت تخمد أى حركة من خارجها ٠

٢ ـ ان الشاعر الاسبانى الوحيد المعروف ـ حـوالى القرن ١٢ ـ كتب أشعارا منخفضة القيمة الفنية ، ولكنهـا

---

(٦) نفح الطيب جـ ٢ ص ٤٣٧ (نشرة احسان عباس) ٠

تتحدث عن معجزات القديسين والعـذراء ومعجـزات ذلك الشاعر نسخة طبق الأصل من المعجزات التى شـاعت عن المتصوفة المسلمين ٠

ورغم عدم غنائية هذا الشاعر الا انه يقحم نفسـه فى حكاية المعجزات ، أى يتحـرك من داخـله نحو الخـارج ـ الاسلوب الاسلامى ـ فى التعبير عن الأشياء ٠

٣ ـ ان أغانى ألفونسو العالم كانت فى معظمها تلتزم ببناء الزجل العربى ونظـامه ومـع ذلك فلم تكن باللغـة القشتالية وانما باللغة الجليقية ٠

الفصل الثامن

مواقف جديدة منذ نهايات القرن الثالث عشر

فى نهاية القرن الثالث عشر تكون قشتالة قد حققت انتصارات آخرها فتح قرطبة عام ١٢٣٦م ، ثم اشبيلية عام ١٢٤٨م ، فلم تكن فى نظر المسلمين هى قشتالة القرون السابقة ، ولا فى نظر القشتاليين أنفسهم ، فقد تغير نمط حياتهم الى طريقة أصبحت تقليدية : « لتحيا قشتالة فى رغد ! » ، كما أن اليهود قاموا بترجمة كتب عربية تعليمية فى منتصف هذا القرن ، وقد برز بهذه الكتب المترجمة أثر حاسم لليهود فى ظهور الأدب النثرى الاسبانى . كما أدخلت السياسة البراجماتية لألفونسو العاشر (١٢٥٢ ــ ١٢٨٤) الانجيل والتاريخ العام والقانون والفلك والصياغة ولعبة الشطرنج . وهكذا اختلطت الحدود بين الشرق والغرب خلال هذه المهمة العملاقة ، ووجدت قشتالة نفسها ذات أدب عامى لا نظير له فى أوربا فى منتصف القرن ١٣ ، وبهذا الأدب ازدادت ابتعادا عن الفكر الأوربى وأداته التعبيرية ، وهى اللاتينية ، فسانت توماس وفقهاء بولونيا لم يكتبوا بالطليانية .

وهذا التميز الوطنى الذى يعنى استخدام اللغة المتكلمة فى كتب ذات شأن وافق اختيار الفونسو العاشر امبراطورا لألمانيا .

ويستمر الكاتب فى عرض تاريخ قشتالة حتى نهاية ١٣٥٠م · ويعرض النقاط الآتية :

١ - وجود أعداد ضخمة من المسلمين واليهود داخل قشتالة يمارسون كل الأعمال المتفوقة بينما مارس الاسبان الحرب والزراعة فى أحيان قليلة ، وكان اليهود خاصة يديرون الشئون المالية للدولة · وعموما فان هذا الوجود لازال غامضا ·

٢ - ان نهاية القرن الثالث عشر ستشهد اضطرابا سياسيا نتيجة كسر نظام الوراثة التقليدى بقوانين رومانية أدخلها الفونسو العاشر الذى ثار ضده ابنه سانشو بعد موت الوريث الذى عينه ألفونسو ، وهو فرناندو دى لاثيردا ·

٣ - فى أثناء هذا الاضطراب يلعب الشعب دورا فعالا وتظهر الجماعات الاخوانية الدينية كقوى سياسية للمحافظة على مصالح بعض الأعيان ·

٤ - يتميز القشتالى كمسيحى فى سلوكه ولكن بخلفيته الاسلامية العبرية ، وتختفى الروح الملحمية وتظهر الروح الفردية وتصبح الملكية - رغم اضطرابها - هى الجامع الوحيد لشعب من الأفراد ، وتميز الفرد أدى الى ظهور النثر الوجدانى الروائى ، وهو نثر يبقى فيه من ملامح ملحمة « السيد » الروح التاريخية الواقعية وتختفى منه الأسطورة ويميل لقص ما وجد الأفراد أنهم فى مسيس الحاجة للتعبير عنه ، حديثا عن أنفسهم ، التى أصبحت مركز الحياة عندهم ·

٥ - ان فهم القشتاليين للمسلمين فى اسبانيا لم يجعلهم يفقدون الاحساس بالخطر الاسلامى ، وانما اشتغلوا بشئونهم عارفين أن الخطر الاسلامى يوقفه بل ويقضى عليه وحدتهم التى كانت تتمزق فى ظل عدم التجانس فى مجتمعهم الذى يكثر فيه المسلمون واليهود ، وفى ظل اضطراب الملكية الاسبانية منذ موت الفونسو العالم فى نهاية القرن الثالث عشر · وفى الحقيقة كان المسلمون أعداء لا يقهرون ، ومع ذلك فان حروبهم مع المسيحيين فى اسبانيا كانت شيئا آخر ، اعتمد على فهم المسيحيين للمسلمين ومحاكاتهم ومجافاتهم فى آن ·

٦ - ان سلوك الملوك الاسبان فى هذه الفترة يشبه سلوك ملوك المسلمين ، فالفونسو العاشر (العالم)، الذى قتل أخوه مثلما قتل المعتمد بن عباد أحد أبنائه ، يصنع صنيعة ابنه سانشو الرابع الذى قتل بيده الرجل الذى يعتمد عليه دى آرو مثلما قتل المعتمد بن عباد رجله ابن عمار ·

٧ - ان نشأة النثر القشتالى يمتزج فيها الاسلوب الاسلامى (الذاتى - الموضوعى) بانفراد الروح الاسبانية بالميل اكثر الى الواقعية الروائية ·

٨ - ان نهاية القرن الرابع عشر يتجلى فيها تطور النثر الاسبانى المتمثل فى كتاب « الحب الطيب » لقمص هيتا الذى سيفرد له الفصل التالى ·

الفصل التاسع

كتاب « الحب الطيب » لقمص هيتا

ان ظهور هذا الكتاب كان أمرا مدهشا الى حـــد لم نكشف عنـــه فى الصفحـــات الســابقة ، وان كانت تلك الصفحات ستجعل هذا الظهــور مبررا وأقل ادهاشــا رغم انعدام الصلة بينه وبين الشــعر القشــتالى فى القــرون السابقة عليه ، وبينه وبين الآداب الرومانية التى سبقته أو عاصرته ٠ ان عمل خوان رويث « قمص هيتـــا » فريد فى نوعه فى الآداب الغربية المعروفة فى عصره وترى فى حركة وحداته الدائبة ٠ ان مؤلفه « ذات شاعرة » تطل خلف شعر ذى مذاق انسانى قوى وتلوح من هذا الشعر فى نفس الوقت سحابة مجازية واخلاقية ، وكل المناهج المتبعة فى دراســة الشعر الرومانى المسيحى تفشــل فى فهمــه لأن الكتـــاب انعكاس قشتالى لنمـــاذج عربية من أدب غــزلى تبرزه فى مظاهرة فخيمة أغانى هذا الكتاب المؤلف عام ١٣٣٠ ٠ ان الكتاب قد يعالج موضوعات مسيحية أو أوربية احيانا ولكن مشابهته لهذه الآداب سطحية ٠ اننا نجد فيه ـ لأول مرة ـ الوعى يتحرك للتعبير الفنى عن وقائع كانت خرســـاء فى عالم الفن من قبل ، وتنبثق الآن مقيمة شعريا ٠ وفيه لأول مرة ـ أيضا ـ يتحدث عن طريقة الكينونه لاسبان : « لقــد أخذت طريقى فى سباق كما يفعل الأندلسى »٠ أيضا يكشف الكتاب عن ظواهر شعورية لتجربة حية ، الأمر غير المعروف

فى الأدب القشتالى · وها هو يقال ، الذى يحدث فى الجانب الحميم من الانفس والعالم الذى تسكنه هــذه الأنفس ، فى قواف قشتالية ·

اننا نشعر بمدن اسبانية جدا وبغليان ثلاث ســلالات بشرية وثلاث عقائد ★ · اننا نسمع عن فلكيين وعن قوادات يخرجن لامعات وعن كتب علامة وعن فلاحــين وفرســـــان خدام لاسبانيا ،وعن سيدات ورهبان وراهبات ، فوق ذلك يوجد بريق ألوان من الموسيقى والغناء والطعام والأعيــاد الدينية وبوابات سلاسل « وادى الرمل » ، ولغة جمــيلة وبذيئة معا · كل شىء مضطرب ومختلط ومقدم فى قصف مشاعر تضج بجانب سرف فى أخلاقيات مجردة · وهــكذا نرى كاتبا فنانا اصيلا ومقتدرا ، وليس مجرد اخـــلاقى عبقرى ، أو مجرد منحل يمارس التلاعب لفساد الأخــلاق أو مجرد راو لصيغ تراثية ومجهولة الصاحب ·

لقد عاش « خوان رويث » فى عصر الفونسو الحـــادى عشر ، ذلك الذى حظى باحترام، وحقق استقرارا وانتصارا على المسلمين لم يتحقق منذ الفونسو العاشر حتى فرناندو الكاثوليكى الا على يديه ·

انه العصر الذى بدأت فيه قشـــتالة تنظيم ملذاتهـا ومباهجها دون خجل أو حياء فى قص هذه الملـــذات · ان هذا الكتــاب الشعرى ينقل ملذات عصره كمـا يفتــح باب المناقشة حول مغريات هذا العصر وتعقيداته ومخاطره ·

★ يريد العرب والاسبان واليهود مع عقائدهم الثلاث : الاســلام والمسيحية واليهودية ·

ان المؤلف أول من تسلى بأغانيه التى هى عبارة عن أرابيسك نقى دون بداية أو نهاية فى حيز الامكان · كما أن المؤلف يستحث الجمهور لدخول لعبة بهيجة أو القاء الكتاب من يد الى يد كالكرة من أجل بلوغ ما فيه بقدر الاماكن · ان العمل لا يطلب تعليقا أو شرحا ماهرا لأن المؤلف وعمله لا يتضمنان شرحا أو تعليقا · لاشك أن المؤلف يرغب فى استمرار البهجة الفنية اذ تنبأ بأن الكتاب سيصير مقروءا جدا يرد فعل القارىء الذى سيرى نفسه تائها ولو قليلا فى هذا الأخطبوط الأرابيسكى · حقا انه لأمر فريد أن يحاول مؤلف - اسمه خوان رويث أو أيا كان الاسم - يعيش ، شعريا ، تسلم جمهور مجهول لكتابه بقصد أن يسرمد هذا الجمهور فى اطراد لانهائى للأرابيسك (١)·

ان الحاسم فى الكتاب هو استعمال القشتالية لأول مرة لاعطاء صيغة تعبيرية للتجربة الشعورية بعيدا عن الاطار الاسطورى ومن خلال من يعبر :

---

(١) يقول ابن عربى فى مقدمته القصيرة لفصوص الحكم (ص ٤٨):

فمن الله فاسمعوا	والى الله فارجعوا
فاذا ما سمعتم ما	أتيت به فعوا
ثم بالفهم فصلوا	مجمل القول واجمعوا
ثم منوا به على	طالبيه لا تمنعوا
هذه الرحمة التى	وسعتكم فوسعوا

فهو يتوقع طالبين لكتابه ، ويطلب من قرائه أن يوسعوا دائرتهم بقدر اتساع الرحمة التى شملها الكتاب فضلا عن تصوره لقراءته مرارا للتدرج من الوعى المجمل الى الفهم المفصل · اننا أمام ظاهرة متكررة دون جدال يتحول فيها العربى المسلم من التراث الى أسبانى مسيحى · (فصوص الحكم - تحقيق وشرح ابى العلا عفيفى) ·

فوق البوابة

تأرجحت كائنا ميتا

من الجليد ومن البرد

من الندى

من الصقيع الممتد

في نفس الطريق الاسلوبي الذى فتحه خوان رويث ستروح وتجيء - بعد ذلك وفي توسع - الصورة الشعرية للكور باتشو والثليستنا والكيخونة · أما كتاب « الحب الطيب » نفسه فلم يتكرر لأنه خلق ذاتي ، ولم يكن موضوعيا في شيء قط · انه انطباعات ذاتية لشخص يتكلم منبثقا من كل سطر وقد يكون من العبث التحقق من أن هذا الشخص هو خوان رويث أم لا · ان الرواة بعد تأليفه بقرن كانوا يستعيدون تلاوة مشاهد الكتاب المشهور دون الاشارة الى أى أقصوصة منه - خاصة - انما يقولون في كل مرة وعند كل أقصوصة : « الآن نبدأ كتاب القمص » · أى ظل يلح النغم الذاتي لمؤلف ذائعا مع ما ألفه دون أن تختفي ماكيته الأدبية أو تصير مجهولة ·

نحو مغزى الكتاب :

ان المؤلف قال عن الكتاب أنه سيكون « كتاب حب طيب ، تبتهج به الأبدان وتسمو به الأرواح » · أى أن الكتاب معراج من الدنيوى الى الديني ، من الشهوة الدنيوية الى غرض ضبط السلوك ، أى ضفيرة يتعاطف فيها الطموح الابيقورى والمغزى الاخلاقي · وليس ذلك لون من الجدال في القرون الوسطى بين الجسم

والروح ولكنه اتحاد حيوى بين الأمرين ولو كان الكاتب مسلما (رغم تشربه الروح الاسلامية) لكان الأمر سهلا عليه ، ولكنه صنع ذلة بصعوبة لأنه كان عليه أن يعكس التناقض بين التلقائية الحسية والتأمل الاخلاقى ، لأن المسيحى الوسيط رغم أنه يتعاطى ملذات البدن الا أنه عرف أنها خطيئة ، ولذا يتحول هذا الأمر عنده الى أدب كوميدى دون مقدرة منه على تجاوز هذا الخط بكتابة قصائد تتضمن اللذة والاخلاق معا٠ أما خوان رويث – وقد ألف الحياة الاسلامية – استطاع أن يفعل ذلك مبقيا قنطرة بين الاسلام والمسيحية من فكاهة غير اسلامية ٠ هذا هو التدخل الفلكى (بين طريقتين للحياة) الذى يثير الخلط والتيه عند اقترابنا من القمص ٠٠٠٠٠٠ اذا تكلم المسيحى عن مواضع أخلاقية مستعملا ضمير المتكلم فانه يدعو الى ترك التلذذ بالمغريات الحسية لهذا العالم ٠ وقد يعد وصف الملذات للنهى عنها والهداية أمرا منحلا أو ابيقوريا ٠ ولكن قمص هيتا يجعل من ابن حزم مثلا له فى التماس العذر فى تناول هذه الأمور لاثارة بهجة النفس لأن القلوب تصدأ (اشارة الى حديث نبوى فى مقدمة طوق الحمامة لابن حزم) ٠ ان قمص هيتا يطرح مغزى مسيحيا لمواضيع وعادات اسلامية فى تواز لأبنية مدجنة (المسلمون فى المدن الاسبانية) ترددت فى عصره ٠ ان الحب قد يفيد المشاعر والروح ، ولذا فان كتابه يسلى ويهدى كما ينسج الخيوط الاسلامية والمسيحية ٠ ان المرأة الجميلة يمكن أن تكون مرغوبة وراغبة ، ولكن للحب مخاطر كالنبيذ الذى يخصص له ٤٨ بيتا من شعره :

ان النبيذ طيب جدا فى طبيعته نفسها
وكم من أفضال فيه لو شرب بقدر

مع ذلك فانه يدعو للهرب من النبيذ فى النهاية لأنـــه يصفه بطريقة تثير تماما مثل سحر الجسم الأنثوى ، حيث يقدم بألوان مظلله نتائج السكر :

وقد نفسك من النبيذ اذا عشقت سيدة

وقد شـــاع فى الأدب الأوربى النمـاذج الاخـــلاقية المسيحية التى إستخرج منها خوان رويث حكاية « الناسك السكير » ، ولكنه لا يكتفى بابراد الأضرار الروحية ـ عل
السكير » ، ولكنه لا يكتفى بايراد الأضرار الروحية ـ على
المسيحى ـ للخمر بل يورد الأضرار الجسـيمة التى وردت كثيرا فى كتابات اليهود والمسلمين · ان وصف الأعيــاد والموت يشبه النصوص العربية والموريسكية·ومعأن المؤلف ليست له حـرية الـــكاتب العربى أو الأوربى اللاتينى فى الحديث عن الحب الدنيوى ـ لأن مقاومة قشتالة للمسلمين، كما قلنا ، كانت تتكىء على الطهارة من الدنس الذى وقــع فيه لزريق فسقطت اسبانيا فى يد المسلمين ـ الا أنه يصـل الى وصف التجارة الجنسية فى اسلوب يفتح الباب أمـام اللغة القشتالية كما يدفع البعض الى نزع بعض صفحـات واحد من مخطـــوطات الكتاب وطمس بعض الجمـــل فى مخطوطات أخرى · ومع ذلك فللكتـــاب أغراض تعليميـــة أخلاقية لأن الأدب العربى فيه النزعة التعليمية أولا ، ولان القشتالى مضى مشيدا حياته متمثلا نفسه فى مشهد كفء للسلوك الذاتى حيث أنه بالانتصار مسح الذل ومركبـــات النقص :

بالعمل الطيب ينتصر فرسان اسبانيا

وهكذا يزرع خوان رويث الشعر الغزلى لكل ما سبق وبكل ما سبق وأيضا لأن أوربا أمضت وقتا طويلا تستخدم الحب كوسيلة للتطهر والكمال ٠ من ثم يحب القمص امرأة جميلة والعذراء معا متوجها بحبه الى كلتيهما فى آن- وها هو يتحدث الى العذراء - دون غيرها - حديثا مباشرا :

أود أن اتبعك يازهرة كل الازهار

ويصف العذراء - وحدها - بالزهرة لأن الجو المتطهر المنغلق فى قشتالة حتى ذلك الوقت - ورغم غزله - لا يسمح له بوصف المرأة المحبوبة بالزهرة كما يفعل العرب الذى قرأ لهم مثل قراءته اللاتيفية ومزجه الثقافتين بخبرته المعاشة بما فيها من بيئة يتداخل فى بنائها الاسلام ٠

موضوع البهجة :

ان البهجة فى العمل تنبع من حساسية شاعرية حقا فلم تكن لتسلية الجمهور أو لمجرد محاكاة للأدب العربى حيث نجد أن عد الموضوعات المخصصة للعذراء تسعة والمخصصة للمسيح اثنان ، ولا نجد الدم يسيل من المسيح٠ وان حدث ذلك مرة فانه لا يشبه ما حدث فى فن القرن ١٧ وانما يتبعه فورا : « للعالم صار عذوبة حلوة » (٢) ٠ بينما العذراء لا تصنع معجزات ولكنها تلمس الروح ٠ وهذا يوضح - فوق ما ذكرنا - أن النزعات الابيقورية لم تأت من أجل التعليم والهداية ، انما انبثقت من نفس شاعرة للمؤلف

---

(٢) يريد هنا ان الحديث عن صلب المسيح مع ما فيه من احزان لا يتلوه النواح بل البهجة فالمسيح مع ما جرى له ليس الا « عذوبة حلوة للعالم » وهنا تنبثق البهجة حتى من داخل ما هو مأساوى ٠

المرهص بالشاعر لوبى دى فيجا حيث يصب الحنو فى أغان لأم المسيح بأسلوبه الذى يندرج فيه الاحساس الحميم للكاتب ، ذلك الاسلوب الفريد دو نعديل (انسانى ـ الهى ـ اسلامى ـ مسيحى) فى الموضوع الذى يتمركز حوله العمل ٠

كذلك فان موضوعات الحزن والهم ربما كانت عقيمة فى نظرة ، لأن هذا المؤلف كان غير قادر ـ بالفعل ـ على أن يترك نفسه للزهد الجاد أو للاطمئنان المتأامل أو للفكر البناء ٠

قضية من قضايا الخصوصية المسيحية الاسلامية :

ان الصيغة الشاذة التى نظر بها الاسبان الى تاريخهم جعلت من العسير فهم ألوان من فنون العصر الوسيط ومنها الأدب ـ فقد انطلق المؤرخون من مقولة مؤداها أن الأدب ـ سواء كان قشتاليا أو قطالونيا أو جليقيا ـ هو أدب رومانى مسيحى أوربى ولا شىء أكثر من ذلك ٠ وبهذا أغلقوا باب الفهم أو الاحساس بما كان يجرى فى شبه الجزيرة وبما كان فيها من وقائع تتمثل فى الخضوع للحضارة الاسلامية والانبهار بها على مدى قرون طويلة ٠

وقمص هيتا قد أدرك كثيرا من الأغانى والآلات الموسيقية ، والرقصات العربية ، واستعمل ـ ايضا كلمات عربية تتأبى على الفهم ، مثلما ألف أغان للمسلمات واليهوديات ، وجعل يتحدث بالعربية لفتاة فى شعره ، وكان الأول فى استخدام الزجل ذى القوافى الداخلية المألوفة جدا للشعراء العرب والتى ترددت كثيرا عند ابن

قزمان • هذا القمص ــ بالوغم من كل هذا ــ يقول أن كتـابه جديد وأن أشعاره فريدة • هل يمكن أن يكون كل هذا عنصرا عرضيا وخارجيا دون أية رابطة مع المعايشة الباطنة للعمل الشعرى نفسه ؟ حقا ان حدوث هذا أمر غير سهل لأن الحياة اليومية مع الأشياء لا يمكن أن تجرى بهذه الطريقة الغليظة• ان القمص كشـاعر مسيحى يعـرف الاسـلوب المسيحى والاسلامى معا عند اقترابه من الحياة ، وفى فنه لا يتحاور ــ فحسب ــ الدنيوى المادى مع الروحى السماوى ، بل أيضا الاتجاه الروحى المسيحى مع نظيره الموريسكى •

ان ترجمة أعمال ابن حزم ولا سيما طوق الحمـامة لم تحدث رد فعلها لدى الاسـبان لأنهم ضحايا للاحسـاس بخصوصيتهم • كذلك ــ ولنفس السبب ــ لم تسترع هـذه الكتب النظرة المتأملة لما فيها من جمال انسانى ذاتى •

ان طوق الحمامة صب فى جنس أدبى دون نظـير فى الأدب الرومانى حتى عصر حديث جدا • ذلك الجنس الذى يطلق عليه الاعتراف بالحب أو السيرة الذاتية الغرامية • ان روحا صافية اشربت الأفلوطينية والزهد فى النساء تقص ــ بالنثر والشعر معا ــ قصة استسلامها للحب ولكل سـحر الدنيا الى أقصى درجة فى مكنة انسـان • من ثم فعمـل الارادة فى حده الأدنى لانه من المفروض أن الانسان منـا بين يدى الله أو تحت فعل الحب الذى خلقه الله كما خلقنا ، ألا يهبط عليه الحب كما يهطل المطر فينعشنا أو يغرقنا ؟

يشرح ابن حزم آثـار الحب فى نفسـه وفى نفـوس الآخرين وذلك بشكل بارع وثاقب ومع ذلك لايبدو حميما مع

موضوعه بالقدر الكافى سواء كان حديثه عن نفسه أو عن غيره لأن « الأنا » عنده مثل كل « أنا » توجد على مسافة واحدة من الموضوع · أى أن « الأنا » يمكن أن تستبدل بأخرى ولا يتغير الموضوع · أن الصور الأنثويه ، وهى علة الجنون المقدس (جنون الحب) ، تبقى ظلالا فى غموض · وقد توصف حالاتهن النفسية - فى أحيان - برتوش سطحية لفرشاة تجمل الصورة فى حوار روائى لا يكاد يبين · ان روح الشاعر تمضى كقوس قزح وتبرق تحت الفعل المذدوج للحب وللروح الالهية الحاضرة دائما لأن الدنيا هى نفس الآخرة (٣) ان ابن حزم - كمسلم مؤمن - لا يرفض ما هو بشرى مادام مسموحا به من الله لأن « القلوب فى يد الله » · ان ما هو اسلامى - ممتزجا بما هو أفلوطينى - جعل المعايشة السلمية ممكنة بين العشق والتدين · هذه المعايشة مستحيلة عند المسيحى الذى لا تسمح له عقيدته بالاستسلام لعذوبة الحب الجسدى · ولا ينبغى الاستغراب أمام ذلك اذا وجدنا فى « طوق الحمامة » « خلطة » مثيرة للحسية وللتأمل الذهدى معا وفى آن · وقمص هيتا يفعل نفس الشىء ولكنه شأن سلفه ابن حزم يفرق بين الحب الطيب والحب الحسى، فصاحب الحب الأول معصوم من لله ، بينما صاحب الحب الثانى خاضع

---

(٣) يجعل ابن عربى الدنيا ظاهرا باطنه الآخرة ويتواكب ذلك مع فكرة الخلق الجديد التى تجعل كل صورة فى حالة استحالات مستمرة أى هدم فبناء ·· هكذا ابدا ، وفى الهدم تتجلى الآخرة وفى البناء تتجلى الدنيا · وصاحب العقل أو الحس لا يدرك ذلك أما المتصوف فصاحب خيال يدرك الآخره باطنا للدنيا التى هى الظاهر · وهكذا بهذا الادراك يعيش بكامل كيلونته ظاهرا وباطنا علما بأن الظاهر لا يقوم الا بالباطن· ويمكن فهم هذه النظرة من تصفح أعمال ابن عربى ولاسيما الفتوحات المكية ·

لقدره النابع من أن الحب علاقة مع امرأة ، والمرأة مصـــدر للخير وللشر ، وفي كلا الحالتين فالدين لا يمنـــع الحب · وهذا التفكير اسلامي ، فالاسلام ينشر تفاؤلا غير عنصري قدريا وكونيا ان الله أرحم الراحمين خالق كل شيء لايمكن ان يصـــنع شـــيئا شريرا فلا شر حتى في تعـــدد الأديان ، فلو شاء الله غير ذلك لجعـــلكم أمة واحـــدة · وحــــول هذا التفاؤل الوجودي للقرآن تأسس التســـامح الاســـباني في العصور الوسطى كما بينا قبل ذلك في الفصل الخامس ، ومع ذلك فهذه حقيقة لا يمكن انكارها الآن ·

أن المرأة عرض زائل لا تختلف في ذلك عن أي شيء في الحياة الدنيا ، وذلك بالنسبة للرجل الذي يعايشها ، من ثم اذا توكل ذلك الرجل على الله حق توكله فانه لن يطمئن الى المرأة ، ولن يطمئن الى أي شيء غيرها مادامت الأشياء غير ثابتة في تدفقها داخل مجرى الاستحالات في الصـــور بين الهدم والبناء في عملية الخلق الجـــديد · وينبـــع من ذلك التصور ما يطلق عليه « الواقعية والطبيعية العـــربية » في وقت لم تكن المسيحية قد فتحت عينيها بعد على العــــالم المواجه لها · وقد ترتب على هذا التصور الاســـلامي تأمل شامل للأشياء الحياتية المحيطة بالمسلم ، فنحن نشـــهد في القرن التاسع كتــــابا مسلمين يعنـــــون بتأليف الكتب والرسائل عن الطبقة الاجتماعية الدنيا ، وعن عـــادات عامة بل أن الجاحظ يكتب حول كل موضوع ممكن ، وكما يصفـــه المسعودي فهو حتى لا يمل قارئه يتنقل من الجد الى الهزل في براعة أصـــيلة · ان هذا الاتجـــاه في الكتابة يشبـــه الحطاب الذي يخرج في الليل حاملا فأسه بجانب حظه ·

وأيضا الزهد والتصوف - فى بداية القرن التاسع - يمثلان - كما سبق وأشرنا - ميلادا لروحانية الشرق ممزوجه بآثار مسيحية ، أما خصائصهما ونتائجهما فمتعددة جدا . ان المسلم - وقد انشغل بالروحانية - قد غاص فى النفس وفى العالم المواجه لها ، كما غرس الفلسفة والتصق بالتواضع ، وبعاداته بهدف نشر عقيدته . ان الصفاء الاكثر نفاذا أو المادية الا بعد غلظة قد تمازجا - عادة - فى الاسلام ، وتلك صيغ لحياة أطلق عليها « الصيغ المثقفة العامية » . ان ابن حزم لم يكن صوفيا ولكنه تحرك فى عالم مشرب بالروحانية . ومن ثم فان ابن حزم نفسه يتحدث فى « حكاية واحدة » عن جمال السحاب والنساء ، وهذا أمر لم يكن ايصدر قط من مسيحى فى كتاب واحد يمزج فيه ما هو سماوى بما هو جنسى قح . وقد حدث أن اللغة الأدبية للعرب امتلكت المقدرة - مما لا يدرك فى الترجمات - على التنزيه كلما تكلمت . انها تدور كسحابة طافية فى حنين للشكل وللاستعارة المتطلعة للامساك بما لا يمسك من واقع سماوى متنكر بالمظاهر المرئية . الكتابة عند العربى عبادة تجعل كل تعبير يتخلق (يصير اخلاقيا) يبسط الاحاسيس ، والتكرار ، والنثر المقفى (المسجوع) ، والاستعارات . ان الفنان - شأنه شأن الكاتب والمتحدث - يتخيل بما يلفظ لأن اللفظ ليس شكلا خارجيا بالمفهوم الغربى ، انما هو الجوهر الوحيد المتاح . ان الالفاظ - شكل ، وستر ، ورمز - تصب فى بعضها كما تتقلب فيما بينها بشكل غير محدد فى لعبة مستمرة بين باطن وظاهر ، واحدهما هو الآخر ولا يمكن ان يكون شيئا آخر ، وليس ذلك سفسطة ، انما هكذا يوجد هذا العالم المطروق فى خلق جديد بين هدم وبناء فى موجة من الصور .

اذن يعايش داخل شك براق تجاه العالم مصكوب بحمد الله٠ فى نفس الوقت لا يعلن أى موجود - يستحق اللعنة - لأن وجوده تحقق بمشيئة الله ولا اعتراض عليها ٠

علينا أن نربط كل ما سبق بالمزج الدائم والطبيعى للأسلوب القصصى بالاسلوب الشعرى فى الأعمال ذات الطابع الروحى تماما مثلها مثل الاعمال الفنية المحضة مثل « ألف ليلة وليلة » ٠ وهذه الاعمال - بدورها - لا تستطيع أن تنفصل - طبقا للمعيار العربى - لأن الدينى والدنيوى مركبان معا بصورة وثيقة ٠وبنفس النهج ليس من المناسب التمييز بين القوانين الدنيوية والدينية فقد تضمن القرآن كلا الأمرين كما تضمنتهما الاحاديث النبوية والاحكام الفقهية المشتقة من القرآن ٠ فلا يوجد فى القرآن واقع يعد أساسيا ونهائيا كما عند الغربيين من واقع مؤسس على الفكرة الاغريقية عن الكينونة الأساسية للأشياء ٠ أما الأشياء فى الاسلام - على عكس الغرب - فهى أمر عابر فى حركة ، حقيقى فى تجربة اليقظة وفى خيال الحلم معا ٠ لا شىء يستقبل الحياة بالأفعال الانسانية ، ولا شىء يمكن بعثة على يد الانسان ٠ اذن ادعاء منح الحياة المستمرة للأشياء يتعادل مع ادعاء عبادة الله الخالق الاحد ٠ وهكذا ندرك فى اللغة الأدبية سبب عدم محاولة الاستعارة القيام ببعث العواطف والاكتفاء بمجرد اعطاء شكل للذكرى التى تتعادل فى نفسها مع شكل الواقع الظاهر والمشتت للموجودات - ان الشياطين وحدها هى من تتشبث - دون جدوى - بهذا العالم الزائل متكلفة تحويله الى شىء ثابت وأساسى ٠

يبدو لى الآن أننا نفهم معنى تبادل النثر مع الشعر فى أعمال عربية . ان المقطوعات الشعرية ستصير بالنسبة للنثر ما تصيره الاستعارة بالنسبة للمستعار مما يفسرها كمخلق (يحول الى أخلاقى) للحدث الحيوى . الكاتب لايثبت فى تحدد فيما هو له قاص أو وصاف كما لا يتأمل « جزئية » من عالم مستحوذ عليه تماما ، انما على العكس من ذلك فانه يعمد الى معالجة العالم كموضوع للمتنوعات لتحويله الى صدى أو ذكرى أو حله الى شعر أخلاقى ، أو الى أخلاق أو تعليم . ان المحكى والموصوف يعودان الى ما ينبغى أن يكون ، أى الى واقع متلاش ومهاجر .

ان ما سينيون يقدم مثالين يؤكدان ما سبق . ان النظرية الفنية للحب تفترض أن المحب ينبغى أن ينفصل عن محبوبه ليعيش فى وهم الذكرى . وطبقا لاسطورة المجنون نراه يلتقى بليلى محبوبته حيث تناديه لكى تنعم بمجاذبته الحديث فيصمتها حتى لا تشغله عن حبه لليلى !. والمثال الآخر أن مصورا سأل عما اذا كان بوسعه رسم حيوانات فقيل له : نعم .. ولكن مع قطع أعناقها حتى لاتشبه كائنات حية ، وبعبارة أخرى عليه أن يعالجها حتى تبدو كأزهار .

ان تبادل النثر والنظم أمر قديم فى اللغة العربية ، وقد وجدته عند الفرزدق ، وهو أمر عادى فى « ألف ليلة وليلة » ، وفى كتب الصوفية والزهاد ، بالطبع ، عند ابن حزم . ان مثل هذه الصورة من الفن قد مارست تأثيرا عميقا فى الأدب الرومانى ، وبصفة خاصة ، أدب قمص هيتا الذى لا يوجد فى كتابه الشعرى أكثر من قطعة نثر فى البداية ،

لكن بنية الكتاب تتأسس فى تبـــادل النظـم القصصى مع النظم الغنائى أو المخلق (الخرافة ـ المثل) الذى يتنـــاول فيه ـ ما سبق أن قيل بأسلوب سهل ـ كمعنى يعادل « المثل ـ الاستعارة » حيث يعـود الموضوع نفســه الى الصــورة المفتوحة لأرابيسك لا يميل ولا يتعب · يقول القمص أنه قد أحب امرأة « غير قديسه » ولى ينالها أرسل اليها رســولا معينا · أخيرا يخونه الرســول ، أى يحــل محله ، أو هو استمرار للمحب الأول (القمص نفسه) · وحول هذا الحدث المبتذل ، ينظم الشاعر هذه الأغنية ، يعلن فيها انطواءه :

عينـاى لن تريا ـ بعد ـ النور
لقـــد ضيعت « صــليب » ★

وفيها السخرية التى عانى منهـا تتحول الى شـــعر هزلى ساخر :

لقد تسـلوا بى قائلين   تافه واكثر غباء من حمارة تدب

فى هذا االشعر يتدرج ظل الخلط بين اســم الفتـــاة « صليب » وبين معنى الاسم « صليب المسيح » (تبـــادل بين الاسم والشخص :

وعنــدما كان يرانى الصـليب (الفتـــاة الصليب أو الصليب)

كنت دائما « أخضع فى ذل
واصلب له أينمـا وجـــدته

★ « صليب » هنا اسم المحبوبة ، وفى هذا تورية ولعب بالألفـــاظ لا يعرفه اللاتينيون كما كرر اميريكو كاسترو · والطريف فى هذه التورية ان كلمة صليب بالاسبانية « مؤنثة » ، مما يخدم الهدف الشعرى ·

والذى يتردد كثيرا أن حكما أخلاقيا « شعبيا » ينفك فى مثال مشحون بأسلوب تعبيرى وفنى ، فيشار للرجل المتغطرس فيما يحدث له كالحمار يواجه جوادا مسلحا ٠

فالأهتمام يتأرجح بين الصراحة الفاحشة والتوتر الشعرى ، بين ما يعرف وما يتخيل ٠ فى كلمة أخيرة ، ان الموضوع الأساسى للكتاب هو هذا التردد بين غموض الكلمات ووضوحها ، وبين الأخلاقيات والخيال ، وبين الحب الطيب والحب المجنون، وبين الخشونة العامية والرقة الفنية ٠ الخلاصة أن القمص خوان رويث كان يعرف بشكل معجب الفن الاسلامى ٠

ان فى كتاب الحب الطيب يستلهم الكاتب سلفه ابن حزم فيما يقدم بين يدى شعره من عبارات التقديم المقتضبة ٠ كذلك رغم اشارة المؤلف الى مقطوعة شعر له لم تثبت فى كتابه ، فاننا لن نلتفت الى ذلك ولن نفكر فى ان النساخ قد اسقطوا المقطوعات الغنائية التى تحوى طابع الحزن ، وانما ينبغى البحث فى البنية الداخلية للكتاب لأن ما يعنينى هو القشتالية المسيحية للمؤلف التى دفعته الى ثبوط الهمة كلما اتجه الى شعر جاد من أعماق النفس حول الحب كشعور قابل للتمثل فى النظم عندما يحاول الناظم الكلام مباشرة عن محبوبته ٠ وربما حاول أن ينظم بجدية وعمق لكنه لم يستطع ولم يجرؤ على ذلك ، مما يقدم لنا الشاهد الثمين حول مدى حركة هذا الشاعر وحدود حياته الفنية ٠ ولعله فى ذلككان شبيها بابن حزم عندما يشير الى شعر له حول الموضوع لا يتضمنه كتابه ٠

. . إن موضوعا غراميا ما كان ليجرؤ على البروز المباشر اللهم الا تحت شعار الشعر الساخر الهازل (الزجل) ★ ٠
صليب مصلب : خبازة . (Cruz Cruzada : panadera) .
أما الأغانى الدينية أو القص والوصف لمغامرات مع كل هاتيك المحبوبات الزائلات اللائى يظهرن مرة بعد الأخرى فتحت سيطرة الأرابيسك ٠ ان أهم ما فى تلك الحكايات هو التبنى الأصيل لاقصوصة الحب la novelita De amore

لم يكن سهلا فى قشتالة ابتداء طريق التعبير الغنائى ولا الاستسلام للتمتع بخيال غير متكىء على الاهتمام الجمعى للملحمة أو على المثالية الأخلاقية ٠

ان اللغة انكمشت عند حد المضى لاعطاء صيغة استعارية للبديهة الشعرية ٠ وقد رأينا كيف أن ألفونسو العالم كان عليه أن يلجأ للجليقية حتى يعثر على لغة غنائية نفية ، بينما يستطيع قمص هيتا بعد ذلك بخمسين أو ستين عاما أن يقول بالقشتالية :

رأيت راهبة فى صلاة نضيرة

لها عنق مالك الحزين وطزاجه البذور

من خلع على الوردة البيضاء ثياب الترهبن والحجاب الثقيل ؟



★ لعل الكاتب هنا يشير الى ما اطلق على الزجل فى بعض المصادر العربية من اسم « الهزل » أو لعله يعنى الموضوع الغالب على الأزجال الأندلسية وهو موضوع الهزل فى الجد ، والجد فى الهزل كما يبدو بوضوح فى ازجال ابن قزمان ٠

ولكن عنـد محـاولة الحـديث عن الحب هكذا بضمير.. المتكلم ، فان الشاعر كان ينسحب بالرغم من معرفته الوثيقة بكيفية علاج الموضوع فى الأغانى العربيـة (من استخدام ضمير المتكلم) - وعلى وجه التحديد - فى « طوق الحمامة » لابن حزم المعروف جيدا لخـوان رويث • اننا باستعراض أشعار طوق الحمامة نجـدها تحلق الى أعمـاق فى الحب لا يجرؤ أن يصـل اليها خـوان رويث ، رغم اتخـاذه منهـا نموذجا له من دون بعض الأشعار الرومانيـة القليلة التى تتحدث عن الحب بضمير المتكلم ، وبصفة خاصة ، أشـعار بروفنسا التى لم تكن بحال هى النموذج المحتذى ، والدليل على ذلك تلك الصور التى ترددت كثيرا فى الشعر العـربى وجده تتردد عند خوان رويث دون ترشيح للاستعارة عنده كما هى فى الشعر العربى (يعرض الكاتب مجموعة مقارنات بين أشعار رومانية وعربية ، ويقارن كل ذلك بشعر خـوان رويث ليؤكد وجهة نظره) • ثم يعود بعد ذلك للحديث عن كتاب ابن حزم قائلا : والآن يعود للكتاب الحلو لابن حزم، هذه المقامة المتقنة ذات الشعر والنثر المتبادلين مثلهما مثل الحسية والروحية بجانب الحب البربرى للبحار - الـذى يمضى متعرفا على الحاجات العائدات من مكة على سفينة - والحب الجميل لابن حزم - الذى ينقلب الى تجربةعاطفية فى أصيل مشرب بالجماليات • ان ابن حزم كتب كتـابه شابا لم يزل لكن فى وقت وصل فيه الى ايثار التأمل الدينى والأخلاقى على التمتع بالحسيات • ولعل الكتاب كان كلمة وداع الى المرأة وفى وقت لم تكن ارتعاشة الشاعر بحبها قد خبث • والكتاب مسبوق بمحاولات شبيهه لكنه استحق دونها جائزة التفوق كما يرى جولد سيهر • ان تحليل مثل

هذا التفوق يطول ولكن الذى يعنينا هو ان كتاب ابن حـزم انتشر فى اسـبانيا المسيحية بطريقـة شـفاهية ، أو بأى طريقة كانت حتى اننا نجد له فى كتـــاب الحب الطيب انعكاسات متاخرة ممزوجة بتأثيرات اكليريكية آتيـــة من أوربا وبما أضافه خوان رويث من اصالة عبقرية ٠ ان صيغة « السيرة الذاتية » ليس لها أى علاقة ـ وعلى وجه التاكيد بالتطيمية المسيحية فى العصور الوسطى انمـا هى تعبير على نمط اسلوب السيرة الذاتية فى الأدب العربى ، وقـــد ظهرت من قبل عند « الملك دون خايمى ودون خوان مانويل »٠ ان المزيج بين الشرق والغرب فى كتاب « الحب الطيب » منح هذا العمل طـابعا ذا اطـار مدجن ٠ ولا تعـــد الأقاصيص ومضارب الأمثال والطرف الأخلاقية هى وحـدها العربية ، بل ان الفكرة المركزية للكتاب نفســها هى فكرة اســلامية أو قل هى تجربة عاطفية ذات مصبين : دافع حسى وتعفف زهدى٠ان القص متبوعا بتفسير أخلاقى والتكرار دون ملل لمواضـيع متشـابهة ، أيضـا المعنى المزدوج والمتقلب بين نقيضين لما يقال : كل هذا موجود فى طوق الحمـــامة وفى معالجات عربية لا تحصى لمواضيع زهديـة وتصوفية ٠ ان كتاب رايموند ولوليو السابق تحليله ، وهذا الكتاب للقمص هما فروع نضرة اصيلة انبعثت عن جزع واحد٠وان ارجاع كتاب الحب الطيب للأدب الرومانى وحدة يبقى هذا الكتاب مموها ومفلسفا كواقع تاريخى حتى أنه لا يعدو أن يـــكون تجربدا عبقريا ٠

ان كتابا يحفظ حتى يعاد نشره ثانية فى القرن ١٤ فى ظل حرية تجعلنا نفكر فى العادة الاسبانية لتهذيب أعمـال

الماضى الأدبية دون احترام كبير لملكية مؤلفيها (٤) ـ اننى أجهل عما اذا كان خوان رويث قد عرف كتاب ابن حزم عن طريق ترجمة مكتوبه أو شـــفويه كانت تعيش مع من كان من الاف الأشخاص القادرين على فهم الجـوهرى من كلا اللغتين • ونعـرف أنه قد تم فقـد جمهـــرة من النصوص الأدبية العربية والاسبانية ، ومع أن الأمر كذلك فقد تنطلق صيحات الدهشة من محاولتنا ـ بالغة العنـــاية ـ ببحث الاتصال بين الأدبين (٥) •

ان بعض فقرات طوق الحمامة تظهر عند أحد الرهبـان فيما كتب عام ١٦٠١ ، أليس ظهورها فى كتـاب القصص فى القرن الرابع عشر يعد أقل اثارة للدهشة ؟

ثنائية المعانى فى كتاب الحب الطيب :

فى الحـاح مدهش يصمم خـوان رويث على فـرض الطريقة التى ينبغى أن نفهم بها ما يكتب • ان القـارىء لن

---

(٤) ان هذه العادة عربية ، ولعلها انتقلت الى الاسبان عن طـريق العرب • ان سيرة ابن هشام تهذيب متعمد لعمل ابن اسحق دون احـترام لملكية الأول لعمله • ولدينا كثير من الكتب لم يبق منها سوى مختصرها أو تهذيبها • وقد انتقلت عدوى التهذيب الى المؤلفين أنفسهم فابن خفاجة يعترف صراحة بتهذيبه لأشعار الصبا بما يناسب وقار وتقوى الشيخوخة وذلك فى مقدمة ديوانه البالغة الأهمية نقديا وتاريخيا •

(٥) ان كثيرا من الكتب العربيـــة المدونة ظلت تنتقـــل بالرواية الشفوية تحفظها قلوب العلماء فيتلقون اجـازة من مؤلفيها بروايتهـــا • بل ان الكتب المدونة يصبح الكثير منها رواية على لسان أحـــد متلقيهـا بالاجازة بينما نفقد نسختها الأصلية • ولاشـــك أن المستعربين والمدجنين والموريسكيين بل وبعض اليهود والاسبان المعجبين بالحضـــارة العربية قد حفظوا بعض الكتب ثم رووها مترجمة الى القشتالية شفاهة • ولهـــذا فمحاولة نفى التأثير العربى مع وجود المشابهة دون تفسير رومانى لهـــا بحجة عدم اثبات الصلة التاريخية يعد أمرا منافيا لطبيعة الأشياء •

يطمئن الى الانطباع الأول الذى يتلقاه مع تلقى الأشعار ، انما يحاول الوصول الى معنى آخر مقارب وأكثر أصالة ٠ وفى المعنى الآخر هذا يكمن مغزى المؤلف ٠ ان مثل هذا التحذير الدائم لا يوجد فى أى عمل آخر وسيط ووفرته ترشدنا الى خصوصيته هنا ٠ انه لا يوجد - فقط - معنى مزدوج هنا انما أيضا انشغال المؤلف بهذا المعنى المزدوج، والا لما تكلم - على الأقل - أربع عشرة مرة عن هذا المعنى المزدوج ٠ فهو عندما يريد شرح مثلا كنائيا (الليجورى) يقول على لسان بيريثو :

أيها السادة والأصدقاء ما قلنا ٠٠
هو كلمة غامضة نحب عرضها ٠٠
لننزع القشرة وندخل الى اللب
فلنمسك بالداخل وندع الخارج ★

ان الكاتب يقدم موضوعيا مشكلته الصغيرة ، ويعطى بالتالى حلا ٠ ولاتخشى أن يتردد القارىء بين تفسيرين محتملين ، ولا تعتقد أن نفس البناء فى شعره يبنو مشكلا أو غامض القيمة ٠ ان الواقع الدينى الأخير الذى يحكى عنه

★ يشبه هذا ما قاله ابن عربى فى مقدمة ديوانه ترجمان الأشواق وهى مقدمة نثرية قصيرة لعمل شعرى وقد تخلل هذه المقدمة بعض الشعر :

كل ما اذكره من طلل — أو ربوع أو مغان كل ما
أو خليل أو رحيل أو ربى — أو رياض أو غياض أو حمى
أو نساء كاعبات نهد — طالعات كشموس أو دمى
كل ما أذكره مما جرى — ذكره أو مثله ان تفهما
صفة قدسية علوية — أعلمت أن لصدقى قدما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها — واطلب الباطن حتى تعلما

« بيريثو » ثابت وغير متحرك • ولكن خوان رويث لا يعالج « معجزات » انما يعالج « غراميات » غامضة فى حد ذاتهـــا وعلة قصوى للاضطراب • ان الغرام صانع للمعجزات عظيم، فيجعل كل شىء يروض عما كان عليه : الدميم يبدو جميـلا والشيخ يغدو صبيا :

يقول ابن حزم فى « باب من أحب صـفه لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها : « ان للحب حــكما على النفوس ماضيا ، وسلطانا قاضيا ، وأمرا لا يخالف ، وحدا لا يعصى، وملكا لا يتعدى ، وطاعة لا تصرف ، ونفاذا لا يرد ، وأنه ينغص المرر ، ويحل المبرم ، ويحلل الجامد ، ويخل الثابت ، ويحل الشغاف ، ويحل الممنوع •» (٦) • كما يقول فى باب الاذاعة : « وأقوى تحكمه « الحب » على العقل ، حتى يمثل الحسن فى تمثـــال القبيح ، والقبيح فى هيئـة الحسن ، وهنالك يرى الخير شرا ، والشر خيرا • وكم مصون الستر، مسبل القناع ، مسدول الغطـاء ، قد كشف الحب ســتره ، وأباح حريمه ، وأهمل حماه ، فصار بعد الصيانة علمـــا ، وبعد السكون مثلا • وأحب شىء اليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه ، فسهل ما كان وعرا ، وهان ما كان عزيزا ، ولان ما كان شديدا • » (٧) •

★★★

ان الابحار فى سفينة الحب ـ طبقا لما رأينا عنـد ابن حزم ـ يعنى عند المسلم الدخول فى منطقة شك المخـــاوف الانسانية • لن المسلم يلذ من ملاحظة اللعبة الخداعة لـكل

(٦) الطوق •
(٧) نفسه •

المظاهر لأن ما يحدث خارج عن الله ، فهو زائل وفان • وتبدأ هذه الملاحظة من داخل للنفس المسلمة • فالحب عنده متقلب، سواء كان الهيا أو انسانيا ، وعندما يؤثر فى الانسان فانه ذو أثر متبدل أبدا • والتبدل كمى وكيفى : ان الصغير كبير، والكبير صغير ، ويظهر ذلك عندما يقول القمص : « فى السيدة الصغيرة تكمن لذة كبيرة •• وفى الزهرة الصغيرة يوجد لون كثير •

ان القمص ينظم من منظور خاص للحياة : حياته ، وحياة الآخرين ، وحياة العالم الذى يوجد فى مواجهته : فهو لا يتكلف مثل « بيريثو » اعطاءنا درسا تفسيريا بهدف وحيد دينى أو أخلاقى • يوجد تكامل تام فى كل عمل القمص ، فلاشىء يماثل : هنا المعصية ، وهنا الطاعة » • ان المشكلة لها عمق أكبر بسبب الرباط بين الأساليب العربية والمسيحية فى فهم واقع العصور الوسطى • ان الفلسفة وعلم الكلام « الثيولوجى » فى المدارس جعلت من التمييز بين العرض والجوهر ، وبين الانطباع المحسوس والعلة المفهومة شيئا مبتذلا • ان العالم الضبابى والمظهرى كان يتعارض مع كل ما هو أكيد فى الأبدية • ان الكلمة الانسانية ـ متنوعة ومتغايرة فى النص المقدس ـ تحجب معنى مطلقا والهيا • ولكننا نرتكب خطأ تاريخيا اذا اعتقدنا أن كتاب « الحب الطيب » ليس فيه غير هذا لسبب بسيط ، وهو أننا لا نجد فيه أساسا ثابتا وآخر متغيرا فى مواجهة الأسس التى تنحو موضوعيا وتجرى عقلانيا • فى الكتاب كل شىء متمكن وغير متمكن فى آن ، حيث أن المؤلف يقول أن عمله يستطيع أن يعطى دروسا فى حب متقايض • ان الجنون والحب لا يترددان وحدهما ، لذا ـ أيضا يتردد

معهما المؤلف نفسه ، الذى يعمل كمفصلة بينهما . ولايوجد فى أى مقال تفسيرى وسيط شىء مثيل ، لأن التفسير ليس من موضوعاته الظرف والفكاهة ٠ ان الظرف والفكاهة يظهران هنا ، واذا لم يكن كذلك فان خوان رويث كان سينقل هذا الوجود ـ والعدم معا ـ الى البيئة المسيحية فى واقعها الأخلاقى ٠ ان هذا الغموض يبدو دون سخرية فى كتاب ابن حزم الذى وضعه « رويث » نصب عينيه أو فى ذاكرته، لكن البيئة المسيحية احتاجت هذه الوثبات بسبب فرط حاجتها الى ابتسامة بل والى شىء من تصحيح الغد ٠

وحتى لا يفقد قارئنا خيط تفكيرنا بسبب قلة المعلومات أقول ـ توا ـ أن التفسير الانجيلى بين المسيحيين كان شيئا احترافيا لا يلتصق بجذور الحياة فى مضيها ، كما لم يكن انجيليا ٠ أريد القول أن الزهرة عند الغربى كانت زهرة والجواد كان جوادا ولم تكن ثمة صعوبة فى محاولة تمثيل جوهر الأشياء فقد كانت تقوم ـ بذاتها ـ أكثر من قيامها بالله ، ولذا فقد كان الشىء جوهرا لنفسه ٠ ولكى نفكر مدرسيا : الرأس كانت رأسا وهى تحاول أن تتوافق مع المخ ، ولم تكن قط عقلا جزئيا يتوافق مع العقل الكلى ٠ أما عند المسلم فان تفسير النص المقدس القرآنى كان ـ على عكس تفسير الانجيل ـ أكثر من مجرد تفسير ، لأن باطن القرآن ـ الموحى به ـ هو باطن الحياة ٠ ويتجلى هذا الموقف بشكل خاص عند الصوفية وعند الباطنية ، كما يبدو مفسرا لكثير من نصوص ابن حزم وخوان رويث معا ، بل ولفكرة وصف جلد المرأة بالشفافية حيث يكشف ظاهره عن باطنه تلك الفكرة الشائعة عند المسلمين وعند القمص ٠

الظاهر والباطن يتكاملان مع البنية الشعرية :

بتحليل هذه الكلمات السابقة (الظاهر والباطن يتكاملان مع البنية الشعورية) نتنسم قمة منها يمكن تأمل المزايا التى ينفرد بها هذا الكتاب الغنائى • ان المحكى ـ ذلك الذى يتكلف المؤلف احياءه ـ والأخلاقيات ، وأحيانا العبارة المنعزلة ، كل هذا يقدم لعبة دورية بين « باطن » و « ظاهر» كلاهما له نفس الشرعية دون الفصل بين واقع أساسى ومظهر مشكوك فيه • ففى مقطوعة شعرية يتحدث فيها صراحة عن الظاهر والباطن لمجموعة أشياء نرى الشوك مع الوردة ، ولكن الشوك ليس ظاهرة منبثقة عن جوهر الوردة، وليست الوردة ظاهرة منبثقة عن جوهر الشوك ، ان كليهما يوجدان اخوين سياميين ، وهذا يشبه السكر الأبيض والأسود فى عود القصب الواحد يحتويهما معا :

سكر أسود وأبيض يستقر فى حطب قصبى

وسيبدو غير صحيح استحضار مفاهيم « مادة » و « صورة » ، ومن الأفضل تذكر تشبيه السيف والغمد ، الباطن والظاهر ، لأن هذا سيوقفنا على حجر الزاوية عند القمص ★ •

★حيرة المؤلف هنا الرافضة « لمادة وصورة » يحلها ابن عربى فى ابداع لابراز العلاقة بين الظاهر والباطن فى مواضع لا حصر لها وباساليب لا تحصى بسهولة لكن من خلال منظور واحد يبرز فى هذا المثال الذى ناخذه من الفصوص (ص ٥٦) : « فقد علمت حكمة نشأة جسد آدم أعنى صورته الظاهرة ، وقد علمت نشأة روح آدم أعنى صورته الباطنة فهو الحق الخلق ، وقد علمت نشأة رتبة وهى المجموع الذى استحق به الخلافة » فابن عربى يرى مجموعا غائبا عن البصر تراه البصيرة وهو وحدة فى كثرة : صورة ظاهرة وصورة باطنة كلاهما كثرة فى وحدة فلا مادة وصورة ولكن صورة تمتد من الشهادة الى الغيب وجودا واحدا •

يقول ابن المقفع فى مقدمة « كليلة ودمنة » :

« هذا كتاب كليلة ودمنة ، وهو مما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث التى ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول فى النحو الذى أرادوا ، ولم تزل العلماء من كل أمة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل ، ويبتغون اخراج ما عندهم من العلل فى اظهار ما لديهم من العلوم والحكم حتى كان من تلك العلل وضعهذا الكتاب على أفواه البهائم والطير»٠٠ ثم يواصل القول : « وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا فاختاره الحكماء لحكمته والاغرار للهوه والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ما صار اليه من أمر يربط فى صدره ولا يدرى ما هو بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم ٠٠٠ فأول ما ينبغى لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التى وضعت له والرموز التى رمزت فيه ، والى أى غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه الى البهائم ، وأضافه الى غير مفصح ، وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالا ٠ فان قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعانى ولا أى ثمرة يجتنى منها ٠٠٠٠ وكذلك من قرأ هذا الكتاب ولم يعرف غرضه ظاهرا وباطنا لم ينتفع بما يبدو له من خطه ونقشه ، كما لو أن رجلا قدم له جوز صحيح ولم ينتفع به الا أن يكسره ويستخرج ما فيه ٠ » والمعرفة هنا تشير الى التعرف والفعل معا حيث يقول : « فالعلم لا يتم الا بالعمل فهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ، وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به وان لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالما ٠ ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمى جاهلا ،ولعله ان حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت

دها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها . من ذلك السالك فى الطريق المخوف الذى قد جهلها . ومن ركب هواه ورفض أن يعمل بما جربه هو ، أو أعلمه به غيره كان كالمريض العالم بردىء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب الى النجاة والتخلص من علته . » وليست مثل تلك المعرفة ـ المشار اليها ـ مما يدور حول الطبيعة ينظمها ، لكنها تدور حول الانسان تنظم حياته وهدفها هو تقييم السلوك دون أن تستنتج منه معايير مطلقة أو موضوعية بشكل جامد . وهنا يجب أن نتذكر أن الاسلام لا يفرق بين القانون الشرعى والدينى ، وابن حزم يخلط بين الحب الانسانى والسماوى . ان العيش هو سلوك رموز بين رموز ، وليس بين مظاهر لجواهر ولكن بين وجوه أو معان « تجليات » .

من ثم يمكن الآن أن نشرح لماذا يخلو مفهوم الحب فى كتاب القمص من الثبات . ان كل رأى أو حكمة تتحول الى موضوع جاد ، أو الى سخرية دون تمييز بين هذا وذاك . من أجل هذا يفضل خوان رويث دوافع السخرية والمحاكاة الهازئة بهدف معالجة هذه الهزليات بصيغة متفردة جدا ، تلك الصيغة التى نبحث لها عن بديل دون جدوى. فى المقام الأول لن نجد أن أحدا أخذ موضوع الصلوات الكنسية فى هزل . وهذا يشبع أشواق المؤلف فى التعبير الحى حين يتحدث عن صلوات الرجل الاكليريكى منذ الفجر حتى الليل ، وفى هذا رمز للانسانية الملموسة لفرد من الناس . وبالرغم من أن هذا الفرد غير مصنف فى زمان أو مكان ، فان موضوع الهزل هو ما يمكن لكل فرد أن يصنعه دون غيره من التقييم الأخلاقى لأفعاله. ان القس يستيقظ ليؤدى صلواته،

ولكنه يرفع عقيرته بالصياح ليوقظ صديقة له يغـازلها ثم يعود لصلاة تؤدى الى غزل ، وهكذا فى أرابيسـكية تخلط بين الصلوات والحب فى بناء دورى لا نحس فيه بانفصـال بين الأمرين بقدر ما نحس بالاستمرار · ان هذه الخلطـة المعقدة من الصلوات والغراميات كانت تحتـاج أن تذاع من جديد ويكشف عن سرها مثلها مثل مقطوعات عديدة لاتزال غير مفهومة من ذلك العمـل الشعرى · وينقصنا نصوص حول اللغة المتكلم بها فى القرن الرابع عشر بجانب عـدم ادراكنا ما يعد أساسـيا عند الانسان المعـاصر آنذاك · ولو سـد هذا النقص لوجـدنا الدليـل الذى يهـدى الى الفيلولوجيا ما ضمنه خـوان رويث فى « أسـلوبه المثقف ـ العامى » من أعمدة متقابلة للحياة المعاصرة له التى أحـاط بها وتـكامل معها · عمـوما فان شروح النصوص الغامضـة خـارج عن غرض عملنـا هـذا الذى يقتصر على ابراز ذلك التعـالق بين الصـلاة المجردة وتجربة الحيـاة الأرضية ، الأمرين المتبدلين المتعاكسين ·

ان عقل اللاتينى سوف ينبث داخل اللغات الرومانثية· من ثم ، سنبقى تحت تاثير انطباع خاطىء لصلاة مزيفـة وشهوة حسية · ان الحب الطيب لرجل الدين سوف ينحـل الى حسـية مع أن الكلمات المقدسـة تبقى هناك مثل بوابة للنجـاة ، فكل شىء يقـال فى نغمة شـتامة « للسـيد دون غرام » :

فى عمل الخير ·· أبدا لا تتوقف عن الكذب !

ان كل المقطوعة تقع داخل الثنائية الأساسية للكتاب :

ان الأجسام تبتهج والنفوس تصلح

انها ثنائيــــة ليست فقط فى المعنى والتعبير بـل فى الشكل الايقاعى • ان النصوص اللاتينية تبدو فى المصراع الاول للبيت وتعكس نفس القصد الشعرى للازجــــال ذات القافية الداخلية المزوجة فى بناء متداخل مع أبيـات ذات قافية خارجية تضطرد فى القصيدة • أى يمكن القول أنـــه نظم نحو الداخل وصوب الخـــارج • نفهم الآن كيف أن كل رأى حول الأشياء ، وكل تقييم للسلوك الانسانى يبدو هنا مرتعشا وغامضا مع ابهام لا يقارن بفكرة التعـــارض بين الشر والخير ، تلك الفكرة التى لو وجدت هكذا لغدا العمـل مثاليا فى وحدة للرحمة الالهية • وأيضا ليس الأمر جـــدلا (بين الروح والبدن ، الماء والنبيذ ، القسيس والرجـــل) منظوما على يد فنانين موهوبين من منظور مختلف للحياة •

ان فى أشعار كهذه يصبح كل من الماء والخمر، الروح والجسد ، حالات متتابعة ومرجعة للنسق الوجودى • انمــا هى دورية فى البنـاء أكثر منها جدل عند القمص • وقواعده الاسلوبية تكمن فى طريقته التعبيرية التى لا تعتمد بشكل جوهرى على مقاصــــد تعليمية أو تفسيرية للانجيـل ، أو هروبية مسيحية من العالم أو ابتذالا فاسقا جوليياردسكيا (طلابيا) فى شغف لكسب جـائزة ماليــة من جمهـور من البسطاء • لا شىء من هذا كله يمكن أن ينضاف بعضه الى بعض فى بنـــاء اجمــالى مخلوق ، انمــا الأمر هو الفيضان الذاتى للنسق الفنى أو الصيغة النبيلة أو الفـريدة للعيش الشعرى للقمص منظومة من الاسموز أو الاندوسموز بينـــه وبين العالم ـ عالم قشتالة ـ عالمه الخاص ، وليس فحسب عــالم الكتب فى العصـور الوسـطى • وهذا يبـــدو فى

الموضوعات التي يعالجها ، انها الحياة من حوله ٠٠٠تمثيل مطعم بتبادل ألوان فيها تاتى قشرة (لحاء) غريبة تتكامل مع الحياة لكائن حي ، هذه الألوان تؤدى هنا وظيفة تتجاوز المهمة البسيطة للتطعيم فى النباتات لأن الكتــاب تطعيم خالص ، فهو كائن أبيض وكائن داكن جدا ، وكلا الكائنين لهما نفس الصلاحية ، و ليس الأمر غوصا للجوهر أو سهرا فى مظاهر خادعة ٠ ان الأكيد والثابت هنا هو الوعى الـذى يعبر به خوان رويث عن كونه نفسه « نجارا » لغراميــات عفيفة وحسية ، وعن كونه مغنيا وعازفـا لآلات ، وعن كونه فى أمور أخرى جاهلا مثل ثور فى قيد ٠ وحول الأحاسيس الأساسية لا يتردد فى التعبير ، اذ يحس ببرودة ثلجية أو ببهجة أو بحزن ، طالما يلاحظ انطباعات بصرية أو سمعية أو خطا سريعا متحركا كقوله :

كلب طيب خاطف ، عداء وعنيف

يحس رغبة فى حب النساء ويفضل أن يكون بأى شكل كن أو يلين القلب منهن فى التوسل بالعـذراء ، لأن الانســان البــاطن ـ أيضا ـ يصير داكنــا وأبيض ٠ ثنائيــة للحب الطيب والمجنــون لا يعبر عنهــا هيراركيا ، أى أن الكتاب لا يميل الى تفضيل أحدهما على الآخر ، بل يصير كل واحد منهما منطقة تتحول الى الآخر كمظاهر أو مواقف متقلبــة ، فالكتاب :

خاصية طيبة حيثما كان ٠٠

لو سمعه رجل عند امرأة دميمة

أو سمعته امرأة لها زوج خسيس

فهو خدمة لله في الأمر المراد

يبغى اسماع صلوات وعمل قرابين

يرجو اعطاء الفقراء خمورا وطعاما

ان خاصـية الحب لا تأتى من أى وعظ أو شىء فـوق الحياة ، انما الميل الذى يأخذه الوجود انطلاقا من الظروف التى يوجد فيها الرجل أو المرأة • ان الحسى الدميم ينزلق الى صلاة حلوة • والحياة الدينية تغوض ـ فى حـلاوة ـ الحب العديم الطعم،ونفس الشىء فان الحياة الحسية تريح من خشونة القداسة :

متقربا •••• يأتى وقت لله المنزه

ثم عدت الى بلدى أمرح بعض الزمان ★

ان مجرد خبر الاقتراب قليلا من الزهد ، ارهاص بالمرح الدنيوى « لكى تكون رشيدا عليك بحشر الملذات فى وسط الأحزان » • وكل هذا يأتى موضحا فى الاعلان الأول : « ان الأجسام تبتهج والنفوس تصلح •• » • وليس هذا يعنى أن الانسان يذنب والله يتوب عليه • ان الشىء الوحيد دون مواز ، هو أن الاخلاص : « ليكن مشقة » وأن اللذة : « لتكن

★ تكاد تكون هذه العبارة ترجمة حرفية للقول الشعبى الشـهيد الشيوع فى مصر « ساعة لقلبك وساعة لربك » وهو ايضا ينبـع من روح القرآن فى امره للمسلمين بأن يأخذو زينتهم عند كل مسجد ، وايضا صلاة الجمعة بين بيع ينره الناس وبيع يعودون اليه منتشرين فى الأرض فمن الجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهما • وخطورة هذا التشابه انه يمثـل سلوكا حياتيا بدأ ينعكس فى الأدب الاسبانى ممثلا لهذا اللقاء الاسـبانى العربى •

مشارا بها » ، وكلاهما : « ليكونا فى تبادل » كيفية ما يحدث للانسان :

« انه شيء طبيعي الميلاد والموت »

الفكرة والاحساس ، البديهة لهذا التبادل ليست عقيدة لصيقة ، انما تهيؤ حيوى داخل العمل يبرز فى الكلمة والمقطوعة والمعنى والجو العام لكل الكتاب فى ظرفه وملاحته واجمال تعبيره • ولم يكن يحدث ذلك فى القصائد اللاتينية لذلك العصر ، ولا فى رومانث الزهرة El Roman de la Rose ولا عند تشوسير •

اننا نجد فى عمل خوان رويث تجديدات تفتح الطريق نحو التطور الأكثر قمة فى الأدب الاسبانى ، أيضا فى الأدب الأوربى _ وان كان بشكل غير مباشر _ ومع ذلك نفتقد حتى الآن نشرة محترمة لهذا النص • كما لا توجد ترجمة لهذا الكتاب بأى لغة أخرى •

ان كتاب القمص أثر عظيم يجعلنا نحس أن الرجل وعالمه لعبة ذات مظاهر تجرى حول بعضها من أبيض لأسود ومن براءة الى دناسة ، ومن ميلاد الى موت ، ومن صلاة الى حس ، ومن تضرع للعذراء الى فتيات نضرات لدنات • ان هذه الأضداد ليست عرضا لمتناقضين : مادة وروح كما فعلت الأعمال الأدبية فى العصور الوسطى ، انما الجديد هنا أن ما يتضاد هو صيغ الحياة وسبلها ، وليس مضامين جوهرية لها ، انها اتجاهات الثابت الوحيد فيها هو تبادلها •

وما هو ليس كذلك فهو عامل ثانوى ملتحم بشكل أساسى بالبنية الأساسية • كذلك من المهم جدا ألا ننظر

الى الكتاب « كمثل كنائي » من أصل أفلوطينى ، لأن المثـل الكنائى شعار جميل وعبقرى للمثل المكنى الذى هو طبقـه تحت ذلك المثل الكنائى بشكل مؤكد • ان الوردة Larese فى الرومانث Roman اشـارة أو رمز لصبية حلوة بينما « السيد دون غرام » قمص تماما مثل مؤلف الكتاب نفسه ، و « دون ميلون » ينسل من القمص فيتأسس من هذا الغلاف ويقول بظرف : « أن شيئا من هذا لم يحدث له » • وهـكذا فان الموتيفة المتكررة التى يصف الكتاب بها نفسـه ، هى موتيفة اسلامية ، وأعنى بها قوله أنه كذب وصـدق ، أى ظاهر وباطن كلاهما حقيقى وموجود وينقلب الى الآخـر • وأيضا الكتاب يتأثر بالنوت الموسيقية • فالكتـاب يتحدث عن نفسه :

« لكل آلات الموسيقى أنا قريب ،

فكل حروف النوته طيبة أو رديئة أقولها لك أكيدا »

ان القارىء اذا كان زاهدا سيرى الباطن مغطى بالظاهر، واذا كان عربيدا سيرى الظـاهر وراء الباطن • ان الكتـاب تعبير أصيل عن حياة شعرية (عيش شعرى داخل الأبيات) تتقفز وتنقلب الى آلة يستطيع أن يعزفهـا من يحب أو من يتمكن منها ، والعمل سيرقص هكذا على الصوت المعزوف •، اننا امام مشكلة للحياة والفن ، وليس لأخلاق او ثيولوجى •

تجربة الوجود الذاتى داخل عالم متذبذب

ان المؤلف يطل مرة تلو الأخرى من داخل أبيات شعره ليسبق الى القارىء بالمعنى المستقيم لهذه الأشعار ، وهكذا يسلم نفسه فى النسيج الشعرى للعمل ، ويعبر عن وعيه فى

اصالة بالوجود حول تذبذب لمبهمات يمضى هذا الوجود في ابرازها . وقد سبق لنا القول أن لا تمييز فى هذا العمل بين النص والتفسير ، وحتى لا يكون هذا التمييز فاننا نعلن أن المؤلف نفسه يخلق النص والتفسير ، وأيضا المنهج الشارح الذى سيقودنا الى سرفانتس وليس الى نص مطروح له تفسير أضافه شخص آخر . والأساس سيكون - بناء على ما سبق - هذا التبرم الذى يتضمن - فى تدفق - وقائع يتشكل وجودها من تقديم جوانب ومظاهر مريبة ومترددة.

ومنذ أعوام - فى معالجة قمت بها لسرفانتس - نكرت هذا النص الأساسى لذلك الكاتب : « الكيخوته » ببضع كلمات : « يتجول بيننا - دائما - زمرة من السحرة حتى أن كل أشيائنا تتبدل وتتغير ... وهكذا فان ذلك الشىء الذى يبدو لك « طست حلاق » سيبدو لى خوذة « مابرينو » وسيبدو لشخص ثالث شيئا آخر ... وهكذا .

ان العالم بالنسبة لدون كيخوته وبالنسبة لسرفانتس يبدو غير مؤكد ، فهو عبارة عن خوذة مابرينو أو فكرة خير أو شر . ولشرح ما هو جذرى فى العمل الأكبر فى الأدب الاسبانى « دون كيخوته » فانى لن أتحدث عن تفكير النهضة الا بحذر شديد ، وسأضع اعتبارا أكبر لامتداد الوجود الاسبانى بجانب السنوات التى عاشها سرفانتس فى أرض المسلمين . واذا عرفنا المفتاح الشعرى والعلائق التاريخية لكتاب الحب الطيب لن يكون صعبا أن يتبادر الى فهمنا حقيقة تلك المشابهة بين الطرق الفنية عند خوان رويث وسرفانتس دون أن أدعى أن القمص هو مصدر سرفانتس ..

ان خوذة مابرينو ، وطست الحلاق ظواهر تجرى فى مجرى وجود شخص ما ، وينقلب كل منهما الى الآخر ، ويتغير ككل ما نجد من أشياء عند القمص ، وفى كل عمل أسبانى حول التجربة الوجودية · ان « الونسو كيخانو » ينزلق داخل دون كيخوته ، وهذا يغمد فى ذاك بنفس الطريقة التى يدخل بها القمص ويخرج فى « دون ميلون دى لا أويرتا » أو « تروتا كونفنتوس » فى « الفيبيخا » وفى « أراركا » أو الحب الطيب فى الحب المجنون أو الحسية فى الدين · ان سرفانتس ـ نفسه ـ وليس ظله التعليمى ـ يطل أيضا بين صفحات الكيخوته ليتكهن بترجمة كتابه الى كل اللغات أو ليقول للقارىء بصوت مرتفع أنه عليه (القارىء) أن يشكره من أجل ما ضرب صفحا عن كتابته أكثر من شكره على ما كتبه · وفى الجزء الثانى ، تنتزع الشخصية من مجرى القص المركزى لكى تتناقش ـ فى خط قص آخر منفصل عن الأول ـ « دون كيخوته دى أفيانيدا » الدخيل · وانه لسحر مسرف سيجدد الآدب الاوربى ، وتوجز جذور هذا السحر فى الأسلوب الاسلامى المسيحى للحياة الاسبانية : وهو أسلوب يتطعم فى الكيخوته بالرواقية الجديدة ، وبالاراسميزم مع مرارة الوجود الاسبانى ·

وبانفتاح اسبانيا فان الثقافة الاسلامية ـ وقد أصابها الشلل منذ القرن الرابع عشر ـ صارت عالمية وحديثة وصالحة لخلق آفاق من الفن دائمة التجدد · وبدون ذلك السحر المشار اليه فيما سبق ، بجانب تلك الفردية

الراديكالية ما تمكن خـــوان رويث أو سرفانتس من صب كلية وجوده ـ جسم ونفس وعقل ـ فى تلك الأصالة الفريدة لخلقهما الفنى · وبدون هذا السحر ـ أيضا ـ ما استطاعت سانت تيريزا أن تستبدل وجودها بالطفل عيسى :

أنا تيريزا يســوع

أنا يســوع تيريزا

وما اســتطاع فيلاثكس تصــوير لوحتــه « الصــبايا والغازلات » ولا استطاع الاسبان التعود على كتابة الأحرف الكبيرة طبقا لنظام معيارى غير مفهوم للعـــالم المثقف : ان الملكى يكتب اسم الملك بادئا بحرف كبير Rey والجمهورى يكتبه بادئا بحرف صغير rey أى نفس ما يفعله القمص حيث يكتب لفظة : كتابه sombro ··· هكذا بادئا بحرف كبير لأنه يريدنا أن نفهم كتابه كما يريد هو لا نحن ، من ثم يكتبه بتلك الطريقة حسب هوى الوجـود الاســـبانى الشامل· ان الحروف تعزف كآلات موسيقية أنغامها الكبيرة أو الصغيرة تجرى حسب المزاج أو العاطفة لكل فرد ·

والآن ينبغى تنظيم آرائنا على أساس نتخـــذه من الأدب الاسبانى طبقا لواقعــه الاصيل مع العــودة الى التـــاريخ المتكامل لاسبانيا ، ذلك التاريخ الذى تنتمى اليه البـــلاد فى تــكامل · ان نص كتـــاب الحب الطيب يمتلك معــانيا مختلفة ، ويشمل ـ فوق ذلك ـ الطريقة التى يعيش بهـــا المؤلف والقراء ·وتتحدد تلك المعانى المختلفة بشخوص العمل نفسها · والكيخوته ـ بنفس الطريقة ـ كتــاب فروسية ، وكل شخص داخل وخارج الكتاب يفسر ويعيش من أعمــق

أعماق وجوده · ومنذ أكثر من عشرين عـــاما لفت النظـر لعنوان كوميديا مفقودة لسرفانتس : « خداع النظر » ، ثم ربطت هذا العنوان بالنسيج الكامل لأعمـــال سرفانتس · ومن هنا ، تبرز الفكرة التى أمضى معمقا لها منذ زمن ، وهى: ان أعمال سرفانتس امتداد لمـا بدأت به La Galatea وأقفلته :

El Persiles ... ·· وهو امتـداد فيـه انعكاس لكليـة شاملة للدافع الفنى عند الكاتب · وكون الكيخوته هو أكثر الانجازات عالمية وانجـازا لا يؤثر فى دقة فكرتى ، فايضا نهر النيل يبدأ مجراه بمنابع صغيرة وبقفزات غريبة قبـل أن يبلغ تيه دلتاه · العمل El Persiles سيصير دلتـــا المجرى الشعرى لسرفانتس القريبة من أن تنحل فى بحـر الأبدية · والآن لندع جـانبا هـذه الأفــكار المسـتطردة والضرورية معـا ، ولنذكر أنه بفضـل القمص يبـدو الآن مفهوما ما كان من قبل غير مفهوم ·

ان المعـانى المبتذلة لكتـاب القمص والغمـوض غـير المستكشف لخوذة مابرينو لا يشتركان فى شىء مع مشكلة فهم واقع الموضوعات ، ولكنهما ـ ببساطة ـ طرق يحيا بها كل واحد الوقائع متمزجة بنسق وجءده ·ولا يمكن التطـلع الى فصل ما هو متمزجة بنسق وجوده ·ولا يمكن التطلع الموضوع فى حياة الذات · وقـد يعنى ذلك أن العلم يصبح مستحيلا · ففى سرفانتس على سبيل المثال الفعل « يبـدو Parecer » الذى يدور حوله أسـلوبه ، لا يشـــير الى فارق بين الأعراض والجـواهر ـ وقـد تم تعقيلها ـ انمـا يشير الى مثل : من المسـلم به أننى هـــكذا ، أو : أننى فى

موقف هكذا ، أو : ان هذا الشيء يبدوا لى هكذا (٨) · ان وجودا ما هو نتيجة سلسلة من الظــواهر (من : يبدو) · هكذا يتم الانتماء للحياة طبقا لما تظهره الأحوال دون الفصل اطلاقا بين تلك الأحوال وبين الحيــاة · وهذا مخــالف لاستعمال « يبدو » كأداة للوصول الى كينونة واقع الموضوع أو الذات ممموضعة ،مع فصل هــذا أو ذاك عن المظــاهر واستعمال « الآنا » المعقل والمنتزع من الاعراض الظرفيــة كمشرط قاطع أو عضو مفكر ·

ان تجريد « الأنا » وتعميمها ، وتفادى مواقف الحيــاة الخاصة بكل « أنا » جعل من الممكن معرفة الوقائع المجـردة والمفاهيم التى بها يقيم العلم وبها لا يلتفت الى ألم معــدة العالم أو مزاجه الحسن · ونتجيــة هذه التجــريدات كان الانتصار الفخيم للانســان الغربى على الطبيعة ، بتقنين قوانينها الحاكمة لظواهرها · ولكن هذا الانتصار أيضا كان غامضا مثل الحب الطيب والمجنون ، مادام هذا التجــريد لم يعن تجريد العقل المفكر فحسب انما كلية الانسان الموجود· ومثل ماكينة مفكرة صار الانسان ترسا من ماكينة كبرى ، وفقد خاصية الدخول الكامل فى الحياة بفضل اهمــال

---

(٨) يمكن تفسير ذلك بالمقارنة بين الاستعمال النحوى لهذا الفعــل فى اللغة العربية واللغة الاسبانية · ان الفعل فى العربية غالبا ما يتعلق به حرف الجر « لـ » سابقا لأحــد الضمائر « يبدو لى ·· له ·· لها ·· الخ » وهو يعنى « فيما أرى » ولا يختلف معناه اذا جرد من متعــلقه لأن المتعلق فى هذه الحالة مضمر فلو قال أحدهم « يبدو أنه لم يحضر » فهــو لا يتحدث موضوعيا وانما يدلى برأيه طبقا لحدسه · والفعل فى الاسبانية يستعمل بالصيغتين بنفس المعنى :

me parece (أيضا مع كل الضمائر) أو Al Parecer ·
ويدخل ذلك ـ وان لم يشر المؤلف ـ فى اطار استعمال أفعال أصبح وأمسى فى اللغتين ·

استعمال هذه الخاصية·وبدلا من أن يكون الانسان مهندسا لحياته انقلب الى شاهد غير واع بما ـ يجرى له ، «ولاشيء» يبدو له « لاشيء » · وحتى يبدو له « شيء ما » : « شيئا »، ينبغى أن تقول هذا الشيء له الجرائد والراديو والكتب ·· أو شكة دبوس قاسية فى قدم دام · وهكذا تفقد الأفعال الانسانية تكاملها مع أى هدف فى حدود الامكان ، بينما يمضى التجريد العقلى ينسكب فى عالم من المظاهر السحرية أيضا ، والنافعة ـ بعد ذلك ـ فى ارضاء احتياجات بيولوجية ، ولكنها مشئومة بالنسبة للجدارة الملائكية والخلاقة للانسان ·

ان هذا الاتجاه يفرز نتائج أدبية شديدة البعد عن نتائج الاتجاه الآخر (الاسلامى ـ المسيحى ـ الاسبانى) ، فالقمص يدعو الى توظيف كلية الانسان :« حسنة أو شريرة تلك النقاط ستقول لنفسك كيفما كانت تكون يقينا » بفرض أن اليقين ليس هو الأشياء ـ بيضاء أو سوداء ، جيدة أو رديئة ـ وانما ما تكونه أنت فى مواجهتها ·وفى ارتياع أمام هذا الواقع السحرى والمرتعش فان الذات المتكاملة التى تحياه سوف تتحقق بشكل مدهش · ومن المسلم به ، أن العالم يموج بنا ، وبدون سيرنا فوقه بارادتنا وبعبقريتنا لظلت قشتالة ـ وبالتالى اسبانيا ـ امتدادا للشمال الافريقى ، ولكانت اسبانيا ستظل هكذا بدون سرفانتس وجويا وبدون آلاف ممن لهم نفس القدر · وأيضا من الاتجاه الديكارتى للرجل المنغلق على نفسه منعزلا عن الله والعالم انبثق أدب فرنسا المفكرة العظيم · وكلا المفهومين للحياة أعطى نتائجه الحديثة والغالبة تماما دون تفريق بينهما، لكن ـ أيضا ـ بدون النهضة الاسبانية الشرقية فان أدب

أوربا كان سيظل سابحا فى تفاهة لا تحتمل ، وأعنى هنا كل أجناس الادب فما كان سيبزغ للوجود قط المسرح الفرنسى ولا الرواية الفرنسية ٠

من الناحية الفنية يتساوى فى الحداثة الرجلان اللذان ـ يحمل أحدهما ظروفه بيتا له مثل القوقع ، ويبتر الآخر منهما فى حزم ـ فطريته أو جوهره فى خارج عنه يخلو من المظاهر والظروف التى تتجاوزه ٠ من هنا تنبثق المناجاة الداخلية البالغة الجمال لأبطال راسين محتملة وممكنة بعد تأكيدات كورنى من أمثال قوله « أنا سيد نفسى وسيد الكون » ٠ ولمدة قرنين من الزمان تم نسيان وجود عالم مواجه فى الأدب الفرنسى ، عالم تطأه الأقدام الطاهرة أو الدنسة للناس مع جوع للخبز والله وأحيانا للشيطان ٠هذا الفن بدون عالم أطلق عليه « الذوق الحسن » ٠ ولو استمر الأدب الفرنسى فى هذا الطريق لتحول الى شبح لنفسه ولكن لحسن الحظ ، فان الأوربى الرومانتيكى عاد الى تفتيح العيون ، من ثم عادت الى الانبثاق الوقائع التى تتكامل مع الخبرة الكلية للحياة ٠ فالأشخاص لم يعودوا فقط يبنون على ما ينبغى أن يكون انما أيضا على ما يصل بما يحدث فى العالم من حولهم ، من ثم يتقارب الحادث مع ما يجب أن يحدث فى تبادل يجعل أحدهما يخترق الآخر داخل توحد الارادة ٠ وهنا سيعزى ذلك الى اسبانيا حتى دون معرفة بأن هذا الشىء يعنى العودة الى صيغ الحياة والفن عند القمص الساخر سلف سرفانتس ٠ وفى كتاب « الأحمر والأسود » يتحدث ستندال عن جوليا سوريل : « ان خيالها يعيد استخدام الأفكار الأكثر مبالغة ٠٠ الأكثر اسبانية ٠٠ ان روحها تحلق فى السحاب » وقد قرأت جوليا سوريل

- أيضا - أحد كتب الفروسية الاسبانية وهو كتاب « ذكرى سانتا هيلينا » · وبفضل تلك القراءة تفزع حيـــاتها الى النثر ، وتمضى بها نحو الدور الذى تحب أن تلعبــه ، وفى نفس الوقت نحـــو استمرارية كينونتها بين أطر وجودهـــا الذاتى - اذن : فمن هى جوليا سوريل ؟ انهـــا نفس قمص هيتـــا ودون كيخوته وابن حـــزم ، أولئك جميعا ممن كانت ذواتهم موضوعا لحياتهم الشعرية والواقعية على حد سواء· ووراء هؤلاء الرجال نلمح صفا بلا نهاية من :« أشخاص - شخوص » مكشوفين وقابلين للانعكاس ومشحونين «بالحلم - المراقبة » لوجودهم · ومن هى مدام بوفـــارى ؟ هل هى ريفية دون ماكيـــاج ؟ أم شخصية ذات فطرة رومانتيكية ؟ انها ككل شخصية روائية ، ما تحمله ليس الا كائنا انسانيا يتكلف أن يصهر وجوده عازفا بطريقته على معزف العالم ، كل العـــالم · وبالنســبة لهـــذه الشخصية يصبح - أمرا لا مفر منه - أن يخترق الكائن الحى المنطقة المبدعة بدافعه الحيوى ، وأن يتطلع لصنع وجوده بين الأمل وبين الاحباط· وكم هو ممزق الى شـــظايا ومختلط ذلك الـــذى نلتقى به فى كتاب الحب الطيب :

اذا رغب بعضهم فى الحب المجنون ء لو بدا له حسنا)، فتلك لحظة اخفاق بعض الوسائل لهذا الحب !

الدافع الحيوى والقدرية والشخصية :

لكن ···· لا يوجـد فقط فى كتـــاب « الحب الطيب » خيالات متلاشية ورسوم دبت فيها الحياة تتراكب صورها وتتقـــايض دون توقف ···· انمـــا تحت تبـــادل الألوان والعواطف والشـــخوص والمعـــانى يكمن « شىء ما » ليس

مظهرا بسيطا دائم الهجرة (أرابيسكيا) نحو معرفة الاتجاه أو الدافع الحيوى المعبر عنهما بكل كائن حى أو محقون بالحياة من تلك الكائنات التى تدب فيها الحياة بفضل ما وضعه الله فيها أو ما وضعته النجوم من جبرية قدرية تصير وجودها : هذا الوجود الذى يتم التعبير عنه من داخله . وهكذا يبدو كل وجود ذا طابع أو شخصية وليس مجرد شىء محكى أو موصوف :

جاء التيس الجبلى مع الأيائل والحمامات البرية

جاء .. يصب لعناته وتهديدات كثيرة

ان اللعنات ودواعى العنف تعد شيئا أصيلا ينبع من حيوان شبق ، وليست من الأشياء التى يفرضها الشاعر . ثم يأتى استمرارا لما سبق الثور ، وهو حيوان خطر ، وخائر القوى قد طفح منه الكيل بسبب حرث الأرض :

جاء خطواته المتعثرة ... ذلك الثور العجوز

ومع استخدام ضمير الهاء فى موقع المضاف اليه (الملكية) فى تحديد وحتم ، يخلق النعت والتعريف الأساسيان مجازات منجزة شديدة الحيوية تنضبط عليها شبكية العين فى استقرار كامل :

كن كالحمامة نظيفا ورصينا

كن كالطاووس ناضرا ومطمئنا

ولا توجد « وصفة أو توليفة » لأى محاولة شعرية فى العصور الوسطى) تستطيع أن تقدم تعليلا لفن رقيق ملىء بالحياة مثل :

« ان الأخطبوط لا يتيح للفراشات أن تتوقف ،

حيث أنه له أيد كثيرة ،فله القدرة على مصارعة حشود»

ان كل كائن حى يبدو مثبتا على خاصية تميزه ٠وليس هذا شبيها بنظرة الطبيعيين أو الأخلاقيين ، انما هى خاصية تتطور فى التعبير نابعة من الداخل نحو الخارج مناشدة تعاطفنا وموافقتنا ٠ ولا أعرف أعمالا (فى العصر الوسيط) تنتمى لنفس الفترة تحمل ملاحظات مجردة بهذا القدر من الحيوية المجازية والساخرة التى تخلو من جو أقحمه الشاعر على موضوعه :

وكان أمام (دون كارنال) ملازمه المطيع

ركبته مسمرة ، وفى يده البرميل ٠٠٠

الذى كان يدق عليه كثيرا دق الطبول

مضى الجميع ـ فى نعاس ـ الى المشاجرة

الأول منهم الذى جرح دون كارنال

كان الكلب أبيض الرقبة

ان الأصوات تتدافع فى تناسق تدق وترا حساسا ينبع من أصوات « الكائن » الذى يتحدث عنه الشاعر وينفجر معها الواقع حيا ومؤنسنا فى خلق فريد لعبقرية خوان رويث التى ربما كانت أمرا مستحيلا بدون وجود التراث العربى ـ اليهودى الذى تشرب اكليلا من القيم جعلت كل شىء مدركا ٠ ان الحياة تدفق لانطباعات حساسة وجميلة : الهرمونية الموسيقية لأناس مبتهجين

يرون كل شىء مسخرا لهم (٩) • والشاعر يهتز بكل هــذه الأشياء الحلوة • واذا اقتصر كتــاب شــاعرنا على تعبير غنائى محض يقدم عالما من انعكاسات وتموجات جميلة فان فنه ما كان يتعثر قط • لكن الأمر مضى مع رغبته فى ادخــال أفعال انسانية ، وهذه تحتاج لدعم أخلاقى كهدف وطريق ، ومن ثم فالعمــل يضيع بهذا فى متــاهة من الانعطــافات والخلط • وانه من السهل أن يلف الشاعر الجوانب الحــلوة للأشياء الحساسة دون أن يدخل فى تحــريات عمــا هى ، الأشياء ولمن هى • لكن تبدأ الصعوبة عند ادخال حيــوات انسانية فى تلك اللعبة الحلوة لأنه حينئذ عليــه أن يوجــه تلك الحيوات متنبئا بأشكال ردود فعلها • ان كل ما يعرفه الفمص هو أن الأفلاك تتدخل فى الظروف الانسانية ولايفهم من ذلك سوى ما يرد فى شعره من أمثال : « ثور برسن » • ولكى يعقد الأشياء أكثر فانه توجد أشــياء حلال وأشــياء أخرى حــرام ، ومن الصعب المصــالحة بينهما أمــام لذة الاجتماع بامرأة شهية • ان الاناث أولئك المغــويات تحت رقابة الاخلاقيات القشتالية من ناحية ، وتحت صون شعب من المسلمين الحذرين مما يؤسس دائرة من الصعب كسرها • فعلى المستوى العاجل يوجد الحمقى الذين يكتشفون الأسرار والفريات مما يعقد لهم كل شىء • وأحيــانا يتدخل حتى الموت نفسه لينتزع المرأة المحبوبة حيث أن الحياة والحب - على حــد ســواء - غير يقينيين • كذلك يوجد رسل غير مخلصين يحتفظون بالغنيمة لأنفسهم تاركين سيدهم الذى

---

(٩) الأساسى فى تحديد القرآن للعلاقة بين الانســان والعــالم هو تسخير العالم للانسان لتتحقق له منه المنافع والزينة معا فالتسخير هنــا يحقق البهجة عبر المنافع والزينة لأن المال - وهو رمز للمنــافع - يعـــد زينة الحيــاة الدنيــا •

أرسلهم فى موقف يثير السخرية ٠ ان الشاعر المحب يفقد الاتجاه لان لا شىء يقينى فى عالم المواقف المتبذلة ٠ من هنا يبدو أن البقاء فى السرير مريضا أفضل من الخروج لتصيد المغامرات :

شاب مريض ، شاب مريض ، المريض أفضل من الصحيح لأنه فى لفظ آخر « الضجة أفضل من الجوز » من هنا يمضى العنصر الأخلاقى فى الكتاب دون هدف : وفى الحقيقة فالحب الطيب ينبغى أن يشكل جوانية الكتاب بينما يشكل الحب المجنون برانيته لكن الطيب والمجنون كالأبيض والأسود فى العنكبوت كل منهما يصلح غطاء للآخر ٠ من ثم فانزلاقة للقلم يمضى معها الحب الطيب لله ، وقد انقلب الى حب القوادات :

من أجل حب العجوز ومن أجل قول الحق
سميت الكتاب الحب الطيب ٠

ومنذ ذلك الحين وهبتنى العجوز كثيرا من العطايا لا ذنب دون عقاب ، ولا خير دون ثواب ٠

وليس ذلك نكتة وليس هو غير ذلك ، لأن الكتاب ينقلب من الضد الى الضد ٠ فمن يعرف قلبا ثابتا غير متقلب اذا كانت قلوبنا بين يدى الله فضلا عن وجودها تحت رحمة الأفلاك الوسطاء بيننا وبين الله ٠ ومن المؤكد ، ودون أدنى شك ، ايمان الكاتب المسيحى (كما يبدو فى أغانيه للعذراء)، ومع ذلك فان الروح الشاعر للمؤلف تروح وتجىء فى مسالك أدبية واخلاقية للاسلام ٠ واذا كتبنا عن الاخلاقيات فى اسبانيا المسيحية قبل القرن الخامس عشر ستبدو صبوة

ساذجة اذاقارناها بمحاولة ابن حزم الهائلة والمقروءة قليلا في كتابه « الاخلاق والسلوك » الذي مكنا من قراءته آثين بلاثيوس عام ١٩١٦ ، فلا شيء في أوربا القرون الوسطى يمكن أن يداني هذه المحاولة بل ينبغي أن نؤخر عنها محاولة القديس أغسطين وأفلوطين واغريقيين آخرين لكن نلتقي بتلك الادراكات الرقيقة الدقيقة لمشكلات الروح ، كما تبدو في هذه الأمثلة (١٠) ٠

« من جالس الناس لم يعدم هما يؤلم نفسه ، وانما بندم عليه في معاده ، وغيظا ينضج كبده ، وذلا ينكس همته ٠ فما الظن بمن خالطهم وداخلهم ؟ الزم الراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم ولكن اجعلهم كالنار تدفأ بها ولا تخالطها » (ص ١٦) - « التهويل بلزوم زى ما، والاكفهرار ، وقلة الانبساط ستائر جعلها الجهال - الذين مكنتهم الدنيا - أمام جهلهم » (ص ١٨) - « منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة ٠ وهو أنه يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة ، ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله ، والثناء الردىء فينفر منه ٠ فعلى هذه المقدمات وجب ان يكون للعلم حصة في كل فضيلة ، وللجهل حصة في كل رذيلة ٠ ولا يأتي الفضائل من لم يتعلم الا صافي الطبع جدا ، فاضل التركيب ٠ » (ص ١٤) - استبقاك من عاتبك وزهد فيك من استهان بشأنك ٠ العتاب للصديق كالسبك للسبيكة ، فاما تصفو واما تطير ٠ من طوى من اخوانك سره

---

(١٠) لم أستطع أن أجد في رسائل ابن حزم التي وقعت بين يدي ترجمة حرفية لما أورده الكاتب من أمثلة ، فاستعنت بنصوص قريبة في معناها وادخل في مغزاها فيما أراد من شواهد ٠

الذى يعنيك دونك أخون لك ممن أفشى سرك ، فانما خانك فقط ومن طوى (١١) ســـره دونك منهم ، فقــد خـــانك واستخونك ٠ » (ص ٢١) « ٠٠ وكل ما لا نفع له فى الدنيا فهى منفعة وتحة لسرعة خروجنا من هذه الدار ، ولامتنـــاع البقـــاء فيهـــا ، وكل ما ينقضى فكأنه لم يكن وكما يقــول يحيى :

وما هذه الدنيـــا ســوى كر لحظــة

نـعد بـها المـــاضى وما لم يحن بعد

هى الزمن الموجــود لا شىء غــيره

وما مر والآتى عديمان يا دعد (١٢)

واذا نظرنا الى هــذا القــول الأخير فالدنيا سلسلة من الخدع، وواحدة من تلك الخدع ـ طبقا لأثنين ـ ما حدث له مع فتاة كانت تعيش فى قصر والده ٠ ويشير الى ذلك فى طوق الحمامة ٠ وسأنقل ما قصه حول ذلك لكى نرى المشهد الروحى والفنى الشامل الذى وجده أمامه الاسبانى المسيحى الذى أدار وجهه دائما نحو الجانب الاسلامى من اســبانيا (الأندلس) : « وانى لأخــبرك عنى : أنى ألفت فى أيـــام صباى ، ألفة المحبة جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما ، وكانت غاية فى حسن وجههـــا وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ،

---

(١١) هذه النصوص من رسالة فى مداواة النفوس ٠٠٠ لابن حزم نشرة مطبعة النيل بمصر ١٣٢٣هـ ٠

(١٢) هذا النص الأخير من رسائل ابن حزم نشرة : احسان عباس ـ مكتبة الخانجى بمصر والمثنى ببغداد (بدون تاريخ) ٠ ص ٤٤ ٠

منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائما القطوب ، حلوة الاعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان فى المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، وموقوفة على الجد فى أمرها ، غير راغبة فى اللهو • على أنها كانت تحسن العود احسانا جيدا، فجنحت اليها وأحببتها حبا مفرطا شديدا ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة ، وأسمع من فيها لفظة ، غير ما يقع فى الحديث الظاهر الى كل سامع ، بأبلغ السعى ، فما وصلت من ذلك الى شىء البتة • فلعهدى بمصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخى رحمه الله ، من النساء ونساء فتياتنا ، ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدرا من النهار ثم تنقلن الى قصبة كانت فى دارنا ، مشرفة على بستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها ، مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال السراجيب ، وأنا بينهن ، فانى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه ، أنسا بقربها متعرضا للدنو منها ، فما هو الا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب ، وتقصد غيره فى لطف الحركة ، فاتعمد أنا القصد الى الباب الذى صارت اليه،فتعود الى مثل ذلك الفعل من الزوال الى غيره• وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لانهن كن عددا كثيرا ، واذا كلهن يتنقلن من باب الى باب ، لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات

لا يطلع من غدرها عليها ، واعلم أن قيافة النساء فيمن يميز اليهن أنفـــذ من قيـــافة مدلج فى الآثـــار • ثم نزلن الى البستان فرغبت عجائزنا وكرائمنا الى سيدتها فى ســماع غنائها ، فأمرتها ، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لاعهد لى بمثله ، وان الشىء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه، ثم اندفعت تغنى بأبياتها العباس بن الأحنف حيث يقول :

انى طربت الى شمس اذا غربت

كانت مغاربها فى جوف المقاصر

شمس ممثلة فى خلق جـارية ★

كأن أعطـــافها طى الطـــوامير

ليست من الانس الا فى مناسبة

ولا من الجن الا فى التصـــاوير

فالوجـه جوهرة ، والجسم عبهرة

والريح عنبرة ، والـكل من نور

كأنها حين تخطـو فى مجاسدها

تخطو على البيض أو حـد القوارير

فلعمرى لكأن المضراب انما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ، ولا أنساه الى يوم مفارقتى الدنيا » •

★ يورد الكاتب من هذه المقطوعة هذه الأشطار الثـــلاثة ولا يورد باقى المقطوعة •

ها هنا النثر ينزلق الى الشعر ، وابن حـــزم يكتب مقطوعتين من الشعر حيث يزدهر موضوع هرب الحبيبة كما لمحت الجارية نفسها فى حديثها عن غروب الشمس (١٣) ويواصل ابن حزم الحكاية : كيف أن أسرته كان عليها أن تنتقل الى مكان آخر من قرطبة فى نهاية فبراير ١٠٠٩م (جماد الآخرة ٣٩٩هـ) ، وكان ذلك فى لحظة تحطم الخلافة ، وظهور الحروب الأهلية التى كانت مأساوية بالنسبة لاسرة الشاعر ٠.ويموت أبوه الوزير فى ٢٢ يونيو ١٠١٢ (آخر ذى القعدة ٤٠٢هـ) ، وبين النادبات فى جنازة لواحد من أهله ـ فى اتصال مستمر للحزن بعد موت أبيه ـ يلتقى بمناة أحلامه ٠ وكانت رؤيتها ٠٠ (كما يصف بنفسه) قد « أثارت وجدا دفينا ، وحركت ساكنا ، وذكرتنى عهدا قديما، وحبا تليدا ، ودهرا ماضيا ، وزمنا عافيا ، وشهورا خوالى ، وأخبارا بوالى ، ودهورا فوانى ، وأياما قد ذهبت ، وآثارا قد دثرت ، وجددت أحزانى ، وهيجت بلابلى ٠ على أنى كنت فى ذلك النهار مرزا مصابا من وجوه ، وما كنت نسيت ولكن زاد الشجى ، وتوقدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسقف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا فلباه مجيبا :

---

(١٣) المقطوعتان هما :

(أ) لا تلمها على النفار ومع الـ ... وصل ما هذا (لها) بنكير
وهل يكون الهلال غير بعيد ... أو يكون الغزال غير نفور

(ب) منعت جمال وجهك مقلتيا ... ولفظك قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوما ... فلست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعرا ... هنيئا ذا لعباس هنيا
فلو يلقاك عباس لأضحى ... لفوز قاليا وبكم شجيا

ولم يورد أميريكو كاسترو المقطوعتين رغم اهميتهما فى تأييد قضيته ٠ ويلاحظ أن البيت الأول مكسور فى المقطوعة (أ) ويسلم الوزن والمعنى جميعا باحلال (عندها) محل (لها) ـ راجع الطوق ص ١٤٦ ٠

يبكى لميت مات ، وهو مكرم
وللحى أولى بالدموع الذوارف

فياعجبا من آسف لامرىء ثوى
وما هو للمقتول ظلما بآسف

ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر فخرجت من قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة،وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ٠ ثم دخلت قرطبة فى شوال سنة تسع وأربعمائة ، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك ، وماكدت أميزها حتى قيل لى هذه فلانة ، وقد تغير أكثر محاسنها وذهبت نضارتها ، وغاص الماء الذى كان يرى كالسيف الصقيل ، والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النوار الذى كان البصر يقصد نحوه متنورا ، ويرتاد فيه متخيرا ، وينصرف عنه متحيرا ، فلم يبق الا البعض المنبىء عن الكل والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها ، وعدمها الصيانة التى غذيت بها أيام دولتنا ، وامتداد ظلنا ، ولتبذلها فى الخروج فيما لابد لها منه ، مما كانت تصان وترتفع عنه قبل ذلك ٠وانما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت ، ولذلك قال من قال : ان حسن الرجال أصدق صدقا ، وأثبت أصلا ، وأعتق جودة لصبره على ما لو لقى بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير مثل الهجير والسموم والرياح ، واختلاف الهواء

وعدم الكن ٠ وانى لو نلت منها أقل وصل وأنست لى بعض الأنس لخولطت طربا أو لمت فرحا ، ولكن هذا النفار الذى صبرنى وأسلانى » (١٤) ٠

لو أن أحدا فى العصور الوسطى المسيحية كتب صفحات كالسابقة لوضع اليوم بين عباقرة الأدب الأوربى (١٥) ومع ذلك فلم يخبر مهارة هذا المسلم القرطبى النقاد الفنيون والمتذوقون للجمال المرسوم فى كلمات ولا حتى السيكولوجيّون قد نهضوا بعمل حول هذه الغنوات الحلوة٠ وعلى الرغم من ذلك يقول المسلمون : « الله وحده يحق الحق » ٠

وأمام القمص ينطلق ابن حزم عالما من الجمال والشك، من القيم والبهجة ، وفى نفس الوقت من الحزن العميق ٠ ولا يناسب تجاهله أو عدم وضعه فى اطار القيادة الأخلاقية، فى الوقت الذى قام فيه خوان رويث بفكه (ابن حزم) فى لعبة كوميدية ، وفى مبهمات صالحة للتلويح لمشكلة غير قابلة للفك ٠ من ثم ، فان الشعر الشخصى والمباشر فى طوق الحمامة يظهر فى كتاب الحب الطيب كفجوة شديدة الوضوح فما هو عند ابن حزم « شعر باعث للحياة » سيصير عند خوان رويث شعرا لموضوعات ، وشخوص « ذات أسلوب » خلاله لا يجرؤ على ابراز الانسان المحدد الذى يعيش فى

---

(١٤) طوق الحمامة ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ٠

(١٥) يعتذر الكاتب هنا عن أن الترجمة ستكون فقيرة بالنسبة للأصيل ولاسيما الشعر وخاصة انها ترجمة الى الاسبانية عن الانجليزية من A.R. Nykl, p.p. 157-162 ولاشك أن القارىء العربى لهذا العمل لا يحتاج لهذا الاعتذار لأن النص العربى بين يديه دون واسطة ٠

المكان والزمان ٠ ان فن ابن حزم « بالقوة » كان عليه أن يجرى مثل سحارة تحت قلعة الملحمة والاخلاق المصهورة على يد الموسيقى الشاملة الطيبة للكونت فرنان جونثـالث ٠ لكن يكفى ادراك « شىء ما » عن الضجيج تحت الأرضى لهـذه التحف - التى لم تكن الوحيدة يقينا - لكى يكون اسـلوب القمص ناضجا بالبريق والحيوية التى تدهشنا حتى الآن٠ ان كتاب أغانيه (عن الحب الطيب) ليس عملا عربيا بقـدر ما هو مدجن مثل الحفر الذى أقدمه مقـابل هذه الصفحة ، والتى باعتها اسبانيا المدمرة - دون وعى بنفسها - لتصير ضمن تحف الجمعية الاسبانية فى نيـويورك ٠ فى هذه اللوحة يبدو اطار قرطبى مسيحى أوربى محاط بزخـرفة أرابيسك ذات خطـوط مفتوحـة دون نهـاية أو توقف فى محاولة لصيرورة لا يمكن الامساك بها تتبادل بين الداخل والخارج ، وتقفز من المرح الى الاحباط ، ومن الحب الطيب الى الحب المجنـون ، ومن « دولثينيـا » الى « مـارى تورنيس » ★ ٠

والآن بجانب الشك الكوميدى والمرح يتجول خـلال عرض كتاب الحب الطيب جدس من الحيوية والثبات ، مما تعبر عنه اللفظة « يعمل » : « العالم يعمل عن طريق شيئين لكى يغذى الانسـان ويجـامع الانثى ٠ وانهـا سخرية أو لا سخرية» فالتلميح لأرسطو فى هذه الفقرة يكشف اهتمام المؤلف بالحياة الأرضية (الدينوية) فى نفس الوقت لايقال ثمت شىء حـول استيحاء السـماء التى كان ينبغى طبقـا

★ مجموعة الأسماء الواردة هنا تشـير الى شخصيات وردت فى اشعار كتاب الحب الطيب ٠

لتقاليد العصر أن تشغل المكان الأول · وليكن الأمر ما يكون، فان القمص يعالج مدنيا (١٦) مشكلة الحيـــاة ، ويمركزها فى العمل الحيوى رغم أنه لا يقول شيئا ضد المغزى الدينى أكثر من اعترافه أن رحاب الكنيسة تؤدى وظيفة الملجأ لمن له زوجة دميمة أو لمن لها زوج عنين · ان الاهتمـام الخـــلاق للشاعر قد وضع كل متعة فى عالم الكائنات الحيـــة أو فى احيائه كفنان بأسلوبه المقتدر « ذلك الكلب السلوقى الخفيف الحركة العداء والشرس » · كل شخص ، كل حيـــوان ، كل شىء يرى من منظـور وظيفته الحيـوية ، دونيـا اندرينا القوادة،الاخطبوط ،الثور ، الاتون أو الآلات الموسيقية★ ان هذه الـكائنات ليست موصـــوفة فحسب بل مرئيـــة ومحسوسة ومعبر عنها من داخلها الذاتى فى نسق «حديث» وخلق وتعبير حتى تغدو فكرة قد اصبحت مألوفة لدينا · وفى نفس هذا النسق يوجد الكتاب أيضا، ذلك الكتاب الذى يعيش ويشع أشعاره الجميلة والغريبة تماما مثل الأخطبوط الذى يستطيع أن يصارع لأنه يحمل أيد كثيرة · ان هـذه الطبقة التحتية للحياة مخلوقة ومبعوثة ، ليست متصلة بأى نسق ولا محددة فى صور من لحم وعظم ، ولهذا فان كتـــاب القمص ليس دراما ولا رواية وان كان فى اهـــابه بـذور الاثنين · انه ـ ولاشك ـ عمل غريب ومثير ، يجعلنا ندرك ـ عن قرب ـ عمل التاريخ الاسبانى متدفقا بقوة المصير بين الشرق والغرب ·

---

(١٦) يراد بلفظه مدنى : باسلوب لا يلجا للدين ·

★ أسماء وأدوات واردة فى كتاب الحب الطيب داخل أقاصيصه ·

وللسبب السابق تصبح مهمتنا دقيقة لو حاولنا التمييز في عمل القمص بين كينونته مسيحيا أو شرقيا وذلك في حالة الاستغناء عما يكشف عنه اسلوبه ٠ونفس الغموض في شعره هل يرجع للأسباب السابق ذكرها ، أو أيضا لأنه صدى للأدب العربي ؟

الشعر ـ كما يقول شاعر فارسي ـ هو الفن الذي بفضله تتصرف الفروض الخيالية واستقراءاتها بطريقة تمكنها من جعل شيء صغير يبدو كبيرا ، وشيء كبير يبدو صغيرا ، أو أن الطبيب يرتدي زي الشرير ،أو الشرير يرتدي زي الطبيب ، وهكذا يتصرف في عالم الخيال مثيرا للغضب والشهوة فتنطلق الطباع أو تستحق ٠ بالشعر يحقق الشاعر انجاز أشياء عظيمة في نظام العالم ٠

ولهذا يبدو مبررا عند خوان رويث امتداح السيدات الشابات اللائي لهن أسلاف شرقيات ، وان لم يكن ممكنا اثبات هوية هؤلاء الاسلاف في الحفيدات ٠

وشاعر فارسي آخر يقول : الشاعر لا يملك الا قص الاكاذيب أو اضحاك الناس حيث أن الشعر يتبع الحياة الانسانية والطبيعية ، وهما ينتميان الى متاع غرور هذا العالم وهما أيضا زائفان ٠ وزاهد آخر مشهور ومعاصر لابن حزم وهو المعري يتحدث عن ظن الناس فيه الزهد بينما هو غير زاهد انما فقد أدوات الاستمتاع بلذات الدنيا ٠

كل هذا يمكننا من ادراك شيء عن الاتجاه والأصول الأدبية عند القمص بشكل يتجاوز حنيثنا عن معرفة هذا القمص للشعر-اللاتيني ٠

نحو مغزى القوادات :

ان اسم القـوادة يكشف الحجـاب عن نفس جـوابة آفاق عند القمص : نحن أمام حماس مشاء لن تنزلق نظرته على كل الاشياء دون النزول فى منزل مستقر عند واحـدة من هذه الأشياء • مثل هذا العيش هو مرور مستمر من هـذا الجـانب الى ذاك فى تجـول وركض وذهاب وعـودة ، من المدينة الى سلاسل الجبال ، ومن الريف الى بحر « الدونيا كواريسما » هذا البرق غير المقيد يجد عديلا له فى حـركة العالم من حوله دون توقف جوهرى فى ميناء هادىء ، اللهم الا المواجهة فقط مع الكد العاجل والفتان للعيش مع فيضان الاصوات الموسيقية أو الطبيعية مع الحياة المنزلقة أبـدا للقس منـذ صـلاة الفجر حتى اكتمـال اليوم ، المصحوبة برقصات وذهاب وإياب لرسائل حب مع « دونيا اندرينا » عابرة الميـدان مع الفتيـات الماجنـات يسرعن فى مشيتهن الفضفاضة فى جرى من دير الى دير ، من تلك الاديرة التى يتحرك داخلها ويركض بين الحب الالهى وحب القساوسة•

هكذا ينفتح أمامنا منظور مغر : المشى من مـكان الى مكان آخر ، ومن حب الى حب آخر يعد أمرا يمكن مقارنتـه بتنقل الشاطر من سيد الى سيد آخر ، وكل واحد من هؤلاء يبدو باطنه وظاهره متبادلين • ان الشطار فى حـكايات الشطار فى القرنين ١٦ ، ١٧ كانوا اسـبانا عاجـزين عن تحقيق الذات فى عمل بطولى لخلوهم من البطولة فانطلقوا يجدون الملجأ فى حيـاة الآخـرين أو فى حاجيـاتهم ، التى يتعثرون فيها خلال خببهم بطول وعرض العالم الشاسـع ، وحيث أنهم لم يجدوا شيئا يتسم بالموضوعية التى يمكن

الاتــكاء عليهــا صــار الكرسى يغوص بهم حين يجلسون
ويتبخر شرف الفتاة المدعى حين يصدمون بها :

وبرغم أنفها قالت لى العجـوز مرات عديدة

أيها القس نســمع ضجيجا ولا نرى طحنــا

ان تقلبات الشاب الشاطر ذى الأسياد الكثيرين هى فى آخر لقطاتها شىء مثيل للتحولات الغرامية للقمص انطلاق فى انطلاق دون سكون ٠ ان حكايات الشطار تحاول من جديد تقديم الحياة كانزلاق فوق حيوات أخرى موجودة فى شــكل جوانب متعددة لشخصية سرابية ٠ ومؤلف حكايات الشطار لم يكن يتطلع الى وصف العادات أو تقديم حيوات فاشلة ولا حتى الهروب بالزهد من العالم٠ان خوان رويث والشطار والزهاد حاولوا سلوك الصيغة الوحيدة للحيــاة التى كانت متاحة لهم فى العالم الذى اقترب منهم بذلك اللا ادراك الذى يشمل كل شىء الا جوانب الأشياء والأشخاص ٠ ان القمص قد قبل ـ بابتســامة مرحـــة ـ القصف والركض المســلى لتفاصيل تجربته (صيغ ـ ألوان ـ أصوات ـ حركة) ، تلك التفاصيل التى كانت تحمله من جانب الى جانب آخر مع أن الزهاد فى القرن ١٦ كانت المواجهة مع الخداع المحض للعالم تسخطهم بشكل مخيف كمــا نلاحظ فى كتــابات « بيــاتو ألونسو دى أورتكو » و « ألونســو كابريرا » على ســـبيل المثال ٠ ان اسبان القرن ١٦ كانوا يحسون بالضجر من ذلك المسكن الذى بعثــه له المعمــاريون والبنـــاءون ذو الروح الاسلامية المفروضة عليهم فرضا على يد اليهود المحبطين ٠ ولكن أيضا لأن هذا المعمار المبعوث من جديد ، قد بعث تحت دوافع ، ولأهداف غير معروفة فى المشرق فانه لا يتعين عليه

أن يطل دائما بوجهه على عالم الاستحالات الذى خلفه لــه تاريخه الذى لا فكاك منه ـ ان مسيحية هذا المعمار ـ المشار اليه ـ ويهوديته الجزئية ، قد جعله يتطلع الى وقائع وقيم لايقلق المسلم غيابها عنه،وان كانت موضع اهتمام الاسبانى الذى كان يتلوى يأسا تحت جمهرة من محاولات التزهــــد (آلاف عــديدة) ، أو يمضى لا يــلوى على شىء فى طــريق خداع • وفى مشارف هذه الحياة الانسانية التى فجرتهـــا حكايات الشطار ـ التى كان البطل فيها ليس الشاطر وانما انبطل هو العالم من حول الشاطر ، ذلك العالم الذى يؤكــد خياليته فى عناد ، بجــانب مظهره المجــرد فى مواجهــة كل أحمق يدعى وجود أساس أكثر صلابة لهذا العالم المظهرى :

ان الذى يسعى لأكثر من خبز القمح ، يسعى بدون عقل هذا هو نفسه ما نجــده ـ فى عبــارة أخرى ـ عند سماع الترحيب الحمــاسى بدون خــوان فى حــكاية « غشـــاش أشبيلية » :

لكن •• آه •• اننى أكد دون جدوى

•• آه •• من توجيه الضربات للهواء

لقد كان من الملغز لى شخصية مثل « يترسو دى مولينا» راهب صالح لاشك، ومع ذلك فهو مؤلف لكوميديات تؤكد أن فى مدريد (عصره) فى القرن ١٧ كانت حتى الملائــــكة حبلى لأن فتاة وبلاطا يولدان التناقض • ومع تعودنا عــلى عدم الدهشة مما نجــد فى التاريخ الاســبانى من ظواهــر غريبة تقبلنــا تسمية ترسو دى مولينــا باسم « بوكاسيو

اســـبانى (١٧) • ولكن أية صيغة للحيـاة وأى مسـتوى تاريخى يصلحان للامساك بهذا الوجود الغـريب ؟ اظن أن تيرسو دى مولينا فى جوانبـه الحاسـمة قابل لأن ينطبق عليه نفس النسق الذى انطبق على القمص كما كشـفنا من قبل • واذا مضينا نحو هدفنا سنتيقن أن شخصية « ماجن أشبيلية » التى تدين بقيمتها الخالدة لتيرسو دى مولينا ، ستحوز ـ فقط ـ معنى ، اذا عرضناها على صيغ حيـــاة اسبانيا المسلمة (الأندلس) وعلى القمص ، وأخيرا على ابن حزم ، ان نمط دون خوان كان سيخلو تمـــاما من أى مغزى فى الأدب القــــديم ، وفى الأدب الأوربى ، والســــوابق الفولكلورية لهذا النمط التى استخدمت كأصل لدون خوان اقتصرت على بعض الطرف الضبابية بينما نجد دون خوان يقفز من حب الى حب آخر مثل شخص القمص فى كتـــابه حتى أنه يتفصص الى جوانب لحب فى تطور أرابيســـكى بلا نهاية دون التعمق فى أساس الانسانية ذات ثبات • ان تولد الشكل لمثل هذه الشخصية يصبح ممكنا فقط فى العالم الاسلامى الذى يظهر فى بدايات القرن الحـــادى عشر فى أعمال ابن حزم ويذهب خيالى الى أنه يوجد قبل وبعد ابن حزم سوابق لهذا واجابات تكشف عن الأمر • ودائما وجـد وسيوجد رجالٌ يتصرفون مثلٌ دون خــوان ، ولكن امتلك الأدب العربى ثم الاسبانى فحسب وسائط متقلبة يتحولٌ ـ عبرها ـ الى صيغ فن مجون عشق نساء كثيرات ثم الملل منهن جميعا • ان العربى والاسبانى « المؤسلم » ادركا فى هذا الصنيع نموذجا آخـر يعزز اعتقـادهم من أن العـالم

---

(١٧) بوكاسيو كاتب ايطـــالى (١٣١٣ ـ ١٣٧٥) وهـــو مؤلف El Decame Bon

ـ لسبب أو لآخـــر ـ كان عرضا لجـوانب خادعة ، دائمـة الاستحالات · ان المقدرة على السكون الى حب امرأة وحيدة أحرزها الاسبان فى معالجاتهم للآداب الايطالية ولأفلوطينية النهضة (عند « جارسيلاسـو Garcilaso ، وهيريرا Herrera ... ·· الخ) فخلال القرون الوسطى كان الحب اما فى غيبة ،أو كان محاولة تشبه سلسلة من التجارب المتتابعة كأنها تدفق لتيار غرامى ، وهذا ما يحدث فى كتـــاب خوان رويث أو فى : Las Serranillas del Marqués de Santillana
غزليات الماركيز دى سانتيانا
اذا تركنا جانبا غراميات الفروسية المتأثرة بمادة بريطانية·

٭

ان الدون خوانية (وتعد عمـــلا عبقريا دون تحفظ تلك المحاولات لبيلجة ★ دون خوان Biologizar a Don Juan) دخلت الأدب لبعث عقيدة : أن كل جـانب من الواقع يتلاشى عند محاولة الاتكاء عليه فى دأب ارادى · وانها لمرآوية مثل معاناة الكلب الضخم الذى يحمل قطعة لحم فى فمه :

كلب ضخم قرم فى نهر كان يتجول
وفى الفم كانت تبدو قطعة لحم
وفى مرآة الماء شاهدها قطعة مضاعفة !
فاستهواه الطمع لصيدها : فسقطت من فمه ★

★ سمحت لنفسى اشتقاق مصدر من كلمة « بيولوجيـــا » المعربة وبناء عليه يمكن استخدام فعل منها « بيلج ـ يبيلج ـ بيلجة » ·

★ تتعدد التجليات المختلفة لهذه الموتيفة الشعبية فى الحـــكايات الشعبية العربية ·

وان الصبى الجرىء الذى كان يطلب من والديه أن يزوجاه بثلاث نساء انتهى أمره بأن يعترف بأن زوجة واحدة يفيض نصفها عن حاجته ٠٠ الخ ٠ وبمتابعة هذا الاتجاه ينال - تحليقا انسانيا وأدبيا - ذلك الحدث المعيب المتمثل فى السخرية من النساء التى تعد - فى آن - سخرية نسائية من الرجل الساخر أى من يسخر منه يصير ساخرا ممن سخر منه مما يرعق من توالى الضربات فى الهواء ٠

وان محبوبات الرجل المسمى بأبى عامر لارهاصة بدون خوان ، أولئك المحبوبات اللاتى يمضين فى وجودهن المملول مثل صور الفانوس السحرى الفتانة فى شبكية عين ابن حزم : « وأهل هذا الطبع (يريد : الملل) أسرع الخلق محبة، وأقلهم صبرا على المحبوب والمكروه والصد ، وانقلابهم على الود قد تسرعهم اليه ، فلا تثق بملول ولا تشغل به نفسك ، ولا تعنها بالرجاء فى وفائه ، فان دفعت الى محبته ضرورة فعدة ابن ساعة ، واستأنفه كل حين من أحيانه بحسب ما تراه من تلونه ، وقابله بما يشاكله ٠ ولقد كان أبو عامر المحدث عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد يأتى عليه حتى يملكها، ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، فاذا أيقن بتصيرها اليه عادت المحبة نفارا ، وذلك الأنس شرودا ، والقلق اليها قلقا منها ، ونزاعه نحوها نزاعا عنها ، فيبيعها بأوكس الاثمان ٠ هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا عشرات ألوف الدنانير عددا عظيما ، وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأب والحذق والذكاء والنبل ، والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض ، وأما حسن وجهه ، وكمال

صورته ، فشىء تقف الحدود عنه ، وتكل الأوهام عن وصف أقله ، ولا يتعاطى أحد وصفه ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويتعمد الخطور على باب داره فى الشارع الآخذ من النهر الصغير ، على باب دارنا فى الجانب الشرقى بقرطبة الى الدرب المتصل بقصر الزهرة لا لشىء الا للنظر منه • ولقد فات من محبته جوار كن علقن أوهامهن به ، ورثين له فخانهن مما أملنه منه ، فصرن رهائن البلى ، وقتلتهن الوحدة • وأنا أعرف جارية منهن كانت تسمى عفراء ، عهدى بها لا تتستر بمحبته حيثما جلست ولا تجف دموعها •• ولقد كان رحمه الله يخبرنى عن نفسه أنه يمل اسمه ، فضلا عن غير ذلك •وأما اخوانه فانه تبدل بهم فى عمره على قصره مراراً ، وكان لا يثبت على زى واحد كأبى براقش ، حينا يكون فى ملابس الملوك ، وحينا فى ملابس الفتاك • فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته ، على أى وجه كان ، ألا يستفرغ عامة جهده فى محبته ، وأن يقيم اليأس من دوامه خصما لنفسه فانا لاحت له مخايل الملل قاطعه أياما حتى ينشط باله ، ويبعد به عنه ثم يعاوده فربما دامت المحبة » (١٨) •

---

(١٨) الطوق ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ، ونكاد نحس بصدق تصورات اميريكو كاسترو بمراجعة هذا النص مع دون خوان حيث يبدوا ابن حزم وكأنه يملى على ترستودى مولينا كيف يكتب عمله ، وكيف يحدد معالم شخصية دون خوان • ومثلا بالنسبة لآخر فقرة فى نص ابن حزم ، فانها تظهر عند ترسو دى مولينا :

لا تسلموا اليه ••••
فتاة أو شيئا ما ، وبالتالى سيقدر قيمته
ويمكنهم فى هذه الحالة الثقة فيه •
فهو ينتمى للنبلاء
كان نبالته شوك يجلب المحبوب ومعه الثقة التى هو ليس محلا لها •

عند هذا الاستقراطى الهوائى محط الملل يوجد المنبـــع البعيد لدون خوان دى أشبيلية متمثلا فى ترجمة حلقاتهــا تختلف عن النص الذى بين أيدينا أو الذى يفلت من أيدينا. ان الشخصية الملغزة لماجن أشبيلية : كفاءات نبيلة لســيد عظيم فى تدفق لروحــه ولحســاسية أخلاقيــة تصب فى حساسية أخلاقية أخرى ، هذه الشخصية تمتلك الآن معنى تاريخيا تمتلكه معها الاستعارات الادبية المنتميـــة للأدب العربى عند لوبى دى فيجا ، كالديرون دى لاباركا ، مثــل أشياء كثيرة سنعثر عليهــا بأقل التـــكاليف اذا اهتممنا بالخروج من التجريد التاريخى .

ان ترسو قد أحاط دون خوانه باطار كاثوليكى وأدرك فيه مقابلا دراميا للناس والمعتقدات التى دارت حول هــذا الدون خوان . وقد صنع هذا لكونه مسيحيا ولعيشه أيضا فى تراث الشخصية الناهضة (المنتمية لعصر النهضــة) بينما أحشاء « الماجن » غير مفهومة دون استحضار بنيـــة الحياة التى واجهت فيها مظاهر الانسانية ما هو ســماوى حيث تنكشف هذه المظاهر فى تجوال مفتوح ومستمر . ان القومندان يتحول الى تمثال ميت وحى أو الى شبح ميت وحى ، حامل لرسالة سماوية والى « شاطر » يخلف وعده ، ويخدع دون خــوان الفــارس المتميز على الرجل التمثـــال ـ الشبح ـ ودون خوان طيب وشرير معا ، ومن ثم فهـــو قادر على المغــامرة بحيــاته لانقاذ حيــاة خــادمة مثل ال « انريكو » فى مسرحية « المدان بالشك » لترسو أيضـــا : مجرم كبير وابن متفـــان فى حب أمه فى نفس الوقت . ان المسرحى الكبير ترســو كان يمضى متصفا هو وشــخوصه بصيغة الحياة التى اكتشفناها فى قمص هيتا .

ان الأدب الاسبانى ـ كما لم يتوفر لأى أدب أوربى ـ مارس فن تحويل بعض الشخوص الأدبية الى هياكل حية : القوادة ، وثيلستينا ، ولازاريو ، ودون كيخوته ، ودولثينيا، ودون خوان • ان مقدرة اعطاء الحياة ـ أحيانا العالمية ـ لمثل هذه الكائنات بدأ فى القرن السادس عشر وانطفأ فى القرن السابع عشر •

وهناك آداب أخرى تقدم هذه الظاهرة فى مجـــال أكثر اقتصادا ، وقبل كل شىء : فى صيغ مختلفة لقد أعطى الأدب الفرنسى حياة فى القرنين ١٦ ، ١٧ لكل من Garga, Tartuffe كنمــاذج كبرى للمواهب الفـــاسدة (الشره والنفـــاق) ، لاكتمثيـــل كامل لشخص • وعلى العــكس من ذلك ، فاللغـــة الاسبانية بالغة الفقر،أو بمعنى آخر: عاجزة عن خلق أشياء مؤسسة على أسماء شخصية مثلما نجد فى الايطالية (فولت من فولتا) ، وفى الانجليزية (وات من وات)، وفى الفرنسية (أمبير من أمبير) ، والألمانية (أوم من أوم) •• الخ • وفى الاسبانية يناسب اطلاق تشور يغريسكو (من : تشور يغرا) على أسلوب من أساليب الفن التشكيلى ، لا على أشياء علمية وليدة التفكير العلمى ، وفى النادر جدا على أشياء عامة من نمط الكلمة الفرنسية باشاميل (من لويس دى بيشـــاميل مدير مطبخ لويس الرابع عشر) ان العالم الاسبانى الغارق فى الوعى بالذات والخالى من الأشياء يكشف عن نفسه من جديد فى لغة أصحاب هذا العالم •

ان صنيع خروج شخصية أدبية الىالتجول فى الشارع يعادل وجود هذه الشخصية كصورة متخيلة وكشخص من

لحم وعظم أمام مخيلة القارئ أو المتفرج (١٩) .

فعندما انتهى « الفونسو دى باراديناس » من نسخ مخطوط لكتاب الحب الطيب فى بدايات القرن الخامس عشر أحس أن هذا العمل ليس الا اضطرابا شخصيا ، وأضاف فى نهاية نسخته أن خوان رويث ألف كتابه بسبب وضعه فى السجن بأمر من الكردينال « دون جيل » مطران طليطله . ان « باراديناس » هذا - وهو باحث دؤوب - تصور خوان رويث فى عمله كائنا حيا ، وطلب له الخلاص من سجنه السيء بينما يرى « ليو سبيتزر » أن هذا السجن المشار اليه فى مطلع الكتاب ليس الا سجنا روحيا خالصا ، وهو سجن العالم الآثم . ورأى « سبيتزر » رغم انه مبني على أساس طيب الا أن هذا الناسخ السلامنكى - ومعه قراء كثيرون ذوو كفاءات ممتازة - اعتقدوا أن السجن حقيقى . اذن ، يجب أن نلاحظ أن خوان رويث لايعزو سجنه لذنوبه فحسب ، وانما أيضا للخونة والدساسين (كوبليه ٧ ، ١٠) ، أولئك الذين أثاروا ضده الاتهامات جزافا .هكذا نقابل - منذ بداية الكتاب - اللعبة ذات الوجهين التى ستطرد بطول الكتاب ، وهى هنا

---

(١٩) عانى النقد العربى كثيرا من هذه الظاهرة بين الشك واليقين والأحكام الأخلاقية فلم يفرق النقاد والمتلقون بين السلوك الفنى والسلوك الشخصى للأديب كما لم ير فرقا بين الشخوص فى الأدب والشخوص فى الواقع فمحبوبات العشاق العذريين فتيات حقيقيات تذكر كتب تاريخ الأدب أنسابهن وحيواتهن الشخصية بينما هن لسن موجودات فى التاريخ بل وأشك فى وجود الشعراء العذريين أنفسهم كذلك محبوبات عمر بن أبى ربيعة يعددهن كتاب الأغانى فكأن كل محبوبة أشار اليها وكل حديث عنها حقائق فعلية وليست أحداثا شعرية . وهكذا يشارك هذا النمط من التلقى الأدب الشعبى فى أسلوب تلقيه لأن المتلقى الشعبى يصدق كل ما يسمع ويتلقاه على انه قد حدث فمنجزات الخيال وقائع حية وليست خلقا فنيا فحسب .

بين الآثم (المذنب) والمجرم ، وبين الرجل الروحى والرجل ذى العظم واللحم ، ومن ثم كانت ستخلو الاشارة الى الخونة والدساسين من أى معنى ، اذا كان الشاعر يفكر فقط فى العقاب السماوى ، وليس أيضا فى عقاب البشر ، لان الله لا يقيم وزنا للافتراءات ٠

ان الشخصية الأدبية تتجه فى امتداد نحو القاع بوجودها حتى تصل الى المجال غير الآدبى تماما مثل لوحة « دفن الكونت أورجاز » للجريكو حيث يبدو فيها البدن السماوى للكونت (الروح) بأعلى بدنه الأرضى ٠ كذلك تخترق الشخصية عند خوان رويث نفس الأفق المذكور عند الجريكو ، وذلك فى قوله :

٠٠٠ ان كل شىء ينقلب رأسا على عقب فى وجه الدساسين ونفس الشىء عندما يعلن عمن هو أجهل من ثور مقيد متحدثا عن نفسه) :

أنا لا أفهم فى الفلك ولست بأستاذ فيه

ولا أعرف عن الاسطرلاب أكثر من ثور فى رسن

ان القارىء يرى نفسه وقد وضع فى نفس مستوى هذا الكائن المنظور والملموس ، ويأخذ منه شخصا حقيقيا يتحدث بضمير المتكلم ٠ ان مسقط العمل الشعرى على القارىء يعكس عروس البحر (نصف انسان ونصف سمكة) فى طرفيها المتباينين ، وهذا ما يهمنا أكثر بكثير عن حقيقة القمص وعما اذا كان سجين مطران طليطله أو غير سجين لذلك المطران ٠

ومن نفس النافذة التى مكنت القمص من الفرار خارج سور العمل الأدبى والظهور فى ثياب رجل دين غليظ الرقبة شهوانى مثير للشغب ، ستنزلق بعد ذلك بزمان القوادة ، وثلستينا ومشابهاتهما الأدبية ٠

ولن يجدى المنطق العقلانى فى تحويل هذه الشخصيات الى مواضيع غير شخصية ٠ لقد كانت حقيقة أن تخرج امرأة الكورباتشو الحمقاء تلك عن وعيها حين فقدت دجاجتها وتطلب صارخة أن يستدعو اليها : « تروتاكونفنتوس ماشطة ابنة عمى ، فلتأت ولتمض جيئة وذهابا من بيت الى بيت باحثة عن دجاجتى » أيضا بلزاك فى هذيان الاحتضار عندما بدأت الحقائق العلوية فى الاطلاله عليه ، أعلن ـ فى تعلل أخير له ـ حضور الدكتور بيانتشون طبيب رواياته ٠

وفجأة تخرج تروتاكونفنتوس عن كونها علما لشخصية تكتب فى أولها بحرف كبير وتعود الى اسم جنس يكتب بالحروف الصغيرة ٠ يقول بارمينو فى لاثلستينا :« ما آسف له أكثر من ذلك هو الذهاب الى التروتاكونفنتوس (بالحرف الصغير والتنكير ولا يريد بها الا اسم جنس يشير للقوادة) تلك بعد ثلاث مرات من خديعتها لى » ٠ ان كلمة تروتاكفنتوس كانت ستصير اسم جنس يشير للقوادة بالاسبانية ما لم تحجبها زميلتها لاثلستينا (التى استعملت لفظة القوادة Alcahueta ذات الأصل العربى) ان الأسماء ذات الأصل الأوربى (باستثناء الكيخوتة) هى عبارة عن

تعبيرات لاسماء عادية صارت اعلاما وهي اعلام تشير لانماط موجودة : لاثلستينا : القوادة ، لازاريو : الدليل ، دون خوان: الماجن ٠

ومن الشائق الآن تحليل الأصل العربى لكلمة القـواد Alcahueta وبالتـالى تحليـل أصـل نفس الكلمـة فى اللهجات الرومانثية المختلفـة ثم فى اللغـات الناجمـة عن هذه اللهجات بجانب اللغات السائدة فى شبه الجـزيرة الايبيرية ٠ آن الاستعمال الاول لكلمـة قواد كان للاشـارة للشخص الذى كان يحمل جـوادا هـدية من طرف سـيده الى أحـد الأزواج ليكون الجـواد وسيلة لنيل تعـاطفه مع المهدى الذى يهدف للوصول الى زوجة المهـدى اليـه مستغلا هذا التعاطف ، ثم تطـور هذا القصـد نو المغزى منحرفا نحو معنى الاغواء فحسب ٠

وبناء على ما سبق لا ينبغى البحث فى الأدب اللاتينى عن نمط التروتاكونفنتوس ، وانما فى التراث العربى ، وفى الحياة الاسبانية التى تسلل اليها هذا التراث ٠ وبالنفـاذ الى القوانين الاسبانية نرى أن الكثير منها يحرم القوادة ، وينص على أقصى العقوبات لمن يمارسها مثلها مثل السحر والشعوذة ٠

وفى أدب القرن ١٧ يعالج الموضوع فى سخرية مثلمـا حدث من قبل مع شانت ياقب ٠ ان حوافز الحياة التراثيـة ترددت حينئذ بين وجودها وبين علة ذلك الوجود ، عندما صارت هذه الحوافز مثار تأمل فى بعدها الاجتمـاعى ٠ ان المجتمع كان بطـل فترة حظى فيهـا التراث بالتمجيـد أو السخرية أو التهشيم عنـد تفسـيره اجتمـاعيا ٠ وطبقا

لسرفانتس فان مهنة القوادة ينبغى ممارستها لأن القوادين « أناس طيبو المنبت ·· ولكن يجب أن تكون المهنة تحت الفحص والاشراف » (١/ 22) · لقد كان هناك وعى اجتماعى بالقوادة وأيضا بالشرف وبالدين وبالنبالة أو بالسياسة المعاصرة ، أو هكذا كان الموقف الساخر لسرفانتس · وبعد سرفانتس سيقول لوبى دى فيجا : « كان ينبغى أن توجد (القوادة) ، بمرتب وبجاه عريض ، من أجل سعيها النشيط فى سبيل الحب ، حاملة (العاشق) أو جالبة (المعشوقة) (من مسرحية : الصديق حتى الموت) · عند التحليل العقلانى الساخر (نقد يحمل مظهر الرأى المعقول) يؤدى الانحلال الاستعارى للموضوع الى لون من الاغراء ·

ان الاستعارات حول الموضوع الاجتماعى تسجل - مثل جهاز رصد دقيق للزلازل - جوائح أعماق هذا الموضوع · ومن قبل رأينا شانت ياقب يتحول الى « القديس جرعة » ، والآن سيسمى ترسو دى موليتا القوادة باسم : الزئبق (الكوميديا الدينية : قديس وخياط / ١) ، وسيسميها كالديرون دى لا باركا باسم : العميل التجارى لكيوبيد (مسرحية : (Celos aun del Aire matan

ولقد وجدت مهنة القوادة حتى بدايات القرن ١٧ فى شكل خدمات لا تنتسب لأوفيديو ، وانما للتراث الاسلامى· لوبى دى فيجا انشغل - خلال سنوات طويلة - بكتابة خطابات غرامية للدون دى سيسا · ولقد وجدت قوادات فى مسرح حياته مثلما وجدت فى حياة مسرحه بفضل بعض

العلاقات بين الحياة والفن مما يذكر ـ كل مرة أكثر ـ بعالم كتاب الحب الطيب • والجديد فى ذلك كان يدور حول أن هذه الصيغة من صيغ الحيـاة ـ والتي كانت قد انكسرت (انكسار الأشعة) عن طريق وسط لم يكن موجودا من قبـل : عن طريق وعى بمجتمع (أو وعى اجتماعى) ـ ليست فقط خلقية أو سياسية انما أيضا مختلقة بما هو اجتمـاعى من كان هذا • ان تعايش الاسبان ـ داخليـا ـ قد تحـول الى مشكلة كان عليهم أن يواجهوها •

واذا عدنا الى أشعار خوان رويث نرى أن موضـــوع القوادة يحدث مثل اناء عام ينفرد به الأدب العربى مثلمـــا هو اشارة الى شىء ما يدركه القارىء أو السامع الذى ألف النمط المورلسـكى الذى كان يزرع الشـوارع عـازفا الدف مناديا على بضائعه ، وطارقا المنازل لحمل أو احضار رسائل حب : خيال وتجربة تجود بهما الأيادى فى ود كامل هنـــا كما فعل الأسـلاف العرب • ان القـوادة فى طوق الحمـامة تعيش فى أشعار ابن حزم ، وفى آرائه حولها ، وفى مدينـة قرطبة : « فينبغى أن يكون الرسول ذا هيئة حـــاذقا يكتفى بالاشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويحسن من ذات نفســـه ويضع من عقله ما أغفله باعثه ، ويؤدى الى الذى أرســـله كل ما يشاهد على وجهه ، كأنما كان للاسرار حافظا ، وللعهد وافيا ، قنوعا ناصحا ، ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقضه منها :

رسولك سـيف فى يمينك فاسـتجد
حســـاما ولا تضرب به قبل صقله

فمن يك ذا ســـيف كهــــام فضره
يعـــود على المعنى منـــه بجهـله »

أيضـا : « وما أكثر هذا فى النسـاء ، ولاسـيما ذوات العكاكيز والتسابيح ، والثوبين الأحمـرين ٠ وانى لأذكـر بقرطبة التحذير للنساء والمحدثات من هذه الصفات حيثما رأينها » (٢٠)

خوان رويث لابد وقد عرف هذا أو غيره من المحـاولات الأدبية لهذا الموضوع القديم المنفرد به المشرق (٢١) ٠ وان الأسلوب الذى به يدرك الأمر قد ظل مشرقيا ٠ ان العجـوز تتردد بين التحديد الغامض والمجرد لاسم وصورة منعوتـه فى ملامحها وأعمالهـا ، وحتى فى حـوارها مع الأشخاص الآخرين ٠ وهذه الصـورة (أو مشروع الصـورة) تمضى داخله فى اطارات شخصية (أو مشروع الصورة) تمضى وفى نفس الوقت تتعدد طبقا للمزاج الشرقى ٠ وقـد تسمى أوراكا أو تروتاكونفنتوس واسـمها معنى عـام مثلما هـو خاص :

(٤٤١) ـ ان هـؤلاء التروتاكونفنتوســـات يمضين تعاقدات كثيرة ٠

---

(٢٠) الطوق ص ٥٨ ٠

(١) تظهر القوادة مبكرة فى الشـعر الجـاهلى فها هى مثـلا فى شعر عنترة (المعلقة) :

فبعثت جـاريتى فقلت لهـا اذهبى
فتجسسى اخبـارها لى واعلمى

قالت رأيت من الأعـادى غـرة
والشـاة ممكنـه لمن هـو مرتم

ثم يتوالى ظهورها حتى الأدب الحديث حيث تظهر مثلا فى روايات طه حسين ٠ ويعد النموذج العربى للقوادة اصلا لنموذجها الاسـبانى فى الأدب وفى الواقع ٠ وتعد موضوعا حاسما للدراسات المقارنة ٠

(٦٩٧) ـ بحيتت عن ترروتاكونفنتـوس ارسـتها الى « الحب » ٠

(٦٩٩) ـ وكانت عجوزا دلالة من أولئك اللائى يبعن الحلى : أولئك يصنعن الروابط ، أولئك يحفرن الحفر ، انهن تلك الضفادع البرية بألاعيبها المؤثرة الحكيمة ، من أولئـك الذين يسلبون أذنيك دون أن تحس ، كشكة دبوس !

(٧٢٣) ـ الدلالة بسلتها تمضى تقرع أجراسا :

تقلب فى بضاعتها : جواهر ، حلى ، مشابك :

ملايات ٠٠٠ فلايات ! اشتروا منى يابنات ٠

ففى النص الأخير الصورة غامضة ونوعية ولكن تنقطع عند لحظة العرض (أو عند لحظة رفع الستار عنها) ، الا ان مشهد الملايات يثير الخلط فى تحديد : « من أولئـك اللائى يبعن الحلى » ٠

وتنال « الشخصية » قسطا أكبر من الحياة فيما نعـده أول محاولة ديالوجية (حوارية) روائية بالاسبانية ٠ ان أقصوصة De Amore التى استعملها القمص فى فصـل دونيا اندرينا (والمسماة جالاتيا فى الأصل) ، تأتى ببطلتها دون أم بينما القمص يجعل من البطلة ابنة لدونيـاراما ، التى تطل من مشـهد كوميدى قصص فريد فى العصـور الوسطى الاسبانية ٠ ان العجوز تخترع حجة للدخـول فى بيت دونياراما ، فهى تدخل دون أن يشجعها أصحاب البيت على الدخول انما تفزع لاجئـة اليهم هربا من رجل ضخـم

مضى يكيل لهـــا التهم طوال اليوم كى تعيد اليـــه « قطعة مصاغ » سبق أن سلمها لها لتبيعها ، والعجوز تعلن عن عدم فهمها لمطـاردة الرجل لها لأنه غنى جدا : مكيـدة دبرتهـا العجوز خـلال تلك القصـة ، حيث تخرج دونيـا راما الى الشارع بحافز حب الاستطلاع لترى هذا الأمر الشـائق ٠ وهذا فخ سيكولوجى دبرته العجوز لانتهـاز الفرصـة حتى نتكلم على انفراد مع ابنة دونيا راما المسماة دونيا اندرينا كمـا سلف وذكرنا (المقطـوعة ٨٢٤) ٠ ان هـذا المشـهد الكوميدى مبنى على حيلة موريسكية ، ويذكرنا بجو كيـد النسـاء فى بعض حـكايات النظام الاكليريكى وأيضـا فى كليلة ودمنة ٠ والجديد هنا هو الحوار :

٨٢٤ ـ راحت الى دار السيدة وقالت : من هنا ؟

ردت عليها الأم من يطرق بابنا ٠٠٠

أنا ٠٠٠ دونيا راما ٠٠٠ أنا ؟!

أنا يا دونيا راما ٠٠٠

لسوء حظى آتى اليكم ٠٠٠

فسوء الحظ لا يفارقنى قط

لمـاذا أتيت أيتها الصديقة ؟

هكذا ردت عليها دونيا راما

والحوار فى أسلوب عاطفى ومؤثر ، والحديث من داخل الشخصية نفسها ، وبنفس الصيغ التى تمضى النساء فى اسـتعمالها فى الواقـع ٠ ولاشك فى أن انفتـاح الكتـاب بلانهاية يشبه العجوز التى يطلق عليهـا اثنين وأربعين

اسما فى هذا الكتاب • ان وجود العجوز يتشكل من عرض جوانب أسمائها الكثيرة • أيضا حياتها مفتوحة مثل حياة القمص نفسه فهو سجين المعصية وسجين قريته أيضا أو مثل كتيب الرجل نفسه المفتوح لمن يرغب أن يغمس فيه قلمه الشاعر • ولن نجد هنا ـ ولا فى الأدب العربى ـ شيئا مدبرا أو ممثلا كقطعة من الوجود المطلق المؤطر بحدود حقيقية أو مثالية •• ان موضوعات كل من التجربة الداخلية والخارجية تخل فى فيض الجولان : ابن حزم كان له صديق اسمه ابن الطبنى « كأنه قد خلق الحسن على مثاله أو خلق من نفس كل من رآه » أى أن الاعتقاد بأن الكائن الجميل يحقق أو يجسم فى نفسه فكرة سابقة لوجود جمال (ما) نسيل أشكاله : بمعنى أن الكائن الجميل هو من يعود جماله لفكرة نموذجية (مثال ثابت) للجمال كما يعود جماله أيضا لكل من رآه حيث يصير هذا الأخير بدوره نموذجا للجمال •

ان الكائنات فيما تحمل مما هو جوهرى (الجوهرى هو الفكرة التى تجعل كينونة الكائنات ممكنة) تصير مثل صور تنعكس من مرآة الى أخرى الى ما لا نهاية • واذا كان ذلك كذلك ، فانه لذو قيمة كبيرة أن نأخذ غاية المقصود الدلالى لكلمة مثل شىء متحقق ، تماما كما نأخذ ذكر شىء معين مثل غاية مقصود التحقق الذاتى لهذا الشىء المعين المذكور الذى هكذا ينعكس ويعيش فى الكلمة • وبالتالى كلما زادت الرغبة فى التحقيق زاد عدد الكلمات • ويصبح « النطق بهذه الكلمات » عند ذلك انعكاسا لاندفاع ثراء وجودى كما يصبح غير صحيح أن نطبق على مثل هذه الظاهرة مقاييس الغرب للوصول الى الحقيقة عبر اختصار

المظاهر الثابتة الى ماهيات مطمئنة ووحيدة ، أى أن هذه القاعدة للوصول الى الواقع سطحية وخاطئة لأن الماهية تقايض نفسها ـ آنذاك ـ فى اللافتة التى تطبقها الرغبة . ولكن الرغبة اذا كانت تنصرف عما هو صواب لكى تتنبأ وتولد الصيغ أو الرموز التى يوجد فيها الصواب ، كان ما كان ، فان ذلك سيلتمس بالتعبير ، وعندئذ سينبثق البعد الفنى للحياة الانسانية . فالشاعر ـ مثل أى فنان ـ لا يتحرى عن شىء انما يتنبأ ، وهذا التنبؤ ليس له معنى الا عند من هم أيضا يمرون بأزمة الرغبة فى التنبؤ .

واذا عدنا الى مشكلتنا ، فان الكلمات تستطيع أن تكون بلورا شفافا يسمح برؤية ما هو بالنسبة لنا خلفية للأشياء أو هيئة فيها ، « هذا » الذى يمكن أن يوجد منغمسا فى كينونة تلك الهيئة . اذن بالنسبة لأقصى رغبة فى تحقيق وقائع ممكنة (تحقيق ممكنات) يبث أقصى حجم لفظى لأن الكلمة وجود يشع تلك الرغبة ومؤشر لاجزاء لا نهائية فيها يتجول الوجود المتعدد . وبعيدا عن ادعاء الثبات فى شخص أو شىء أو كلمة وحيدة ومحددة ، من أجل تأسيس واقع ثابت وحقيقى فى هذا الشخص أو الشىء أو الكلمة نفسها ، يجزىء ابن حزم ويفك جلال صديقه المشار اليه منذ قليل الى ٢٩ قيمة دون نظام أو تمييز تقدم بنية لهذه القيم « حسنا وجمالا وخلقا وعفة وتصاونا وأدبا وفهما وحلما ووفاء وسؤددا وطهارة وكرما ودماثة وحلاوة ولباقة واغضاء وعقلا ومروءة ودينا ودراية وحفظا للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعرا مفلقا حسن الخط وبليغا مفتيا مع حظ صالح من الكلام والجدل .. (٢٢) انه رجل

---

(٢٢) الطوق ص ١٥٥ .

ينتشر فى اشاعات وطبقا لما نراه فهو جميل أو خطاط أو متكلم وكما يملك نواح متعددة فانه ينبغى التعبير عنه بكلمات كثيرة مثل الأخطبوط (طبقا لما رأينا منذ قليل) :

١١١٦ ـ كما أن له أياد كثيرة ، فانه يرغب فى الصراع مع كثيرين نفس القاعدة يستعملها ابن حزم فحتى يقول : « أنه صديق طيب » : لا يحاول هكذا أن يختصره الى نقطة مركزية وجوهرية بل ينشره ـ بدلا من ذلك ـ فى ٤٨ ناحية أو ملمح حجمها اللفظى ينصب فيه الصديق الطيب حيث ينتثر جوهره المستحيل فى خفقان من المديح ونفس الشىء فان الجوهر السماوى فقط يغدو فى متناول يدنا بالتعدد المتكرر والعودة الى تكرار أسمائه الحسنى · (٢٣)

واذا عدنا الى خوان رويث فان خفقان الألفاظ عنده ـ مع انه يهدف الى عرض تقلبات الصور على الحقيقة المفردة ـ هو عقد به كوكبة من حلى الأسماء التى لا ينبغى

---

(٢٣) مظهر لهذا التراث الشرقى يبرز فى أبجديات لوبى دى فيجا وآخرون :

أن تحب الزوجة زوجها وتكرمه
ليس اكثر من حرف من أبجد هوز
فأن تكونى طيبة بال : طـاء
هذا كل الطيب الذى التمسه منك
ولتصنع منك وبودة ال : واو
وال : حاء حلوة وحادة الذكاء ·· الخ

(peribanez, I. g.)

ان الكلمات تشع حقيقة جيوية كما أن الحقيقة الحيوية تشع الكلمات · ان الأشياء ليست هذا أوذاك وانما هى ما تحب أن تكونه · والفجر فى قصيدة السيد ليس له « أصابع وردية » مثل ملاحم هوميروس وانما ارادة الوجود : « بالفعل فهم يرغبون فى ايقاف انبثاقات الفجر » ·

أن تمنح ـ وهى ستمنح ـ للعجائز التروتاكونفنتوسات ، وسى ليست بأسماء مجازية مثل « نسر باتموس » الذى هو سان خوان نفسه ★ لأنه هنا يقف خلف كل مجاز مجاز آخر فى سلسلة لا نهائية · ان ما هو مجاز يظل دائما حاجزا متحركا ومتنقلا يلقانا كلما حاولنا المرور من مجال المجاز الى ما ليس بمجاز · وهكذا فان الرجل يمر من اسم الى اسم كما يمر من حب امرأة الى حب امرأة أخرى · ان التكرار قاعدة تعبيرية غير منفصمة عن جوهر هذا الفن (راجع المقطوعات ٩٣٧ ، ٩٣٩ ، ١٣١٧) · بيد أن التكرار الملح انتهى باغراء المؤلف والقارىء بأن مثل هذه العجوز المثقلة والجذابة ليست الا كائنا حيا · وكل الأسماء ـ ومع أن أسماء مثل أوراكاوترو تروتاكونفنتوس مجازية ـ ربما ليست أكثر من مظاهر اسمية للهيئة الغامضة « عجوز » وأنها لا تحمل مقصودا تشخيصيا أكثر من اطلاق : جرس ، جلجل ، ناقوس ·· الخ على شىء واحد الا أن الاسم تروتاكونفنتوس انتهى مشيرا الى شخص ما محدد ، لأسباب أهمها أن الكاتب جعل تروتاكونفنتوس تموت وهذا أضفى على من يقرأ الاسم اعتقادا فى حياة سابقة لصاحبته (راجع الأشعار ١٥١٨ ـ ١٥١٩) والمشهد الذى يلى خبر الموت فى استمرار لعرض مشاعر الكاتب تجاه الميته يحمل نفس الحيوية التى تقنع القارىء والسامع بأن يأخذا الأمر مأخذ الحقيقة الواقعة :

★ باتموس Patmos احدى جزر الأرخبيل كتب فيها الصوفى الاسبانى San Juan de la Cruz سان خوان دى لاكروس) بعض أعماله ثم ظهر فى كتاباته مقاله استخدامه رمز Aquila de patmos نسر باتموس ، يكنى به عن نفسه ·

١٥٢٠ ـ آه ٠٠ أيها الموت لتمت ! لتمت ! ولتتعثر خطواتك
لقد قتلت عجوزى فقتلتنى قبلها !

ومن يستمع الى الأغـــانى القصصية والى الرومانث سيعرف أن السيد والملك سانشـــو شخصان حقيقيان لكن الشعر يقدمهما كما يريد لهما أن يكونا ★٠ ويعكس الأمر القمص مثلما نجد فى قوله :

١٥٦٩ ـ آه ٠٠ قوادتى ! يا من تكنين لى الولاء الحقيقى
كثيرون كانوا يتبعونك فى حياتك ومماتك
(والآن) ترقدين وحيدة

كيف يمـــكن لهـذه العجـــوز ألا تكون قد كانت كائنا موجودا فى الواقع ؟! ان الموت والنغمة المتألمة لمن يصرخ بها قد تحولا الى قوادة فى اهـــاب شخصى حى ٠ ان الأدب لم يكتب لكى نكتب عنه اليوم مقالات لوذعية فالقوادة تحيـــا فى جو الشارع الذى ينطق عن حيهاتها أكثر من أى تحليل منطقى ٠

ان مشهد موت القوادة بسخريته الوقورة يقيم بدايـــة لما سمى بعد ذلك الـ « هيوميرزم الاسبانى » : موقف ممكن فيه تحس النفوس بأنها فى الأرض والســماء فى آن ٠ ان القوادات ينلن رضا الله لأنهن كن « مومســات طيبـــات » و « شهيدات » حيث متن مناضلات فى معسكر الحب ٠ويقول ابن حزم :

فان أهلك هوى أهلك شهيدا

★ السيد والملك سانشو فى ملحمـــــة السيد وغيرهما شخصيات تاريخية حقيقية أعطتها الملحمة أبعادا درامية ٠

وهذا الشطر مطلع قصيدة تنظم ماروى فى الآثـــار : « من عشق فعف فمات فهو شهيد » (٢٤) ان عجوز خـــوان رويث تموت شـــهيدة مثل من يسقط فى ســاحة الجهــاد المقدس • ان العجوز المومس التى تمزج بالشـــهيد الذى يحظى برضا الله ليس أكثر ولا أقل من ذلك الذى نراه فى مزج القمص نفسه فى « دون ميلون دى لا أويرتا » حينمـــا ينطقه فى كتابه هذه الأشعار يتوجه بها الى العجوز الميتة :

١٥٦٩ : ١٥٧٠ ـ الى أين حملوك ؟ لا أدرى شيئا اكيـــدا
لم يعد قط كلٌ من حملوه فى ذلك الطريق•
من المؤكد أنك مستقرة فى الفردوس •
ومن المتوقع أنك تحشرين مع الشهداء •
فطالمـــا كنت فى الدنيـــا تتعـذبين فى
استشهاد لله !

---

(٢٤) راجع الطوق ص ١٥٢ ، ايضا يشبه شعر ابن حـــزم هنا بيت لجميل بثينه ينطبق أكثر على فكرة النضال فى الحب ورفعه الى درجـــة الجهاد :

يقولون جـــاهد يا جميـــل بغـزوة
واى جهـــــاد غـيرهن اريـــــد

أما الشهادة ففى بيته :

لكل لقـــــاء نلتقيـــه بشـــاشـة
وكل قتيـــل عنـــدهن شـــهيد

(راجع ديوان جميـل ص ٦٦ ثم ٦٤) ومن الواضـــح أن المعنى الوارد فى الأثر (يراه البعض حديثـــا) يتردد كثيرا جـــدا فى الشعر والتراث العربى حتى أنه انتقـــل أيضا الى التصـوف فرابعة العدوية اشتهرت باسم : شهيدة الحب الالهى • والجديد عند القمص تعميم الجهاد والشهادة للكل من يعمل فى حقل الحب ولو لم يكن عاشقا •

ان التكافل الاسلامى المسيحى سمح للقمص وقــوادته بأن يتابعا الوجود خارج كتـــابه الأمر الذى لم يحدث فى شخوص أدبية لآداب أخرى : ان ابن حزم الذى يحلق فوق سحابات مجازاته الغنائية هو فى نفس الوقت الذى يكتب « وأنا أخبرك عن أخى رحمــه الله ، وكان متزوجــا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور ٠٠ الخ » (٢٥)٠ ان الذات الشاعرة والحقيقية يختلطان هنــا ، نفس الشىء فى حـــالة القمص : جاهــل كثور فى رسن ، ومتجــول فى شوارع هيتا أو القلعة أو طليطلة كائنا أدبيا ، وأيضا دليلا على وجود رجل من شحم ولحم ٠

ان مؤسسة الوسيط فى الغراميات (الموجودة فى الحياة وفى القوانين وفى الأدب فى اسـبانيا) تخرج من اطـــار التأثير الأوفيــدى المزعــــوم عند تأمل الأمر فى تعقيــداته الشاملة : ان هذه الظاهرة مثل غيرها من الظـــواهر الكثيرة الأخرى لا يمكن فصلها عن الموقف الحيــوى لبـــلد اختلط بالمسلمين واليهود تسعمائة عام ٠ ان أى أدب أوروبى لم يعط أنماطا مثل القوادة أو ثلستينا ، وبالرغم من ذلك صار « الشريك الثالث فى الغراميــات » نمطا عالميــا ٠ والحــافز على ظهور هذا الثالث بالنسبة للمشرقى هو أن التعـــامل مع المرأة كان يعنى الدخول فى منظمة متشـــابكة مليئـــة بالصيغ والطقوس والهيراركيات ٠ ان كتاب الحب الطيب ذو أســــلوب مشرقى لم يــكن معروفــا عنــد الاغـــريق

---

(٢٥) الطوق ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ٠

والرومان (٢٦) · وظهـــوره فى القـرون الوسطى صـــدى لأعمال من طراز عمـــل ابن حـــزم · ان ظل الخطيئـــة التى رسمتها المسيحية (وقبلها اليهودية) حول الحياة الجنسية لم تكن معروفة فى المشرق · ان المرأة العامة الموهوبة بأطيب الاستعدادات وذات الجمال الآخاذ وتتمتع بأربع وســـتين صلاحية منزلية وفنية واجتماعية ، أخذت اسم « جانيكا »· لقد حظيت دائما باحترام الملك وبثناء المثقفين ··· وها هى تتحول الى « موضوع » ذى اعتبار عالمى (٢٧) ·

ان المشرقى لا يعيش فى فرديتـــه فـــردا انمـــا يعيش خاضعا لعقيدته الاجتمـــاعية ســـابحا فيها · أما علاقتـــه بالحياة فتحدث عبر معايير وعادات وروابط مع الأنســـــاب (ان الشخص ذروة موجـــة فى بحر فيـــــه الدين والثـــروة والحب : هذا طبقا للفكر الهندى) · ان العقيدة والاقتنـــــاع بها يؤسسان له كل شىء · ان المشرقى فكرة وليس مفكرا ·

---

(٢٦) كتاب فن الحب La ars amatorio لمؤلفه أوفيــــديو ovidio (ترجمه الى العربية : د· ثروت عكاشـــة)

- طبقا لما هو معروف - ليس الا محاكاة هزلية لرسائل حول مواد علمية وموضوعاته الغراميات غير المشروعة · ان عمل أوفيــديو يجب أن يكون انعكاسا لكتب شرقية كانت تقدم نفس الموضوعات فى جدية ودون غمزات بالعين · ومن المؤكد أن فن الحب المذكور لم يقع موقعا حسنا من المزاج الرومانى كما يبدو منذ نفى الامبراطور أوغسطين لأوفيديو لأسباب من بينها انه ألف كتابا لا يتفق مع النظم القانونية والاجتماعية الرومانية ·

(٢٧) Les Kama Sutra, de Vatsayana, paris, 1912, p. 42.

وهذا عبارة عن كتاب هندى مشهور جدا حول الحب يشير الى تلك التى اشار اليها المؤلف هنا باسم « جانيكا "Ganika".

ان المشرقى ظل خاضعا لضباب الروح مثل خضـوع الغربى اليوم لضباب النقود · وفى بورصـة الحب كانت القـوادة تمثـل الوكيـل الكفء كمـا نراها عند ابن حـزم والقمص · ان المشرقى والقمص لم يدركا علاقة مباشرة مع المرأة بطريقة متحررة وطليقة انمـا عبر عقـائد وطقـوس ميثولوجيـة عشـقية مسـكونة بمـلائكة طيبـة وشريرة (الصديق الطيب ـ الرسول المخلص ـ الخضوع ـ العشـق فى الأحلام أو بالسـماع ـ الحـارس ـ الموفق ـ العـزول ـ الطهارة ·· الخ) · ان الميثولوجيا كانت بالنسبة للعـاشق مثل البحر للسمك حيث يرتبطان مفصليا فى صيغ وشعائر متخصصة جيدا ·

وفى ظل كل هذا الذى طرح ينبغى فهم حضور الوساطة فى الحب داخل كتاب القمص ·

ينهى أميريكو كاسـترو حديثه حـول تحليل كتـاب الحب الطيب لمؤلفه خوان رويث قمص هيتا بقوله أنه أنهى التحليل دون تقديم كل موضوع من موضوعات العمل داخل روابط واضحة حيث أن القارىء يستطيع اكمـال الأمر اذا أحب · وعموما فان الانصباب المذدوج (حب طيب ـ وحب مجنون ، باطن ـ وظاهر ، صغير ـ وكبير ، مظهر مسكين ـ وآخر حكيم مقتدر ، ··· الخ) هو القانون الحيوى الخافق تحت فن خوان رويث · وبذلك قد تم تقديم قطاع من كتاب الحب الطيب ـ وبقدر الامكان ـ فى اطاره التاريخى الحيوى · وقد اتضح فى الكتاب بن ما اتضح من ابلقضـايا التى تم تحليلها ـ بشكل قوى ـ قضية وجود « بنية خاصة للحياة الاسبانية ·

الفصل العاشر

اليهـــود

من الممكن فهم تاريخ بقية أوروبا دون حاجة الى وضع اليهود فى الاعتبار بشــكل أســاسى بينما يصــبح الأمر معكوسا فى اسبانيا حيث لعب اليهود دورا لا يقــارن به دور اليهود فى أى مكان فى أوروبا • فلم يكن لليهود أيــة عمارة قط عبر التاريخ الا فى اســبانيا الاســـلامية ولكن معابدهم رغم تميزها كانت ذات صبغة اسلامية • وقد كان لهم بجانب العمارة أدب وثقافة متميزين بطوابع عبريـــة مثلهمــا مثل العمـــارة ، ولكن ذلك ما كان ليــكون دون احتكاكهم بالاسلام فكما صبغت معابدهم بصبغة اسلاميــة فيما قلنا منذ قليل فقد كتب أعظم كتــابهم بالعربيـــة ولولا اتصالهم بالعــرب ما كانوا ــ أبدا ــ ليحتفلوا بالفلســـفة الدينية فهم فى الأول وفى الآخر تابعين أيضا للحضـــارة العربية الا أن اهمالهم أو دراســتهم كتيار مواز وآنى غير ممكن ، فلاشك أن تاريخ اسبانيا قد كان نسيجا مســـيحيا اســلاميا يهــوديا ، وكل طائفـــة بشرية من هؤلاء حظيت بتميزها لكن تيار وجودها قد حفره لها وجود الآخرين •

تفوق مستأجر « من الباطن »

« ان الطائفة اليهودية فى اسبانيا تتميز فى وجـــودها على القاعدة العريضة للشعب العبرى المتناثر فى العـــالم بأنها كانت فريقــا فريدا ومدهشـــا » هــكذا يبدأ اميريكو

كاسترو عرض قصة يهود اسبانيا بادئا بطرح قصتهم المعروفة مع المصريين القدماء ثم الرومان ثم المسيحية ، وكيف أن العهد القديم صار جزءا من الديانة المسيحية ، مما قرب اليهود من المسيحيين وان شعر اليهود بغير ذلك. كما يتلو الكاتب هذا العرض بطرح قضية احساس اليهود بالعزلة واتجاههم للتقوقع وما انتهى به تناقضهم مع المجتمعات التى عاشوا فيها من اضطهاد لهم لم يستطيعوا له دفعا لأن عقيدتهم رغم عدوانيتها الرافضة للتعامل مع الآخرين اجتماعيا لم تكن مصحوبة بروح عسكرية ، ومع ذلك فقد استطاعوا أن ينفذوا الى كل حفرة ومسرب ، وضمنوا لأنفسهم البقاء فى ظل عمليات تصفية مستمرة . فهم قد لقوا اضطهادا من القوط فسعوا الى مساعدة العرب ونالوا كامل حقوقهم فى ظل الوجود العربى . ومن نبغ منهم كان ذلك بفضل الاسلام ونبوغه ـ وان تميز بطوابع عبرية ـ فهو فى اطار الحضارة الاسلامية . وعندما بدأ اضطهادهم على يد المرابطين انتقلوا الى المنطقة المسيحية من اسبانيا، وقاموا تقريبا بجميع وظائف الدولة ولاسيما الاقتصادية. ومن ثم فقد مارسوا دور الرابطة بين المسلمين والمسيحيين ينقلون صيغ الحياة الاسلامية فتقبل منهم لانهم ليسوا أهل اسلام . وبذلك كان دورهم ليس أقل خطرا من دور المستعربين فى نقل الحضارة الاسلامية الى اسبانيا المسيحية .

الفونسو العالم واليهود :

لاشك أن اهتمام الفونسو العالم بالعلم كان العامل الاكبر فى نقل التراث الاسلامى الى قشتالة وترجمته . ولكن اذا طرح السؤال : لماذا اهتم الفونسو العالم بالعلم؟

سنجد أن الاجابة عسيرة لعدم وجود صورة مكتملة عن تكوينه وتعليمه قبل تولى الملك · قد يكون أحد العوامل فى ذلك ايمانه بالنجوم ، وبالتالى اهتمامه بالفلك مما فتح الباب لدخول العلوم الأخرى بصحبة الفلك · ولعل هذا العامل قد كان غير فعال وغير حقيقى ولا سيما أنه يوجد من الوثائق ما يثبت اهتمام الملك بالفلك كعلم (وليس كتنجيم) · فلابد ـ اذن ـ أن تكثر العوامل التى دفعت الملك لذلك ، ولنا أن نتصور من بينها عامل التواجد اليهودى بكثرة فى قشتالة فى القرن الثالث عشر حيث ولى اليهود ظهرهم لملوك الاسلام الآفلين ، وتوجهوا لبلاط قشتالة · ولقد ترجم اليهود العهد القديم بجانب العهد الجديد الى اللغة القشتالية العامية التى أصبحت لغة حياتهم اليومية · أليس من الممكن أن تكون ترجمة اليهود للعهد القديم والانجيل لافتا لنظر الفونسو لامكانية الترجمة الى القشتالية العامية · وقد تمت بها كل الترجمات · وجدير بالذكر أن مدرسة مترجمى طليطلة قد اجتذبت الأجانب يقبلون عليها ليترجم لهم اليهود والمسلمون الى القشتالية ثم ينقل هؤلاء الأجانب ما ترجم الى اللاتينية ، لأن اليهود لم يهتموا باللاتينية · ومما هو جديد بالذكر أن اليهود استخدموا الترجمة القشتالية فى صلواتهم ، ولم يستخدمها المسيحيون فى ذلك بل ان التفتيش فى القرن الخامس عشر سيدين الاسبان الذين يستعملون فى صلاتهم أسلوبا يشبه اليهود ، أى باستخدام الترجمة القشتالية للانجيل · وعلى أى الأحوال فان القرن الثالث عشر سيشهد نشوء النثر الاسبانى على يد اليهود المترجمين فى بلاط الفونسو العالم ، وهذا دور ليس بالهين اذا ارتبط بالمساهمة فى نقل الحضارة الاسلامية فى جو يخلو تماما

من العلم والاهتمام به بين اشراف البلاط ونبلائه من الاسبان ٠

ولعل النثر فى نشأته كان أقرب الى العقلانية والتحايل مما يتسم به « البلاط » لا الناس ، ولذا بالعودة الى ملحمة السيد السابقة لهذا التأثير اليهودى نجد صورة لعمل ملحمى يبدو من خلاله انعدام الفردية انما هناك شخوص تستند الى عقيدة وقيم لا يتجه فيها الناس الى الموضوعية والتجريد ، وانما الاشياء ترى فيما وراءها من قيم ، وقد انعكس ذلك فى اللغة التى لم تلتزم منطقا أو نحوا بقدر ما احتكمت الى البديهة والارتجال ٠

الأدب لم يوجد مشهدا يعرض ويسلى

ومن جديد حتى نفهم نشأة النثر الاسبانى فى القرن الثالث عشر تقريبا ، علينا أن نتحرى عن الشعر الغنائى المؤسس على التجربة العاطفية دون تبرير عقائدى موضوعى ، وسنكتشف أنه لم يوجد فى قشتالة فى القرون ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، فى الوقت الذى تكثر فيه الأناشيد التى تتغنى بالمآثر . ومع ذلك فان الشعر الغنائى ألح على قشتالة من الجهات الأربع الاصلية حتى ولو كانت قشتالة تبذل فى مقاومته نفس الطاقة التى كان عليها أن تستخدمها فى قشتلة المناطق التى كان فيها هذا الفن ممكنا ومعتبرا ٠ فقد كان من السهل استخدام اليهود العارفين للغة العربية والقشتالية مع المسلمين الذين تقشتلوا فى أن يضعوا فى الرومانث حكايات ألف ليلة وليلة المعجبة والشعر البديع لممالك الطوائف أو لابن حزم ، لكن شيئا من هذا لم يحدث بل ان تفكير ابن رشد أو ابن ميمون لم يخترق القشتالية ٠

ولو وقعت قشتالةفى هذا الاغراء ما صنعت نفسها ولا خلقت صيغة قومية لاسبانيا . ولهذا لم تحاول قشتالة الهـــروب الى حوصلة عقيدتها (كما حدث فى أراجون وجليقية حــول عقيدة سانتياجو) ، نفس الشىء يبدو عند برنال دياث دى قشتالة : كان ينـــام بملابســـه كاملة وســـلاحه حتى فى شيخوخته • لقد عاش القشـتالى بكينـــونته فى تكاملهـا بوجود مسيطر عليه دون اتكاء على الايمان محـــروم من التعبير العاطفى والعقلانى الذى زرعه المسلمون بكينونتهم المطابقة لعقيدتهم • ان العـــلاقة الاجتمـاعية والطهـــارة الأرثوذكية كانت حواجز غير مناســـبة للتعبير المكتــوب والمسموح به اجتماعيا •ان الشعر العربى عاش فى قشتالة كنهر تحت الأرض ، وفقط سيظهر بعد ذلك كخيوط رفيعـــة من المـــاء الرقيق والمبعثر •

أما أغانى التروبادور البروفنسالية ، فقد جـــاءت الى اسبانيا ، وأخذت لمسة قشتالية فى اهابها ، لكنهـا ظلت فى حيز الدعاية السياسية الدولية لصالح اسبانيا فى حربهـا ضد المســلمين • وتلك الاغـــانى كانت فى برودة الثـلج ، خالية من العاطفة أو التأثير فى القشـــتاليين ، ومن الممكن أن تصبح عروضا وتسلية للبـلاط ، وللبـــلاط فقط فيمـا يشبه ورود الأوبرا الايطالية الى اسبانيا فى القرن الثـــامن عشر • لقد كانت تسلية الطبقة المستريحة حتى القـــرن العشرين ، وصاحب ذلك فشــل كل التجـــارب فى التغنى الأوبرالى بالاسبانية لان تأثيرها ـ ببساطة ـ كان فكاهيا، وقد أعجب المشاهدون بموســـيقاها فى الوقت الذى ظلت دراميتها زيفا أو طرفة • كذلك أغانى التروبادور لم تجـد مكانا فى البلاد الاسبانى الا لموسيقاها ثم لمحاكاة البلاطات الاسلامية والاوربية فى مثل هذه المظاهر • وقـد تم تفريغ

الشحنات الغنائية - والفاحش منها بصفة خاصة - فى اللغة الجليقية التى تأثرت بالتروبادور . وقد استبدل الاسبان - بعد - بأغانى تلك اللغة أغانى التروبادور .

عودة الى اليهود ★ :

يمضى مؤرخنا فى تعداد الوظائف المتنوعة التى قام بها اليهود فى اسبانيا ، فحتى نهاية القرن ١٥ كان كل الاطباء تقريبا من يهود. يحملون الجذور الاسلامية لمن يتعاملون معهم ، كذلك سيطر اليهود على النشاط الاقتصادى بجانب مختلف مجالات الحياة العملية التى لم يكن للاسبان فيها باع . وبعد أن انتهى الاسبان من القضاء على المسلمين تنبهوا لذلك وملأ نفوسهم الغضب من هذا التفوق اليهود فانقض التفتيش على اليهود . وقد كانت العلاقات اليهودية - المسيحية فى تعقيداتها ذات آثار أخرى لا تدخل فى الهدف الذى نعرض من أجله الكتاب ، وذلك مثل الفكرة اليهودية الخاصة بنقاء الدم اليهودى وانعكاسها فى السلوك الاسبانى تجاه المسيحيين الجدد الذين لا يتميزون بنقاء الدم المسيحى مثل المسيحيين القدماء .

★ راجع الحديث عن اليهود فى أصل الكتاب المترجم ص ٤٩٣ - ٥٨٦ وفكرة نقاء الدم بين اليهود والمسيحيين وأثرها على ظهور محاكم التفتيش ص ٥٣٧ - ٥٦٠

الفصل الحادي عشر

نتائج وانعكاسات لما سبق

ان المسيحى الايبيرى وصل الى نهاية عام ١٥٠٠ بوعى ثابت بأنه قد بلغ كلية وجوده لمجرد أنه ليس مسلما ولا يهوديا ، وأنه قد تفوق على الفريقين • كما أن احساسه بالسمو والكفاية ولد واستقر فى ٨٠٠ عام من حياة لامثيل لها فى أوروبا الغربية • ولهذا فان الاسبان والبرتغاليين قد اخترقوا العالم بهدف العثور على اطار حيث يحققون وعيهم بسؤددهم•ولم تكن الدولة بل الاشخاص الخاضعين لها هم الذين حققوا الاهداف العظيمة والحاسمة (غزو المكسيك والبيرو) ولذا لم يكن توسع اسبانيا شبيها بتوسع روما • فهذه أخضعت أراضى المغلوبين فى مؤسسات حكومية من خلالها توحدت الامبراطورية والقانون والدين• أما اسبانيا فقد نبع فيها منذ بداية المؤسسات فيما وراء البحار ـ اشتجار حول ما اذا كانت هذه الغزوات مشروعة أو غير مشروعة ، فالملك والكنيسة والهيئات الخاصة اقامت جدالا حول الحقوق المتعلقة بهذه الاراضى الجديدة، وحتى لقد وصل الامر داخل الجزيرة الايبيرية نفسها الى عدم اقرار أية وحدة موضوعية فعالة تقارن بالسلطة الشاسعة للملوك • وفيليب الثانى حكم جزيرة غير متحدة فيما يتصل بشئونها الدنيوية والعاجلة ، ودون تضامن خلاق وتقدمى مما يفسر الضعف السريع للروابط التى تربط الملكية بالبرتغال وقطالونيا وحتى بأراجون التى حاولت الانفصال من التجمع الايبيرى •

ان أهـل ايبيريا لم يخرجـو الى العـالم لتحقيق خطط حكومية انما استجابة لحوافز تتمثل فى الطموح الى الثروة والتبشير (ردا على الاستعمار الروحى الاسلامى) وأكثر من ذلك ، حافز اسبانى محض وهو التشـوف الى تسـيد الشخص فى شكل لم يكن معروفا حتى ذلك الوقت بأكثر من حافز « كسب الشرف » ٠

لم يتطلع أولئك الرجال الى تنمية أو اخصاب الاشـياء أو المعارف حوّلهم عبر انشطة اقتصادية أو تقنية أو فكرية ، فقد عاشوا فقط كى _ يجذبوا لانفسهم هالة من الهيامـان الاجتمـاعى المناسب للكفـاءة التى نصبـوها من قبـل لشخوصهم ولرجولتهم « فالنبلاء الذكور ٠٠٠ كان عليهـم البحث عن الحياة والمضى من أفضـل الى أفضـل ٠٠٠ ومحـاولة كسب الشرف » ٠٠٠ هذا طبقـا لمـا كتب برنال دياث ديل كاستيللو عاكسا احسـاس الكثيرين ممن خرجوا للقتال وتعمير الاراضى ٠

وفى عام ١٤٩٢ شعر انتونيو دى نبريخا أن اللغـة القشتالية قد بلغت ذروة عظمتها لدرجة أنه يخشى سقوطها أكثر من تمنى ازدهارها فوق ذلك ٠ ولاشك أنهذه الجسارة من نبريخا فى الحكم لا تنبع من ثقـافة اللغـة القشـتالية (لانهـا فى ذلك الوقت لن تـكون الا الكتب المنقـولة عن العربية أو اللاتينيـة ، انما انطلقت من انتشـار اللغـة القشتالية فى أراجون ونافارا وايطاليا تابعة لامراء البيت الملكى الذين ذهبوا لتقلد الحكم هناك ٠ فمجد اللغة هنـا لا ينبع منها بقدر ما ينبع من البريق الامبراطورى الـذى

يسندها : وحدة اسبانيا ، وتوسعها فى الخارج على أسنة سيوفها المنتصرة • فالوعى بالقوة السياسية يتساوى هكذا مع الاعتراف بعالمية القيم المعبرة عنها باللغات اللاتينيـــة والاغريقية والعبرية التى ساوى نبريخا مستوى القشتالية بمستواها حين تحدث عن عظمة تلك اللغة المذكـورة • ان القشتاليين قد أحسوا بأن لغتهم قمة بين القمم لاحساســهم بأنهم سادة وأنهم فرضوا تسيدهم هذا على رجال آخـرين، أى بحوافز لا تنفصل عن وعيهم بأنهم موجودون شخصيـــا بطريقة سامية وليس بسمو مجموعة قيم موضوعية متمثلة فى منجزات بعيدة عمن انتجوا هذه القيم • ان عظمة اللغة تشكلت من اتســاع انتشــارها وفى الاعتقــاد بامكانيــة استمرار هذا الاتساع • وقد تم وضع النحو الاســـبانى لا بهدف علمى ، وانما بهدف تيسير اللغة لتحقيق المجـــد الامبراطورى والمسيحى فى امبراطورية الغد (١)

ومع أن نبريخا كان قد درس فى بولونيـــا لمـــدة عشر سنوات ، الا أنه لم يكن عالم انسانيات على الطريقـــة الايطالية انما هو عالم على الطريقــة الاســـبانية طبقـــا لاسلوب حياة العبرى ـ الاسلامى ، ذلك الاسلوب الـــذى يقوم على الاعتقاد فى المستقبل وليس على بناء حـــاضر قد صار مترسبا فى واقع قد انجز وصارت تطوله اليدان • ان الشخص الاسبانى الســـامى لا يتردد بين « وجـــود » و « معرفة » أو بين « أنا » ينشر المعارف السديدة و « بغض التشييدات الموضوعية » التى هى فى النهاية منفصـلة عن الأنا . انما السامى يعيش فى الكينونة القادمة لآماله وفى

---

(١) Antonio de Nebrija, pròlogo de la gramàtica castellana, 1492.

النبوءة وفى الصيغة الاسلامية « الله أعلم » وفى الاخلاص الدينى ، وفيما هو وراء الواقع المؤقت فى فضاء اللحظة القادمة ، وفى نسق لا يصل الى أهداف تنفصل عن نشاط تكون تلك الاهداف غايته والباحث عن وقائع معينة فى الحاضر هو بالضرورة باذر لاشياء ماضية غنوصية لامعة وخصبة تمضى باقية فى خلفية وجوده المفكر وعلى النقيض من هذا يكون ذلك الذى يتعلق بمستقبل عقيدته وأمله دون أن يصير تعلقه هذا مشكلة لوجوده الحالى ودون أن يبقى مع نفسه فى حالة من التقصى والجهل الساعى للمعرفة ودون فرض شىء بالايمان أو بالمعرفة • فالعالم المحيط يبدو هكذا كلا مصمتا ومظلما يتكشف بضربة لازب ودائما مثل هدف أو غنيمة ممكنة للارادة والامل وليس للتحليل المتأمل • وفى مثل هذا الموقف ، تتكثف الروح المعنوية وينمو الحماس حتى أن الشخص يحس أنه مربوط بثبات الوجود الذاتى دون أن يتعرى أبدا من شىء لدرجة أننى لكى أصل الى الكينونة على أن انفصل تماما عن الشعور الكامل بحياتى • ان فرض فيثاغورث بمجرد أن يوجد ويعبر عنه لا يحتاج لمخترعه كى يعيش • والعبارة المشهورة أفكر ثم أوجد تستعمل بالضرورة عبارة أخرى « ان التفكير يمضى مترسبا فى ابنية مطلقة وصالحة كسند للوجود نفسه حيث أنها غير متكاملة مع هذا الوجود » واذا كانت العقيدة فى اجمالها تحمل على عدم العلم فان المفكر باجماله (أو بمجرد العيش موضوعيا فى الاشياء أو فى اسهامات مضبوطة) سيتجه نحو هذا النمط من الرجال الذين ليس لهم واقع غير تفكيرهم الذاتى •

والمؤمن بالمستقبل ـ هذا النمط المزدرى بعد النهضة ـ سيكون خلاقا باستمرار ، ناهضا وعطاء فيما يتعلق بكل

امكانية دون الوصول الى الاستقرار فى أى من هذه الامكانيات • ان هذا النمط المؤمن سيمتلك أيضا شبها باله الكتاب المقدس أكثر من المؤمن بالنهضة الفخور بالقوة والمتطلع الى محاكاة الالوهية وزراعتها بالمنشئات الروحية لعقله ، تلك المنشئات المطلقة المطمئنة ، وغير المحتاجة للعناية الالهية • ويبدو ذلك مثلا فى قول هيجل « ينبغى أخذ المنطق كنظام للعقل المحض وكمملكة للتفكير المحض • فهذه المملكة هى الحقيقة دون تغليف ، الحقيقة فى نفسها وبنفسها • ويمكن القول بالتالى بأن هذا المحتوى للفكر هو تجل لله فى جوهره الخالد قبل خلق الطبيعة والروح المحدود

(Wissenshaft der logic Shettgart, 1928 pages 45 — 46).

واله الكتاب المقدس والاسلام (وقد عرضناه من قبل) سيكونان مثل فنانين لاينهيان قط أعمالهما الفنية كشىء تم تشطيبه واكماله • فالرجل ـ الذى خلقته التوراة ـ يخطىء مرة بعد الاخرى ، وينبغى تقويمه وخلاصة من وجوده الخطاء بيد الاله المسيحى • والرجل المسلم ـ وكل ما يوجد بالنسبة له ـ تجربة دائمة تمارس أصابع الله فيها عملها دون توقف وكينونته وحقيقته لن يبلغهما الا فى لحظة تكامله مع نقطة الاصل عندما يعود الى ديمومة العالم الآخر • أما الاغريقى ـ وامتداده العقلانى الاوربى ـ فهو فقط من يدعى بلوغ الحقيقة المطمئنة والمطلقة لكينونته •

ولم نشر من قبل ـ جملة ـ للطابع العملى والتطبيقى والمتكيف للمعرفة العربية ماعدا استثناءات نادرة فالنظرية المحضة كانت شيئا غريبا بالنسبة للعرب • ان معرفتهم تتصل بالضرورات الحياتية وبالدين وبالسلوك الاخلاقى والسياسة والزراعة والصناعة أى اجمالا بالحاجة الى

السعى للرزق والرفاهية . وقد رأينا ـ أيضا ـ عند عرضنا لازدهار المعارف اليهودية فى اسبانيا قبل القــرن ١٢ ، أن تلك المعارف لم تكن تلقائية عن مبادرة يهودية ، وانما كانت مشروطة بقوانين الثقافة العربية • وفى وقت متأخر اهتــم الاسبانى اليهودى بالتقنيات والمهام الكفيلة بضمان هيلمان واسع له بالنسبة للمسيحى صاحب الســيادة ، الذى كان بدوره ينظر باحتقار وامتهان الى أعمــال هذه الفئـــــات البشرية (مسلمين ـ يهود) الذين هم عباقرة ومســتذلون فى آن ، واهم يدين السيد الاسبانى ـ من جهــة أخــرى ـ بفكرته واحساسه بأنه فقط تغدو الحياة الآجلة مع الثقــة فى كينونة الاشــخاص والاشــياء سبيلا وحيدا لامتــلاك صلاحية الانسان الكامل عبر تكامله الذاتى والغيبى .

وفى ظل تلك العقيدة والأساس الحيويين تلتقى الشعوب الثلاثة (مسلمون ـ يهود ـ مسيحيون اسبان) التقــاء الشرقيين حتى أفق واحــد فلا احســاس الا الاحســاس الميتافيزيقى التلقائى والواقع هو ما سيكون ، وما ينبغى أن يكون : روابط دون فجوات مع الوجود المفترض والكــامل للانسان الفرد • فالعــالم هو ما احمــله فى عقيدتى وفى يقينى الثابت ، ولاشىء أكثر من ذلك • فالواقع الحــاضر هو حجاب خفيف أو كثيف لغيب يكمن وراءه • ويؤكد هــذا الرأى دراسة هــانز فون ســودين عام ١٩٢٧ وذو بيرى (Revista de Occidente, 1933, C III p.p. 94 y Sigs).
حول العبريين وافتراقهم عن الاغريق : « بالنسبة للأغريقى، تمثل قبيلته أو حكومته لحظــة من الطبيعــة ، بالنســبة للعبرى على عكس الاغريقى تصبح الطبيعة مسرحا لوجود شعبه ••• ومن هنا فان العبرى يرى العالم عبر أنمـــاط وجوده الشخصى • والآخرون بالنسبة له ليسوا ببســاطة

أخرين ، بل هم أجانب · فالآخر عند العبرى ـ كما نراه فى الانجيل ـ ليس له المعنى المجرد « غيرى » بل معناه « الاجنبى » وهذا الاجنبى ـ سواء كان قريبا أو بعيدا ـ يمكن التعامل معه فى الحياة أولا يمكن ، فهو اما صادق فى كلمته أو كاذب فيمكن معاونته ودعمه أو لا يمكن · والمعاونة والدعم يسميهما العبرى « أمان » ومن هنا تأتى كلمة emunah بمعنى ثبات واطمئنان · وثبات الصديق فى الكلمة التى منحها لى تعطينى الحق فى تسميته « الصديق الحقيقى » الحقيقة تبدو ـ هكذا للعبرى ـ مثل الاخلاص والوفاء بالوعد والصدق · ومن هنا يعيش العبرى بين الاشياء الاخرى ليراها جميعا وعودا بالنسبة العبرى بين الاشياء الاخرى ليراها جميعا وعودا : بالنسبة عند العبرى هى استمرارية الحجر ثابتا فى المستقبل ومتصرفا داخله بصلابة : الحجر صلب تعنى : أن الحجر سيدوم · فالحقيقة هكذا ليست صفة من صفات الحاضر انما هى وعد آجل . ان ذلك العبرى يتعامل مع البشر تعامله مع الاشياء ·· فالحقيقة لا تنتمى لحاضر وانما لمستقبل · العضو الحقيقى ليس الواقع el logos كاعلان لما هى عليه الاشياء ، انما الثقة والايمان فيما ستكون عليه الاشياء بما يعرض منها فى كينونتها الممكنة · الحقيقة تدرك فى الثقة والامل ·· فما عليه الاشياء هو مصيرها · والمصير سيكون شفافا عندما نصل الى نهاية الدهور · وأمام العالم يقول الاغريقى «يكون» والعبرى «هكذا ليكن» (amén) . وبدلا من رؤية الكل ـ وهذا ما يسميه الاغريقى نظرية ـ نشهد رؤية أخرى للكل مختلفة جوهريا : « الاسراء فى المستقبل » ·

وهذا الرأى يحظى بمغزى كامل اذا توسعنا فيه بالنسبة للاسلام واسبانيا · والصفحات السابقة تجعل من هذا

التوسع ضرورة · فالمسيحية الاسبانية ـ كما تظهـــر فى الفترة التـــالية لطرد المســـلمين وامتصـــاص العنصر اليهودى ـ مليئة بأصداء عبرية أكثر من الواقع الانجيـلى ذى الطابع الاغريقى الـــذى هو أيضا مفـــارق للمسيحية الاوربية · والاصداء العبرية ترديد للثقافة الاسلامية سواء بالاشتراك فى الجذور السامية أو بمحاكاة الحضـــارة العربية · والاسراء فى المستقبل يبرز فى المسرح الاسبانى مثل مئات من الظواهر الاخرى اذا قـررنا تأمل الامر تحت ضوء مناسب من الرؤية . اننا أمام عالم يتم فيـه التحسن فى القيم ـ اذا حدث ـ مشروطا « بمـــا هو قـادم » وليس بتقدم أو بصيرورة · وبنفس الشروط تعدم اللغة الاسبانية كلمة للتعبير عن الصيرورة بمفهومها فى اللغة الفرنســية فى لفظة devenir أو فى اللغة الالمانية فى لفظة Werden لأن واقع عالم الاسبانية قد بنى من موقع أفكار أخرى ، فان شيئا ما يعود هـذا أو ذاك لكن لا يتقـــدم ولا يســـتحدث (devenir) بالنســـبة لخيط أفكار الانســـان حيث أن الحاضر خلق من الماضى وليس العكس ، طبقا للعقـــائد الارتقائية فى القـرن ١٩ · ومن يصنع التـــاريخ الدلالى لكلمتى : Hacerse Volvers سيتبت له هذه الطريقة من تبؤرمعناهما ·

ان الاسبان الذين بدأوا حرب الاسترداد كانوا شعوبا متفرقة لا يجمعهم الا محاربة المسلمين بينما كان بينهـــم ما طرق الحداد من خلافات · وبحافز من فـترات الضعف المؤقتة التى يمر بها المسلمون فى الجنوب وبدافع الاحساس بالتفوق المستمر للمسلمين اندفعت تلك الشعوب الاسبانية الـ[illegible]ـة فـ ايمان بالغيب وبأنهم ابناء الله أو أبناء من كانت

أبوته تمنح الشرف · وخلال اندفاعهم كانوا لا يجدون مركزا يتجمعون حوله فى انطلاقتهم نحو الحدود المتحركة جنوبا أو شمالا · فى ذلك الوقت كان الحافز الشخصى للقتال ولنيل السيادة والشرف والدفاع عن المسيحية ونشرها هو الحافز الوحيد الذى يجمع الافراد فى طريق نحو عالم ميتافيزيقى مجهول يصطدم « بالاجنبى » الموجود الجنوب بالمفهوم العبرى «الآخر»· وفى ظل هذا الجو ينشأ شكل من الديمقراطية الفرنسية على أرض ثابتة وحول مركز ثابت هو باريس · فأتيح للفرنسيين ما لم يتح للأسبان من اتجاه نحو العقلانية فلا معنى للعقلانية فى مثل هذا الموقف الاسبانى وانما فرض على هؤلاء طريق شقه الانمزاج بالمسلمين واليهود ، هذا الطريق اجبرهم على الاشتراك فى أشياء والافتراق فى أخرى · وقد استمر هذا الاندفاع المسيحى اللاعقلانى فى الاراضى المفتوحة فى العالم الجديد حيث تم تشييد المبانى الرائعة لتخليد وتشريف مسيحيتهم وأنفسهم فى آن · ولكنهم ـ بسبب ما فرضوه على أنفسهم من عدم محاكاة اليهود والموريسكوس فى العمل والاختراع ـ انصرفوا عن الواقع والعلم وانطلقوا فى تحليقهم الميتافيزيقى ، ولولا الاموال الآتية من أمريكا لما استطاعوا تعضيد امبراطوريتهم الاوربية فضلا عن تعضيد أنفسهم كأمة مالكة لنفسها ·

مجموعات بشرية أكثر منها طبقات :

معاونة اليهود صارت غير محمودة ، فهو يعيش كوسيط بين المسلمين والمسيحيين مقدما منظهرا غريبا يستحيل أن يوجد فى المسلم · فاليهودى ضليع فى اللغات ، دؤوب ، متجول ، يقظ دائما ، منمزج عنصريا مع المسيحى أكثر من

المسلم بالرغم من الجهد المسيحى المتخر المعادى والمتمثل فى القوانين والمذابح للقضاء عليه · ان خصوصية مهام اليهودى غير المكنة للآخرين - بل والمزدراة - حولته الى شخص ينتمى الى مجموعة بشرية مستقلة ، ولا سيما أن عقيدته المخالفة حالت دون قيام رابطة عضوية وتدريجية لهذه المهام اليهودية مع مهام المسيحيين الذين بدورهم كانوا يشكلون مجموعة بشرية أخرى وليس « طبقة» أخرى· ومثل ذلك التسامح الطويل الممتد عبر القرون الوسطى - فى ظل المعايشة بين ثلاث مجموعات بشرية متناقضة : مسلمين ، يهود ، مسيحيين - حال دون ظهور النظام المتدرج للاقطاع الاوربى : فلاحون ، حرفيون ، نبلاء ، رجال دين · ولذا فان اسبانيا انفصلت الى ثلاثة تدرجات يستقل بعضها عن بعض ، وهنا يكمن سر غياب المجتمع الاقطاعى . واذا كنا قد رأينا أنه حتى القرن ١٦ ، قد بقى هناك موريسكوس ويهود يسيطرون على قلاع بأمر الملك ، فأى مجتمع متماسك كان من الممكن أن ينتظم فى ظل مثل هذا الاساس ؟

ولم يكن وجود الموريسكوس أو اليهود هو الذى يمنع تماسك الاقطاع (المجتمع الاقطاعى) وبروزه ، انما هذا الوجود نفسه يعد مظهرا من مظاهر صيغة للحياة تقوم على أساس العقيدة لا على أساس التفكير الموضوعى · وان الاحساس « بالمجموعة البشرية » قد نما عند المسيحى بمعيار يقوم على : ان الاقتناع بكونه مستقرا فى عقيدته كان يمضى محددا صيغة لحياته ووظائفه الاجتماعية · وعليه فقد كان التسامح والتكافل المؤقت للعقائد يوافق جيدا بداية الاسبانى المسيحى لحياة فوق جواد عقيدته : جواد شانت ياقب (سانتياجو) · ونصر - هنا - على

الحاجة الماسة لعدم الخلط بين المفهوم المعاصر للتسامح مع المفهوم الاسبانى فليس تعيين ملك قشتالى لوزير خزانة يهودى له نفس معنى وجود وزراء يهود فى بلاد معينة حاليا · ان التفريق بين المفهومين يجنبنا أن نطبق على ظاهرة تاريخية المفهوم النوعى لظاهرة أخرى · فالبلاد الحالية التى تعين وزراء يهود لا تؤسس حياتها على الاعتقاد فيما هو فوق انسانى انما على معايير عقلانية ذات وظائف سياسية · ان كلمة مؤمن ـ آنذاك فى اسبانيا ـ كانت تحتل مرتبة كلمة « مواطن » فى الفلسفة السياسية للقرن ١٨ ، وهى كلمة ـ أعنى مواطن ـ لم توجد فى القرون الوسطى · ولقد وجد موظفون يهود فى البلاطات الاوربية فى القرون الوسطى فى محاكاة مسيحية للثيولوجيا الاسلامية التى تقبل تعدد الاديان باعتباره أمرا صادرا عن ارادة الله · وقد شكل المسيحيون هذا المبدأ فى قوانينهم وطبقوه فى حياتهم ، وفى نفس الوقت أدخلوه تحت صلاحيات قانونية أخرى مثل السماح لليهودى بالعيش مع المسيحى ، والحيثيات القانونية لذلك هى الآتى: على اليهود أن يعيشوا فى أسر مستمر كذكرى لصلب المسيح ، الذى قاموا هم أنفسهم بصلبه · وعلى الرغم من ذلك فالمعبد اليهودى بيت الله طبقا للقانون الاسبانى ·

الا أن اليهودى انقلب الى « عقار » ملكى لكون العقيدة المسيحية متفوقة على العبرية · وتفوق المسيحى ـ بناء على ذلك ـ لم ينبع من نبالة اقطاعية ، وانما من احساس بتفوق عقيدته مما نمى فيه أكثر الاحساس بالانتماء الى « مجموعة بشرية » متميزة بشكل يفوق تنمية الاحساس بالانتماء الى طبقة ـ فالطبقة الاجتماعية تتجسم حدودها بمحتوى وظائفها ومهامها بينما المجموعة البشرية تتكامل بمجرد

الوعى بوجودها ، وعاجلا أو آجلا انتهى الاسبان المسيحيون بالاحساس بالمجموعة البشرية المتفوقة لمجرد أنهم مسيحيون وليسوا مسلمين أو يهودا . وصيغة حياتهم اليومية كانت ـ بالتالى ـ معادلة لصيغة خلقهم الأدبى : صيغة تـكاملية من جذر اسلامى ـ يهودى ، استخدمت على المشاع المعـين الحيوى لكل من المسلمين واليهود والمسيحيين .

صيغة الحياة الاسبانية :

تكامل فى الشخص وغيبة للتفكير الموضوعى :

قد جرت العادة فى الحكم على الحيـاة الاسـبانية من منطلق المبدأ الذى يقول : ان الصيغ الأكثر انجازا ـ لمـا أطلق عليه الحضارة الغربية ـ تعد الهدف الأسمى الـذى كان يجب أن تسير اليـه كل شـعوب الأرض . بدائيون ومتأخرون وأطفال أو ضالون : هكذا كان ينظر ـ وربمـا لازال ـ الى المجاميع البشرية التى لم يتضمنها قط حـيز الحضارة التى بدأت فى اليونان وشكلتها سياسيا رومـا ثم وصلت بها ـ من بعد ـ الى قمتها بتلك المكتشفات الفخمة للعلوم الطبيعية . والمؤمنون بكفاءة هذه الصيغة الحيـاة يرون أن الشعوب المتخلفة بالنسبة لهذه الحضارة يعيشون داخل دائرة فى انتظار استقبال ضـوء الوحى الجـديد ، بنفس الطريقة التى عاشها الوثنيـون (كمـا كان يظن فى العصر الوسيط) فى انتظار وصول المسيح . والفـكرة المسيحية قد استبدلت فى القرن ١٨ لتحل محلهـا فـكرة الايمان بالتقدم فأولئك الذين لا يعالجون الرياضيات واللغة الفرنسية والتفسير العقلانى للعـالم وآداب السـلوك فى الصالونات الفرنسية كان ينظر اليهم أيضا على أنهم أناس فى انتظار الخلاص . وكذلك الامريكى اليوم يراهم غربـاء

وناقصين أولئك الذين لا يملكون منظمات اجتماعية شبيهة بمنظماته حيث أن منظماته هذه فى غاية التحضر كما يعتقد . والروسى السوفييتى بدوره لا يعترف بانسانية كاملة فى الأمم الا بنظام بروليتارى . واسبانيا كارلوس الخامس تطلعت الى ضم كل شعوب الأرض الى حظيرة ايمانها الثيوقراطى الشريف (المرتبط بالدين والنبلاء) وبسطت عنفوانها من أجل هذا الحافز بنسبة لا تقل عن عنفوان الانجليز فى القرن ١٩ . وهذه الآراء المركزة (وغير الأنانية) تمثل ثقة ثابتة فى قيم الأمة التى تطلقها ، وفى نفس الوقت تصير عقبة فى سبيل ادراك قيم شعب اخر لا يخضع لدائرة هذه الآراء فعليا ، وان خضع سياسيا . كذلك هذه الدائرة الضيقة تلقى بالخلل والعجز على عملية التاريخ للأمة نفسها صاحبة هذه الآراء .

ولاشك فى أن صيغة حياة لوطن ما - كانت ما كانت - يمكن فقط تقييمها تاريخيا بالنظر الى القيم التى خلقتها وليس بالنظر الى بلهنية العيش التى أمطرتها هذه الصيغة على أصحابها . وعند بداية هذه الصفحات كان المنطلق من الفرض بأن التاريخ الاسبانى تشكل من « العيش انغماسا » فى احساس بعدم الرضا عن عاقبة ظروفه الذاتية أو فى الدفاع عن هذه الظروف بكل امكانية لامتلاك الوعى بضرورة كينونته هكذا كما كانت . وهذه الظاهرة لا تطل علينا فى أجزاء أخرى حيث أن أوربا الغربية جربت ممارسة تغيرات مدفوعة بنشاطها الفكرى ، بينما سقط المسلمون فى اطمئنان « شال » دون أن يثيروا قضية « اسلاميتهم » . وبعكس هذا ، بل وفى مواجهة ذلك الاطمئنان - مهما كان نوعه أو طرازه - وعى الاسبانى المسيحى دائما أنه يحتاج الى شىء ما ، من ثم بحث عن

أشياء تسد ذلك الفراغ الذى يفتقد امتلاءه،وشكل الصيغة الداخلية لحياته طبقا لنماذج سامية ، وعمق ادراكه للظواهر الخارجية عبر عملية وجوده نفسها · ونضرب لذلك مثلا : ترددت مثل هذه العبارات « اصباح فقير وامساء ثري » ، « البيت يمطر » وعبارات أخرى مثيلة · وقد كسب ذلك المسيحى الاسبانىالمعركة ـ هكذا ـ على الطريقة الاسلامية بسبب محاصرته بوعى غير متعصب فى الداخل والخارج ، وفى التفكير والحوافز ، ومن هنا انتصب فى مجموعة بشرية مغلقة دون جواز الى الآفاق العقلانية للعالم ، وبالتالى دون امكانية لخلق عالم موضوعى · بهذا النمط من العيش أدرك ذاته والعالم من حوله كما لو كان الاثنان فى حالة محددة وغير قابلة للتبادل ، فكان ادراكا بغير امكانية لتنويع الظروف المتعلقة به . وبدون اقتحام الاشياء من خارجها لظل الاسبانى بضىء لنفسه بقناديل من الزيت وبشموع وأخشاب مشبعة بالراتنج ·

هذا العيش بكل الكينونة ـ كما يقول ابن عربى ـ أدى الى نتائج عظيمة بالنسبة للفعل الشخصى والتعبير الشامل عن الحياة فى العمل الفنى · ومن الواضح أن الاسبانى المسيحى كان عليه أن يدفع لذلك فوائد باهظة · لأنه بدون أشياء أو أفكار موضوعية لم تتمكن المجموعة البشرية الاسبانية المسيحيةمن التحول الى طبقة اجتماعية كما لم تتمكن من الارتباط بطبقات أخرى كان من الممكن وجودها على قاعدة من وجود موضوعى للأشياء والأفكار فليس من المتاح أي تبادل اجتماعى دون بنية للأفكار غير شخصية تحفز الناس على العيش طبقا لمشروعات موحية ومناسبة وممكنة·وهذه البنية للأفكار حدثت في ظلها أعظم التغيرات فى أوربا الغربية نتيجة لتبادل الأشياء والأفكار بين

الطبقات بعكس اسبانيا التى ظلت الى اليوم تتأمل ذاتهـا ممثلة فى كل شخص على حـدة ، تستورد من العـالم الاسلامى ثم من العالم الأوربى ، ولاتنتج الا احسـاسها بوجودها ممثلاً فى الفن والأدب ٠

استجابة مستمرة للارادة وليس لمطالب التفكير :

ان الاوربى الغربى يسـتطيع أن ينفصـل عمـا يعتقـد ليتعامل مع الأشياء بموضوعية لصياغة مشروعات لأبنيـة جديدة للدين أو السـياسة أو أى شىء كان ٠ ان المؤمنين بواقعية العالم طبقا لقوانين الفلسفة الواقعية امتلكوا منذ القرن الحادى عشر امكانية النظر الى الواقع طبقا للأفكار الموضعة للفلسفة المدرسية التى كانت تفرغ الاشـياء من واقعيتها مبقية لهـا الاسـماء فحسب ، تلك الاسـماء التى تشير الى وجـود يفتقـد المضمون الموضـوعى ٠ وقد مهد ذلك لوجود مفـكرين فى القـرن الرابـع عشر ، ينادون بفصل الحقائق الدينيـة عن الحقـائق العقـلانية مما فتح الباب واسـعا أمام الصـولات والجـولات العلميـة . وأدت ذلك فى القـرن الخـامس عشر الى أن تظهر ـ فى العالم غير الاسبانى ـ أكثر صيغ التفـكير والتدين اغراء وتنوعا ٠ فانجليز القرن السـادس عشر ـ حتى نشير لمثال ـ ظهرت بينهم فكرة مموضعة ـ امتلكهـا ايضا كثير من الأوربيين ـ مؤداها أن الكنيسة الحقيقية لم تكن كنيسة هؤلاء الأساقفة ، انما هى كنيسة عامة المؤمنين، من ثم اقاموا صلواتهم فى المبنى الجديد المثـالى ٠ وعلى هذا انطلقت الى الميدان العام فكرة أن الشعوب تملك حقوقا أكثر من الملوك فيما يتعلق بتقرير مصيرها ، حينئذ قطـع الانجليز رأس عاهلهم ٠ كذلك ، اقترح الفرنسيون ـ بعـد ذلك ـ بعض الافكار الغريبة حول عدم شرعية امتيـازات

النبلاء ورجال الدين ، ثم نفذوا تلك الافكار بوقف هـذه الامتيازات ، وتسليم السلطة العامة الى طبقة اجتماعية جديدة : تلك الطبقة المسماة بالبورجوازية وبعض الألمان فى القرن ١٩ قالوا ـ فى ارتباط بكل هذا ـ أن السلطة يجب أن تنتقل من أيدى الأغنياء الى أيدى الفقراء ٠ وقد أصبح هـذا المنظـور مغريا لملايين من الفلاحين الروس مما فرض تبدلا فى الحياة الروسية ، وفى حياة شعوب أخرى ٠

وعلى العكس من ذلك ، لم تتمكن المجموعة البشرية الاسبانية المسيحية من موضعة الأفكار أو الأشياء لا فى العصر الوسيط ولا فيما تلاه من قرون ، وعاشت تتأمل وجودها الذاتى فى عيشها هـذا الوجـود نفسه ذاتيا . والغريب الفريد فى هذه الصيغة للوجود أنها رغم اسلاميتها فلم تكن نوما فى العسل أو سكونا داخل النفس كما حدث للمسلمين والصينيين وانما كانت محافظة على البقاء فى دفاع عن النفس بشكل غامض يوضع موضع الجدل،مع وعى كامل بضرورة الوجود فى كينونة تكون كيفما كانت ، ومن المستحب أن تبقى كيفما كانت ٠ ان الصيغة الاسبانية للحياة تدافع عن ذاتها بنفس الوجه الـذى حمى بـه دون كيخوته كيخوتيته فى مواجهة كل القساوسة والحلاقين والمتعلمين ومقننى العقلانية ٠ ان كونك كيخـوتة يعنى بالضرورة ارادة تعضيد كيخوتيتك التى تريد أن تكونها ولو كان الثمن الحياة نفسها ٠ ان الجوهرى فى الكيخوتة ليست الجولات المسلية أو التقلبات لذلك المجذوب المختلط العقل ، انما هو العزم الجرانيتى فى أن يبقى شامخ القامة بالاسلام والظرف اللذين يمليهما فى مواجهة الجميع وجميع الجميع ٠ وهكذا كانت اسبانيا منذ حوالى ألف عام : وقد

أدت هذه الصيغة للحياة الى استجابة مستمرة لمطالب الارادة وليس لمطالب التفكير ،وبالتالى لم تتوحد اسبانيا عبر جسور موضوعية تنبنى على أفكار وتفكير ـ سواء ممن يسكنها أو يعيش فى امبراطوريتها ـ وأدى ذلك بدوره الى عدم وجود اهتمامات عامة ، انما وجدت وجوه فى صفوف مرقاة تتقارب فى الاعتقاد فى الزعيم أو الملك أو « سانتياجو » أو الله • ولم يحدث فى اسبانيا ولا فى أمريكا اللاتينية أن تمكنوا من خلق تواصل بين الأقاليم فى شبكة من المهام العامة أو التى يكمل بعضها بعضا ، فأصبح ذلك الواقع الانفصالى فى اسبانيا وأمريكا اللاتينية أمرا طبيعيا من الناحية التاريخية • ان هذه الأقاليم تصير موحدة فقط اذا وجدت قوة خارجية وآلية تجبرها على هذا التوحيد •

وفى اسبانيا اليوم نجد كل وسائل التكنولوجيا الحديثة من القطارات حتى الحقن تحت الجلد ، فى اسبانيا الأمس وجدت وسائل تكنولوجية كانت جديدة فى زمانها ، فما الفرق بين اليوم والأمس ؟ الفرق : أن منتجى هذه التكنولوجيا بالأمس كانوا فى داخل اسبانيا حيث يصدر المسلمون واليهود ما ينتجون الى مجموعة المسيحيين البشرية ، أما اليوم فاسبانيا تتبنى كل ما ينتج فى الخارج وتستورده ، وبقى اسبانى اليوم عاكفا داخل ذاته مثلما فعل بالامس • واليوم يرى الاسبان التاريخ الذى فيه يوضعون قد تشكل من تهيئة سلسلة من التغييرات الزخرفية « على وضع ثابت مع دأب للخلود) تترك ما هو جوهرى من اسبانيا بعيدا عن اللمس •

ان الخلط بين الخالد والزائل قد أعطى دافعا تبريريا لأشواق من يوجدون فى اسبانيا • وعلى الرغم من ذلك فيكفى التفكير فى أن تلك الظاهرة تمضى فى طريقها معلنة

عن نفسها منذ حوالى ألف عام لندرك أســـاس مثل هــذا الفرض • فبــدلا من التبسيط الســهل ســـنلتقى مع أكثر المشكلات تشابكا وتعقيدا فى تاريخ الشعوب الحديثة .

ان كل تجديد يحمل بعض الأهمية فى مظهر ذلك التاريخ وفى الوقائع المنزوعة الشخصية ـ كان دائما يأتى من خارج اســـبانيا المسيحية على الرغــم من أن ارادة تحقيق ذلك التبادل لاتبدأ فى انطلاقها الا من اسبانيا •

وعلى سبيل المثال قرر الاسبان فى العصر الوســـيط ممارسة التسامح واقتباسه بجانب امتلاك انظمة عسكرية وتأسيس مدارس • وقد تم ذلك الاقتباس من المســـلمين مقابل رفض نفس هؤلاء المسيحيين الاسبان اقتباس أشياء أخرى كثيرة كان يمكن اقتباسها (مثل الشعر الغنائى) • وحتى لو كانت هذه الاقتباسات قد أملتها الظروف فانـــه لا يوجد ما يجعلنا نستبعد تواجد قبطان قادر للسفينة التى تلهبها سياط العاصفة •

وعلى الرغم من مبادرة اسبانيا الى الاقتباس فان هــذه المبادرات لم تكن تصدر دائما من نفس الاقليم أو من نفس الطبقة الاجتماعية ، فنحن نعلم مثلا أن ارادة طرد اليهــود قد صدرت عن طبقة العامة وليس عن طبقة النبلاء • ومنــذ ذلك الحين واصلت اسبانيا الاستيراد الى اليوم •

حول الوجاهة الاجتماعية :

ان المسيحى الاســبانى قد وصــل الى كمـــال الوعى التاريخى بنفسه محاربا غلابا حتى أن التفوق والانتصــار مضيا يلتقيان دون حاجة الى النهوض بأى عمل آخــر من الاعمال التى وقعت على كاهل قوم آخرين : قــد راحــوا

يؤدون كل الأشياء خاصة تلك التى لا يستطيع الاسبانى المسيحى أن يديرها أو يستوعبها .لقد أشبعت حتى الفيضان كل الاحتياجات التى صارت ـ فى نفس الوقت ـ مؤشرا لمشاعر أولئك الذين ينتجونها • ان تكنولوجيا المسلمين واليهود وعملهم كانا فيئا بالغ العطاء انسانيا ، مثلما ستكون فيما بعد ـ وطبيعيا ـ معادن الهنود الثمينة • ان عالم الأشياء المنجزة من أجل الانسان وعالم الثروات الموهوبة فى وفرة من الأرض تظهر تحت شارة المسود والسيد عبر قيمة وجهد قاس •• لقد دخل الاسبانى المسيحى تاريخه مع الاحساس الخطر بامكانية الصعود المفاجىء الى ذراه الرفيعة • وبالفعل فى عام ١٠٠٠م كان القشتالى يحس أنه قادر على غلبة المسلم الاندلسى ، وأن قرطبة الرائعة صارت فى طول سيفه حيث أن الاستيلاء على طليطلة وعلى بلنسية (حتى ولو كان الاستيلاء على هذه المدينة الاخيرة استيلاء مؤقتا) وافقت شاعر التفوق فى القرن الحادى عشر ، تلك المشاعر المؤسسة على الوعى بقيمته الجوهرية • وسيقول القمص بعد ذلك بقليل :

بالعمل الطيب ★ ينتصر فرسان اسبانيا

ان المسيحى الاسبانى مضى ـ فى ثقة من قوته ومكانته ـ يخضع المسلمين واليهود ويواجههم مقلدا مرات ما هو ذاتى (على سبيل المثال : الملابس ، العادات الاسلامية •• الخ) لكن ليس ما هو موضوعى أو غير ذاتى (انشطتهم العلمية والانتاجية) حتى اكتسب ما كان يمكن أن يبقى عنده فطرة فى عقيدته (التسامح الأخلاقيات) وليس ما كان سيكون بالحتم عدم تكامل فى الذات (التفكير

★ يقصد عمل المسلمين واليهود فى خدمة الاسبان •

ـ الموضوعية) وهكذا راح يبلور الايمان ـ الدينى غالبا ـ فى القيمة الجوهرية لذات الفرد ، وفى التعـــالى على كل ما عداها طالما كان عملا آليا ٠ ان مفهوما تجريديا للتاريخ سيتأمل مثل تلك الفكرة كموضوع أو مقولة سائدة ، وسوف يكتشف علاقتها بالحط من شأن العمل الانســـانى عنـــد أفلاطون بجانب عدم تقديره للفنون ، الامر الذى ســيعود للظهور فى العصر الوسيط (١) ٠

ان هذه القيمة لم تكن فحسب روحا معنــويا ، وفتـــوة وبريقا يوصف بها جميعا الشخص مثل نعوت له ، وانمــــا كانت جوهر المنعوت بها ، مما ـ يجعله كلا ويعطيه بالتــالى « كلية » تحوله الى انسان من قطعة واحدة ، وهذه مفاهيم نابعة عن قصد تصنيفى لما هو انسانى (تصنيف للكائنــات غير صالح خارج المنطقة الاسبانية) وهذه المفاهيم لا نعنى التكامل الاخلاقى أو النفسى بشكل هرمونى ، مما قد لايدفع الى العمل وانما تعنى شيئا فاعلا يوحى بروح معنوية وقيمة جوهرية ، ومن ثم يطلق على هذه الكلية المشار اليها ـ «كلية الحفز » ٠ ان الاسبانى هو الوحيد فى الحضارة الغربيــــة صاحب الفكرة التى ترى أن المهنة الوحيدة اللائقة بالانسان هى أن يكون انسانا وليس غير ٠ ان فعل «الاشياء» ـ الأمر الذى ينتهى بالوجود الخارجى أو المستقبل عن الانســـان ـ

---

(١) Hugo de San Victor, en patrologia, Vol. 176, Col. 747 (ap. E.R. Corlius, en ZRP, h. LVIII, 23).

سيكتب كثير من الاسبان حول ضرورة المحافظة على ما اسموه القيمة الجوهرية للانسان (طبعا الاسبانى) بعدم الخوض فى الاعمال الخارجة عن هذه القيمة من عمل يدوى وغيره ٠ راجع ٠

Concordia de las leyes divinas y humanas, Madrid, 1593, fd. 126t.

يعني تخلى الفاعل عن أن يصير انسـانا ٠ ويؤكـد ذلك ما حصل عليه مؤلف هذا الكتاب - عن طريق الصـدفة - من احصائية عن قشتالة وليون عام ١٥٤١م تقدم ٧٨١٥٨٢ ممول ضريبة ، ١.٨٣٥٨ أعيان (يعفون من الضرائب) ٠ هذا يعني وجود ١٣٪ من عائلات المملكة لا تدفع ضرائب ، ولا تؤدى أى عمل من أى جنس ، وتعيش مثل طائفة منغلقـة على نفسها ٠ وعند هذه النقطة نصل الى الطريقة الاسبانية فى العيش ، وفى نفس الوقت نحس أن جماعة ما لا تستطيع أن تحافظ على بقائها دون عمل متبادل العطاء ، فمن المحتم وجود رئيس يحكم ومطارنة يصلون، ومستشارين يشيرون، وقضاة يقضون ونبلاء يسيطرون (ويشعون بمـكانتهم) ، وجنود يدافعون ، وعمال يزرعون ، وتجـار يسـوقون ، وعمال ينهضون بما هو آلى ٠ ان الفئتين الأخـيرتين من الأنشطة كانت بالضبط تخصص للمسلمين واليهود ٠ وان هذا الأسلوب جلبه الاسبان الذين راحوا الى بلاد الهنـود (أمريكا) وأبقوه هناك حتى اليوم ٠

ان قراءة نصوص كثيرة حول القرن السادس عشر تفيد كلية الحياة الاسـبانية فى مناطقها العليـا والمتوسـطة والشعبية ، فلا تفكير ولا معرفة ولا قـراءة حتى يصبح الانسان فى حماية من السادية ودأب الاغتصاب عند محاكم التفتيش التى كانت مهازا للانهاك الثقافى الاسبانى فى ذلك الزمان الذى استعاض عن حيوية التعبير بسكينة العقـل ٠ ان الروح تطلب قبل كل شيء الحرية فتكون الحـرية ٠ ان طريقة الوجود حتى نهاية القرن الخامس عشر ، والتى كانت مغلقة على أى موضوعية ممكنة أفرزت الضراوة القـروية الطابع للتفتيش الذى صار بالنسبة للروح نفس الذى كانته المنظمة الاجتماعية والاقتصادية عام ١٥٠٠م بالنسبةللحياة

المادية للقروى : كبت وتحكم ·· والخطين أن السروح الاسبانية لم تكن حينذاك معدة للنضال فى الحقل المفتوح للنشاط العقلى ·

بافتراض هذا الاسلوب للحياة كان لابد أن يصير كل شىء هكذا ، ونحن فى غنى عن اضاعة الوقت فى عرض الأضرار التى ترتبت على امبراطورية العقيدة أو كشف أن خشيونة وانهاك العقل ـ أخيرا ـ هما عجاج ترك خلفه القرى تتغذى فقط على العقيدة . وبناء عليه ، كان على اسبانيا أن تصين قرية من فلاحى مسرح القرن السابع عشر ومن جماهير الفلاحين والفقراء المفتقدين لمدخل الى الوجاهة (النبالة) يهيمون على وجوههم فى كل انحاء شبه الجزيرة ·

ان التاريخ لا يكون بطرح أحداث واجراء ملاحظات عليها ، وانما برؤية الحوافز والمقتضيات · ان الشوق لقيم مطلقة كواقع نقى معاش لا ينقطع تياره كان مضادا للفكر الذى بحث عنه الاسبان من كبار من عارض هذا الاسلوب للحياة أو كان أيضا مضادا لراحة ورفاهية افتقدهما كل الاسبان فى ذلك العصر وفى كل عصر .

ولنختتم بالآن

مما يستحق التقدير خداع النفس جذريا فى متابعة للطريق الذى بدأه هذا الكتاب ، وذلك أفضل من ادعاء انغلاق « ما هو انسانى » داخل الاحداث ، وفى كلمة أخرى: داخل أشباح دون التئام تاريخى حيوى · فلم نحاول قص أثر تاريخ بالمعنى المعتاد للكلمة ، وانما حاولنا تقديم ترشيد يجعل كتابة التاريخ أمرا ممكنا يوما ما · ومن أجل هذا

المشروع _ أو البدن _ لقصة الحياة الذاتية لاسبانيا قد خدمتنا تلك الظواهر التى تتجلى فيها صيغة الحياة معبرة عن نفسها مباشرة : فى اللغة ، فى الأدب ، فى الاعترافات الذاتية ، وفى كل ما يبدو لنا بنية التدفق الحيوى للذات ٠ وكتابات اليوم تعان عن عودة بعض الظواهر التى تحدثنا عنها فى الأدب الحديث ٠ ومع ذلك فان ظواهر القرن السادس عشر ليست هى ظواهر القرن السابع عشر حيث تدخل فى هذا الأخير خيوط من لون آخر ، ومع ذلك ظل « النسيج الاسلامى _ اليهودى » فاعلا : فى الحياة الدينية والأدبية ٠

فى النهاية ، فى الوقت الذى يمكن أن تكون العقلانية الاغريقية الاوربية وقد ولدت فيما بعد قيما رفيعة أو غير رفيعة ، لا يمكن كما رأينا تجاهل ما هو اسبانى وما أعطته اسبانيا لاوربا التى ظلت قطعة منها لا يمكنها الاستغناء عنها ٠

وبعد :

لهذا العمل بقية تتمثل فيما أنوى تقديمه من التطور الذى أصاب تفكير اميريكو كاسترو ونظرياته وهو تطور يقدم عالما يتجاوز نفسه دائما فضلا عن تجاوز علماء عصره بين الحين والحين ٠ وجزء أساسى من هذا التطور المعركة التى دارت حول نظرياته وما أحدثته هذه النظريات من تطور فى فكر الآخرين ٠

وبالله التوفيق ٠٠

مصادر ومراجع عربية

١ ـ أبو هلال العسكرى ، ديوان المعانى ـ مكتبة القدسى، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ ٠

٢ ـ بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة د٠ حسين مؤنس) ، القاهرة ١٩٥٥ .

٣ ـ ابن حزم ، طوق الحمامة (نشرة الطاهر مكى) دار المعارف ـ القاهرة ٠

٤ ـ ابن حزم ، رسالة فى مداواة النفوس (نشرة مطبعة النيل بمصر ١٣٢٣ هـ) ٠

٥ ـ ابن حزم ، رسائل (نشرة احسان عباس ، مكتبة الخانجى بمصر والمثنى ببغداد) ٠

٦ ـ ابن خفاجة ، ديوان (تحقيق : السيد غازى) منشأة المعارف ـ الاسكندرية ٠

٧ ـ ابن عربى ، الفتوحات المكية (مصورة عن طبعة دار الكتب العربية الكبرى بالقاهرة) ٠

٨ ـ ابن عربى ، فصوص الحكم (شرح ابى العلا عفيفى) دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٤٦ ٠

٩ ـ ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٢ ٠

١٠ ـ جميل بثينة ـ ديوان (تحقيق د٠ حسين نصار)، القاهرة ٠

١١ ـ المقرى ـ نفح الطيب (تحقيق احسان عباس) دار صادر ـ ١٩٦٨ ٠

١٢ - ابن قزمان - ديوان (نشرة كورينطى) المعهـــد الاسبانى العربى - مدريد .١٩٨٠

١٣ - ابن الكردبوس - تــاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (تحقيق مختار العبــادى) - المعهد المصرى للدراسات الاسلامية - مدريد ١٩٧١

مصــادر أجنبيــة

1 — A.V. Prat, Historia de la Literatura Espanola, Edit. G. Gili, Barcelona, 1963.

2 — C.S. Albornoz, Espana Un Enigma Historico, Edit. Sudamericana, Buenos Aires, 11956.

3 — Enciclopedia Universal Sopena, Barcelona, 1976.

4 — M. Asin palacios, La escatologia Muslmana en la Divina Comedia, Tercera ediciòn, Madrid 1961.

5 — M. Asin palacios, Ibn Masarra Y. Su Escuela, Madrid, 1946.

فهرست

الصفحة

كلمـــــة	الصفحة

رقم الايداع : ٨٣/٤٢٦٤

القاهرة الحديثة للطباعة
أحمد بهاء الدين الخربوطلي
٣ شارع الجد بالفجالة
تليفون ٩٣٤٣١٠